الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

غادرتكِ فلا تذبلي

هشام فريد

رواية

غادرتكِ فلا تذبلي

غادرتكِ فلا تذبلي

رواية

هشام فريد

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2016م - 1438هـ

ردمك 978-614-01-2047-1

جميع الحقوق محفوظة

تـوزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهـــداء

«إلى خَلجَةِ الإحساس أمّي..

وإلى عمُودِ الدّار والدي..

أحبكم..

كونوا بخير.. دائماً..»

«إذا كنت تسير عبر الجحيم، فامضِ قدماً ولا تتوقف» .

ونستون تشرشل

الفَصْلُ الأوّلُ

I

أنا مر، مرٌّ جدّاً كسودائي التي أشربها.

كلّما فكرت في ذلك، فأنا أكره هذا حقّاً، أكره الجلوس إلى مكتبي محاولاً إشعال رغبة انتقام، لكن لماذا في هذا الوقت بالذّات، ربّما كان يجب عليَّ أن أفعل هذا منذ زمن، أو أنَّ الزمن لم يكن لديه وقتٌ ليُعلمني، تواطؤاً مع كلِّ شيء، بحلول لحظات كهذه، أو ربّما كان حقيقاً منّي أن أفعل، وأصبح مباحاً الآن فقط أن أنتقم حبراً على ورق بعد أن شارفت على الانتهاء والتّلاشي بفعل نخر السنين والفتك المُفتعلِ بي..

ومن الصعب أن يتحدّث ههنا شخصٌ لن يبقى موجوداً بعد مدّة، فماذا أسمّي كلماتي هذه التي ستتخذ شكل التّحوُّل لتصبح جملاً فأوراقاً؟ أعلم أنّها لن تشكّل نقيضاً يفسّر شيئاً مما يحدث لي، أوراقي هذه التي لا يهم متى سوف تنتهي أو أنّها لن تنتهي بعدي، فانتهاؤها مرهونٌ بحياتي التي لا أعرف متى ستنفد منها آخر شهقة حياة، قد تكبر هي وأصغر أنا لأبقى معلّقاً في عنوان قصيدة لمحمود درويش «بقيّة حياة».

يا للسّخافة! هل فاض الألم فجأةً حتى بدأت أكتب ههنا؟ أم أن خبر الأسابيع المحتملة المتبقية لي جعلتني أرشد إلى هدي

الكتابـة، أو أنّـه كان محتّمـاً أن أهتـدي إليهـا، وأنّ جرثومة الحكي علـى الـورق وجـدت أخيراً منفـذاً لها كي تجتاح عالمي المسـتور والمفقـود فـي دواخلي، وأن سـمات ظهورها علـيّ تفتّقت بافتعال فكرة الموت؟!

فهـا أنـذا! وحيـداً فـي شـقّتي التي تشـبهني في كلّ شـيء، لا سـعيداً لا حزينـاً، ألـوك ذكريات الماضي فـي ذهني، وأنفث حثالة سـجائره فـي منفضـة النسـيان الـذي لم أروِّضـه إلـى الآن. مغترباً ألتصق في خرابي الجميل هذا وسـط الكلمات، أعزل أمام سـلطنة الوجع وفاشلاً في محاولات تبيان زلاتٍ وشرحها بكلمات بخسة. ليست الكتابة الآن حلّاً لي من ورطتي، بقدر ما تورّطني أكثر أمام صهيل الحزن، فلن أشغل حيّزاً في هذه الدنيا بعد الآن، وأدري أنّ أفكار الغضب والحداد لن تنسِل في جملٍ وفقرات، وأعلم أني لن أشفى، بل لا آمل في أن أشفى، فما زلت أغرق وأغرق، ولا شيء يصعد بي وهماً سـوى زيف أحلامٍ صغرى تخلقها الكتابة تأريخاً. فبعد كلّ شيء، جاز لي الحديث ههنا، ولا شيء يدفعني الآن إلى الكتابـة سـوى الألـم الـذي ينفد فلا يبقى منه سـوى الوجع. أعلم أنّ الكلمات سـتخونني في النهاية رثاءً على ما تفعله بي وعلى ما أحقنها به، لكنّي مستعدٌّ كي أفجّر جدران هذا الكتم.

ولـو اسـتطعت ترجمـة هـذه الأوراق صوتـاً لفعلـت.. لكـن للأسف لا أستطيع، هذا ما تكنّه الصدور، والشّفاه تخون ما تخفيه الصّدور. كما لم يتبقَّ لي الكثير كي أستخدم صوتي الرّخيم، فلتنب عن صوتي حبال الكلمات ورنَّة علامات التّشكيل والترقيم..

منذ بدأتُ هذا القمار المعقّد والوازن، وأنا أجد نفسـي تائهاً

فـي تحديـد مواطن الحـروف ورصدها، تُرى كيـف يواجه الكتّاب مُغامراتهم مع بياض مجهولٍ مُختلق. تستحيل عليّ الكتابة بالجهل عـن مـا يجـب عليّ خطّه على هذه الأوراق، ولكنّي أدري أنّ خطّ قلمـي سيسـير علـى خُطـى حزني فقط، سـائل غربتـي وحده كفيل بإيقاظ قرحة الكتابة وضمور لاوعيي في أناملي.

أتراها الكتابة صعبة إلى هذا الحد في حقن هذا التّيهان داخلي بيني وبين نفسـي، أم أنّ كتابة نفسـك تُعدُّ شـيئاً قاسياً وغير شريفٍ في حقِّ النفس؟

أهي تعرية أم ماذا؟

مـاذا أقـول يـا تـراي؟! من أين أتى كلّ هـذا!!. لو لم يخبرني الطّبيب البارحة لما كنتُ قد بدأتُ بالاقتراب من الجراح وتعريتها بجـرّات قلـم، لـو لم يكن كذلك لما بـدأتُ رحلة التّمرّد هذه، لما أصبحتُ في غمرة نزعةٍ عاطفيّةٍ قاتلةٍ في ترسيخ شيء ما منّي قبل أن تتبـرّأ منّـي كلّ صلـة، فوحدها الكتابة حديث يطبّبني مع نفسـي غيـر المصالحـة. ولعـلّ حروف التّمنّي والدّهشـة تجد أخيراً مفرغاً واسـعاً لهـا كـي تُكـوِّن لها واقعاً افتراضياً تعمـل فيه. ولِمَ لا! حياة داخل الورق أرحم من حياةٍ خارجه.

ما زلتُ في شـكٍّ من الخبر، فلم يكن إلّا احتمالاً يمكن أن يورد. قال لي مُهاتفةً: «.. نعتقد أنّك لن تواصل..». كلمني بصيغة الجمـع، حدّثنـي كأنّـه يتبـرّأ من مسـؤوليته عني ليجعلها مسـؤولية الجميـع، كأنّـه أراد منّـي أن أُبادر في التّفكيـر بفِعل آخر متمنّياتي، وأن أحاول مسامحة العالم ونفسي.

من قال إني أريد صُلحاً! لا أريدُ أي معاهدة، أريد أن أثور..

أن أغضب.. ففي آخر الأمر إن كان ما قاله صحيحاً، فإنّي سأغادر معوَّضاً مكمِّلاً شيئاً من النّقص والعجز.

لكن! هل جواز البوح الوجع دائماً؟

مَرَدِّي الآن أن أحاول لملمة الأيام الخليلة التي ستأتي، والتي سأتخلّص بها من عثرة الحياة، وشؤم لزوجة الكدر الذي يُداهمني منذ القدم. في الحقيقة لم أجد نفسي أكثر بهجة من الآن، أشعر ولأوّل مرّةٍ أنّي سأتحرّر.. لا بل سأجعل مفتاح قيدي بين أصابعي، أُلجِمُنِي متى شئت وأفكُّني متى طاب لي، لأنّي في آخر الأمر أصبحت مجرّد شيء سيزول وسيُمحى دون أن يترك الأثر.. أو كما يُخيّل إليّ.

أدري أن ربّي يراني من حيث لا أدري، يراقبني ويشهد بطولة الخسارة التي أنشدها على ورقٍ من حظ، أربح نقاطاً تغرقني وتغوص بي إلى حيثُ لا يمكنني الصعود، أنزف أكثر وأعطش أكثر فقط لأجعل لكلّ سطر معنىً في هذا الاحتراق المتواصل من البذر المميت، لكن إلى متى سأبقى على هذه الحال؟ متى ستأتي النهاية يا ترى كي أترك رهاناتي على ورق.. إذا ما وصل إلى قارئ؟

نهضتُ أنظر من النّافذة، يبدو أنّ المدينة ارتدت ثياب نومها، والليل أسكن حرّاسه عليها، ويبدو أنّ ليلتي المقمرة انتهت أيضاً.

فرغت كأسي، وفرغتُ أنا أيضاً، وقد حان الوقت لأطفئ هذا المشوار الطّويل من النّفث، وأذهب لأستشفي بعض النّوم لعلَّ الغد يكون أفضل...

II

لا أعرف كيف يمكنني أن أختزل هذا الحكي الطويل..

حياتي هذه تشبّعت مرارة بما يكفي حتى تكوّن شخصي هذا هكذا، شخصاً بصفة نصف شخص، لم يعد يغريه شيء، ولم تعد ملـذّات هـذه الدّنيـا التـي تغـري بالكثير تمسُّ ملذّته في شـيء. لا أعرف كيف يمكن أن أعرّف نفسي إلى نفسي اليوم، أحياناً أتساءل، هل ولدتُ يا ترى لأشقى؟ أم أنّ الربّ أنصفني لكون البلاء نعمةً يهبها لعباده؟ هل حقّاً أسـتحقُّ هذا العمر بعد أن كنت عثرة شـؤم بعـد ولادتـي؟ هـل أنا يا ترى من علامـات الغضب، وأنّ وجودي ههنا يعكّر صفو الحياة التي ما فتئت تأخذ كلّ جزءٍ منّي على حدة، تبعثرني وتنثرني كيفما شاءت؟

لا يسـعني التّفلسـف في الأمور التي شـكّلت ربوة ما أنبتت بذاخة الحزن المقيم في جوفي، وأعلم جيّداً أنّ هذه الحياة وأرضها لا تسـتحقان منّـي ردّ فعـل تجاههمـا، فدورة عمـري اختُصرت في مآسٍ رتيبة ومترادفة كأنّ حدوثها وجبَ كي يتناسب مع كلّ شيء.

روحي هذه التي لم تعد أنابيب البهجة توصل إليها إلَّا القليل، كيف أثريها أملاً وهذا الفؤاد الذي أحمله لم يعد ينبض إلا ليجعلني أتحرّك؟ وكلُّ تلك المشـاعر: الفرح، الدّهشـة، التعجب، التفاؤل..

كلّها وُئدت، ولم ينبت من قبرها سوى الغضب، الحزن، الفتور، الهستيريا، الوحدة، الخوف، الذعر، الخزي، المعاناة، الندم، الحنين الخائن والأمل في اللاشيء.

يُخيّل لي أحياناً أنّ مجرى ما أعيشه سببه نقاط التحول التي اختزنتها ذاكرة الماضي، ذلك الماضي الذي يجعلني ملكاً خاسراً، وشخصاً بجراح غائرة، وعليلاً ينقصه أملٌ استبُدلت رغباته الطبيعية بأخرى لا تستمدُّ تحركاتها إلّا بمورفين الوجع. ولست مستغرباً من علّة تكويني العقيم في سيناريو العمر كله. كلّها باسمي؛ ملامحي، فجائعي، وسيرتي المنكوبة التي تكاد تكون منسيّة، ولغتي التي لم تكتمل إلّا فقداً. فلم يعد يكسو صدري العامر بالغصص، سوى مشاعر بالية في صيغة أسئلة وشكوكٍ عمّرت به فأصبحت جثثاً، مع كلّ شهيق وزفير رحت أشعر كأنّي أحتاج إلى تنقية ما أو أن أتقيأ دماً تكبّدَ من عضوٍ معطوب، فقد أصبح هنا والآن معنىً للفتور وللحياد الذي يعبأ بي، وأصبحت تقاسيم المرض من شرعية الحياة بادية بشكلٍ ملحٍّ على ذهني ووجهي، ربما الآن فقط غدا مباحاً لي أن أقول إني مفجوعٌ بكلٍّ لغتي، مخدوعٌ أنا بكلّ حيلي، وغنيٌّ أنا بنفط مرارتي.

أصبحت عاطلاً عن الفرح، عن تأكيد حضوري في واقعي، وغيابي الذي يخجل منه الغياب نفسه. فقد صرتُ بلا اسم، أو أني بلا اسمٍ طوعاً، لربّما أنا الشخص الوحيد الذي لا يحمل في جعبة هويته منذ سكوت حاضره بوحدة الموتى كلمات أو نقطاً على حروف، أو علامات كسر أو جر أو علامات منوّنة، لربّما قبِلتُ وقبَلتْ بي حركات السكون وحدها.

لم أحب الحديث عن الماضي الذي جلدني، فمثل هذا النوع مـن الحديـث لا يليق بـي، ولكنّ رصيد الحروف لا ينفد، ووجوباً منّي أن أذكره ما دمتُ في سكرة الكتابة هذه.

ولعـلَّ وجـه الماضـي الـذي لـم يُمـحَ، يظهـر جليّاً في حلم يراودنـي كثيـراً، مغـزاه وجهـان يقتـلان الثّابـت والمتحـرّك داخلي بكلمات العذاب، حلم أستيقظ منه في كلِّ مرّة مفجوعاً بكلّ شيء.

فـي حلمـي يتحدّث لي وجهان يكسـوهما الضّبـاب، يتراءيان لي كنجمين، كوكبين، شمسـين اثنتين في عنق السـماء، يسـألانني فـي كل مـرّة عـن حالـي وكيف هو مآلي فـي الحياة، وعن ضياعي فـي رفـات مأسـاتي وقـدري، لكنّي دائماً ما أمضي بأسـئلتهما دون جـواب، فملامـح وجهـي الكئيب وجسـدي النّحيـل تمقمق تحت شـفتيّ العازفتيـن عـن الـكلام، لأنّ كلّ شـيءٍ أصبـح يتّخـذ صبغة فجيعـة وحالة استئناف. وحتّـى إن خرجت عن طوري وأردت أن أنبس بحرف يختصر الرّان الذي بصدري، فماذا عساي أن أقول؟ ثم ماذا عسـاي أن أحكي للموتى الذين تجبرهم عليَّ الذكرى العابرة فـي حلـم؟ هـل أقول بأنّي تُركتُ يتيمـاً، أم ضحيّة أقدار، أم مجرّد غريـبٍ فـي دنيـا غريبة؟ ثمّ كيـف أمكنني يا ترى أن أختصر الرّوي عـن زمانـي وأيّامـي التي ولّت سـاعاتها ودقائقها كالسّـنين فأردتني كهلاً؟!

هيهـات هيهـات لو لم تكـن الأمور آلت إلى هذا، لكان أحنّ علـيّ خبـر اقتـراب أجلـي، لكن لا بـدّ لي من لعق جـرح الذّكرى والحكي عنه مهما كانت الأحوال.

منـذ وهلتـي الأولـى في هذه الحياة تذوّقت طعم مرارة اليتم،

كبُرَت ذكرى فقدان الوطن الأوّل معي، لتذكّرني بقصديتي السحيقة فـي يـوم ولادتـي، ودائماً مـا يكون يوم عيد ميـلادي محطّةً أخرج من ساعاتها ودقائقها مثقلاً بغصص على صدري، حتّى أنَّ الفصل الذي وُلدتُ فيه كان فصلاً متعطّشاً للجفاف، وبذلك حملت جينة الخرف واللاارتواء.

مضـى قـدْرُ عمُـري علـى وفاة والدي. سـت وعشـرون سـنة أرجتنـي أتفكّـر فـي كلِّ لحظـة منهـا في بـادرة الحظ السـيئ الذي أحملـه، وأحيانـا أجد نفسـي فـي متاهة بين الحقيقـة والزّيف، كأنَّ الذي حدث مجرّد سـيناريو أُخرج بالخطأ على شـكل واقعٍ يشـكّل واقعـي؛ لا أفهـم، ولادتـي.. فصل خريف.. وفاة والدي.. ثمّ بداية حياتي إذا ما أرادت أن تسـمّى حياةً بكلّ تفاصيلها وما في طيّاتها من خسارات، وكأنَّ كلَّ شيءٍ كان معدّاً.

وفـاة والـدي كانـت أوّل حفل حزنٍ لـي، المعنى أنّي لم أبكِ وأصـرخ عندمـا خرجـت من بطن والدتي إثـر الولادة، بل إثر وفاة والدي في حادث سير، أشفق عليه كثيراً، لم ينعم برؤية ابنه الأوّل والأخير، لم يرَ شكله إذا ما كان يحمل منه جزءاً.

مـا زلـت أذكـر رغـم سـنّي الصغيرة آنـذاك، كيف أنّـي رأيتُ وجهـي فـي مرآة المسـتقبل، قد لا تنفعني ذاكرتـي كثيراً. أظنّ أنّي كنـتُ فـي الثالثـة أو الرابعـة من عمري، عندما اكتشـفتُ أنّي أشـبه والدي في كلّ شـيء، حتّى في لعنة اليتم التي اكتشـفتها في سـنٍّ أخرى أنَّ والدي تربّى في ميتم.. يبدو أن قدرنا واحد!

أذكرُ رغم التشوُّش، أنّي دخلت إلى غرفة نوم والدتي، وبدأت العبـث فـي خزانتهـا لعباً لا غير، إلـى أن وجدتُ ألبوم صور، كان

ذا غلاف مخطّطٍ بالأبيض والأزرق، فتحته عبثاً لأجد صور طفولةٍ لوالـدي. كنـتُ أعـرف وجهه في صورةٍ واحـدةٍ فقط كانت تضعها والدتي فوق منضدة قرب سـريرها، صورة وحيدة في إطار خشـبي مصون بزجاج مربّع يحمي الصورة التي بداخله، صورة زواجهما، أمّـي بثوبهـا الأبيـض الذي يفوح أنوثةً، وأبي بذقنه الوسـيم وبذلته السّوداء كأنّه أحد المشاهير. وجدت في الألبوم صوراً قديمة تعود لعهد والدي، كلُّها بالأبيض والأسود، طفولته في الميتم الذي كان يقيم فيه، وأخرى في مراهقته مع زملائه. لم أكن أدري لمن تعود تلك الصُّور في سـني الصغيرة تلك، لكن ما أثار انتباهي، هو أنّي في إحدى الصّور وجدت نفسي أنظر إلى نفسي، حتّى أنّي دعكت الوجه في الصورة التي كانت تكبر راحة يدي تعجّباً، حينها أخذت الصّـورة وذهبـت إلـى والدتي التي كانت تجلس في بيت المعيشـة تشـاهد التلفاز، لم أدرك أنّي سـأوقظ وحشـاً موجعاً حينها سـيتلو حضـوره البـكاء. قلـتُ لهـا: «ماما، انظري، إنّه أنـا.. أنا!!»، أخذت منّـي الصـورة وهـي تنظـر تارةً إلـيّ وتارةً إلى الصـورة تتأكّد، وقد كانت مرَّتها الأولى التي لاحظت انتقال ملامح وجهه إلى وجهي. قالـت لـي: «مـن أين أتيت بهذه؟»، قلتُ وأنا أضحك: «من الماريو (الخزانـة)!!»، لـم أشـعر حتّى جاءتني صفعـةٌ يتخلّلها صوتُ بكاء، انكفـأتُ حينهـا أحكُّ الاحمرار على خدّي، والغريب أنّي لم أبكِ، بـل رحـتُ مـن ذاك الوقـت وتلك اللحظات أتسـاءل مـا بال الذي قد حدث حتّى تلقيت صفعةً لبحثي في شـيء لم يكن يجب عليَّ البحثُ فيه.

تبعتُ والدتي التي ذهبت إلى غرفة نومها دون أن تنظر إلي.

وجدتها جالسةً على الأرض تقلّب وريقات الألبوم. تحرّكت بخطوات نحوها ووضعتُ يدي الرطبيتين على وجهها أنقّبُ فيه عن الحزن الذي جعلها تبكي، قلت: «ماما!.. لماذا تبكين؟»، ضمّتني وقالت: «اجلس بجانبي أريد أن أقول لك شيئاً». عندما جلست، مدّت يدها تأخذ الصورة الموضوعة على المنضدة، تريد أن تشرح لي أنّي أشبه والدي، قالت: «أنت تعرف هذا الذي في الصورة؟»، أومأتُ برأسي إيجاباً. أردفَتْ: «هل تعرف من هو؟»، قلت: «بابا أليس كذلك؟». قالت: «وهل تعرف أين هو الآن؟». بعض الكلمات ونحن صغار تبدو جميلةً عندما تُنطق بدون إحساس وبلا شعور، فقط ننسخ ما يقوله الآخرون بالحذافير نفسها لكن بمعنى مغاير. قلت لها: «يقول جدّي إنه في الأرض وفي السماء»، قالت: «هل تعرف ما يعني هذا؟»، قلت: «يقول جدّي إنه مات»، قالت: «وهل تفهم ما قاله لك جدّك أم لا؟»، أجبت بالنّفي بتحريك رأسي يميناً ويساراً، ثم قلتُ: «لكن يقول لي جدّي إني يجب أن أُسافر إلى السماء لأراه، ماما هل تعرفين كيف أسافر إلى السماء؟»، لم تجبني، وخبّأت وجهها عنّي بدون أن تشعرني بأنّها تبكي.

نهضَتْ وجلبت برتقالتين من المطبخ. حملتهما أمام نظري، قلت أنا بعقل طاهر: «أعطيني ليمونة»، قالت: «انظر إليّ، ماذا ترى الآن في يدي؟»، قلت: «جوج ليمونات (برتقالتان)!»، قالت: «يتشابهان أليس كذلك؟»، قلت: «نعم والآن أعطيني واحدة!»، ضحكت، ثمَّ وضعت واحدة في يدي قائلةً لي: «لا تقشّرها بعد!»، والأخرى فوق صورة والدي الذي يقف بجانبها، بعدها قالت لي: «ماذا لديك في يديك الآن؟»، «ليمونة!» قلت لها، بعد ذلك قالت

لـي: «والـذي فـي الصّـورة مـاذا يوجد فوقـه؟»، قلت: «لـم أفهم»، حينها حملت الصورتين وحاولت أن تشرح لي بإشارات بسبّابتها، قالـت: «هـذا الـذي في الصّورة، هو نفسـه الذي فـي الصورة التي وجدتهـا، هـل فهمـت؟!»، لم أفهم ما عنتـه حقّاً، حاولت ما أمكن أن توضّح لي، لكنّي لم أفهم إلّا عندما أشارت بسبّابتها إلى وجهي وقالت: «وحيد، عندما تكبر سيصبح وجهك كوجه والدك الذي في الصّورة»، فرِحتُ حقّاً، فقلتُ لها: «سأسافر أيضاً، أليس كذلك؟». أنهت كلَّ شيءٍ بعد قولي فقالت: «كُلْ ليمونتك الآن..!!».

صعد بي سلّم العمر فبدأت أكبر وأكبر، وبدأت أعي تدريجياً الحقائـق، ونمـت في ذهني ملكات وفي جسـدي عـادات، وبدأت حواسـي أيضاً تستسـيغ طعم الدنيا الذي لم يتغيّر إلّا حنظلاً، وبدأ سقمي يظهر شيئاً فشيئاً، كما نزعة السّؤال أخذت مجراها الاعتيادي اجتياحـاً، وحاولـتُ أن أتسـاءل دون أن أسـأل، وأصبحـت عاهتي واضحة، ونقصي إلى الحب الأبوي بدأ يجلو، وكنتُ ضحيّةً سهلةً فلم أستطع الهرب، فراح الوجع يتلذّذ بي من حين إلى حين لكن بتركيـزٍ أقـلّ وطـأة. وقهرتني بصيرتي عندمـا كنتُ أرى فقر والدتي بوالدي وتألّمها بي، لكن ما كان يشـفع لي هي زهور بيض تسـطو علـى المنـزل، فـي الباحة وعلى الشّـرفات والنّوافذ، وقد قالت لي والدتي إن والدي كان يعشق هذا النوع من الأزهار. تعلمت أبجديّة مأساة الياسمين منذ الصّغر، ترعرعتُ بينه ولم تطب لي رائحة غير رائحـة الياسـمين التـي ترقبني في ذاكرتي الحسـيّة للروائح، وبقدر مـا أحببـتُ الياسـمين في صغـري لا يمكنني أن أقـول إني أكرهه، لكنّـي بـتُّ لا أطيـق رائحتـه فـي عمـري هـذا، فقد وصـم بمُضيٍّ

السنوات جراحاً لا تُمحى آثارها، وندبات مشرطة بفؤادي، وعلّةً فـي جوهـري، وهالات لانتماء وتشـرّد تحيـط بي. وفي هذا النوع من الأزهار أيضاً، يتدخل القدر جاعلاً حزني ونقيضه وجهين لعملةٍ واحدة؛ نباتٌ يُرهقني بالذّكرى وسيّدته ترهقني فكرة الرّحيل عنها.. رغم بعدي عنها.

القدر ساخر حقّاً، يعرف جيّداً كيف ينتقي ضحاياه، ولا يجهل كيف يربّي مشاعرهم كما ينبغي، كما فعل معي حتّى توانستُ مع وحدتي منذ الأزل كما أراد لي..

انطلقت رحلة الشّقاء في ذلك الأوّل من نوفمبر، كانت والدتي بعد الولادة تستقبل التّهاني من هذه وتلك وهذا وذاك، ولم تتصوّر في يوم فرحٍ كذاك أنّ شرارةً ستُشعلُ فتيلاً ينتهي بالنّحيب والتّعازي. وعلى حدّ أقاويل جدّي، عندما حملتني والدتي بين ذراعيها قالت له: «أشعر بضيقٍ في صدري، النّظر إلى وجهه يشعرني برغبة في البكاء، فقط شيءٌ ما لا يُشعرني بالأمان من إنجاب هذا الطفل، أريد أن أخبّئه من شيء ما أجهله، فقط إحساس ما.. إحساس ما». لم يردَّ جدّي على ما قالته، بل كان متوجّساً، فقد كان لوالدتي قدرة ما على استشعار الأشياء، ليس تنبّؤاً، ولكنّ حدسها كان لا يخطئُ إلّا نادراً، وجدّي كان يتمنّى في نفسه أن تكون على خطأ.

كان قد جنّ الليل، ووالدتي بدأت تهلع من تأخّر والدي وعدم ردّه لاتّصالها بهاتفه. وقد جاء الخبر مخبّأً عند عاملة الاستقبال، نادت جدّي وحده لتخبره بأنّ رجلين يسألان عن عائلة ((كمال نادر))، ذهب جدّي ليلاقي الرجلين، كان أحدهما شرطيّاً والآخر أحد جيراننا بالحي، أخبره الشّرطيُّ بأنّه أتى إلى منزلنا يتقصّى على

أحد فلم يجد شخصاً، فعرج على منزل جارنا المجاور ليشرح له الوضع. أكمل الجار إيصال خبر الوفاة، وغادر هو والاثنان إلى حيث يوجد ما يوجد كي تكتمل إجراءات التّحقيق بحضور فردٍ من العائلة.

ذهب جدّي وأرَقُ التّمني يُعاتبه بالخذلان من كلمات والدتي. عاد ليلاً إلى المستشفى حاملاً في يده كيساً أبيض وبعض الأوراق، ثمّ دخل إلى غرفة والدتي، وطلب من خالتي «هدى» بأن تخرج هي وابنتيها، خالتي لم تعقّب لفرط ما كانت ملامحه جادّة ومنزعجة، وكانت ذات أذن صاغية فخرجت.

تلقّفت والدتي جدّي قائلةً له: «تبدو شاحباً، لا تبدو لي على ما يرام..!». لم يتفوَّهْ جدّي بكلمة، خطا نحوها وجلس على كرسيٍّ على يمين سريرها، ثمَّ اعتكف الصّمت وهو يحكُّ بحركةٍ لاإرادية جبهته دون أن ينظر إليها. قالت له: «إنّك تخيفني، لماذا أنت صامتٌ هكذا، ما الأمر أبي؟». حمل كيسه الذي وضعه أرضاً واقترب من والدتي قائلاً: «سلوى ابنتي، لديَّ أخبار لا تُنذر بخير!»، قالت له في الحين: «هل هو ابني، هل ورث من مرض قلبي شيئاً؟». أجابها: «ليس الأمر كذلك، لا أريد إخبارك حقّاً، ولكن.. إنّه قضاء الله يا ابنتي..». قالت له مستفسرة: «إن لم يكن ابني فمن؟ أم هل هي حالتي الصّحيّة، هل ساءت بعد الولادة؟». أجابها: «أنتِ وابنكِ بخير..»، ثمَّ صمت قليلاً ووضع الكيس فوق فراش السّرير، ثمّ أردف بصوتٍ يتخلّله الخزي: «.. ابنتي، إنّه صهري، إنّه زوجك..»، ثمّ أخرج ما في الكيس وقال لها: «هذا كلُّ ما تبقّى من حادث السّير، مفاتيح السيّارة ونباتٌ منزلي». أُلقي الخبر على والدتي

كالسّهم المشتعل الذي ينغرس في كومة قش، لم تلبث ثوانٍ حتّى اشتعلت صراخاً وبكاءً وندباً. لم تعِ ما تفعله، حتّى سقطتُ أنا من بين يديها على الأرض، حتّى انطبع الخدش الموجود بكتفي الأيسر، حاول جدّي أن يُهدّئها لكنّه فشل، وحينما وصل صدى نحيبها إلى خارج الغرفة، جاءت الخالة والممرضة، حُملتُ أنا بين يدي الممرضة، وفهمت خالتي ما حدث عندما قرأت على الأوراق الملقاة على السرير (شهادة وفاة..)، فحاولت مساعدة جدّي في ضبط والدتي من أن تقوم بشيءٍ خطير لنفسها، وحمايةً لي من أن تفعل بي شيئاً أنا أيضاً، وليتها فعلت.

كان يوم ولادتي دراما حقيقية، زيادةً على أنّي تُركتُ بلا اسمٍ لأسبوع، لأنّهم اتّفقوا سابقاً على أن والدي من سيُسمّيني.

فقدتْ والدتي وعيها جرّاء التّعب وجرّاء قلبها الضّعيف، ولم تحضر الجنازة لأنّها ظلّت في غيبوبتها لمدّةٍ ناهزت العشرين يوماً من أثر الصّدمة. عندما استفاقت في اليوم الموالي للمدة، استرجعت الأحداث، ولم تجد سبيلاً غير أن تُعيد الحدث الأول نفسه بعد أن تذكّرت وفاة والدي. مرّ يومان ووالدتي على تلك الحال، لم تحدّث أحداً من الزوار، ولم تأكل شيئاً، اللّهمّ إلا المغذّي الذي أجبروها على وضعه، حتى أنّهم وضعوا شريطاً لاصقاً في معصمها تثبيتاً له كي لا تنزعه، فقد رفضت وضعه، وربطوا يديها كأنّها مجنونة. أدرك أنّها لم تجنّ في تلك الفترة، ولكنّي أدرك أيضاً أنّ والدتي صعبة المراس، إذا آلمها شيء، ترفض كلّ شيءٍ حولها وتستطيع فعل أي شيء، لحسن الحظ أنّ الممرضين لاحظوا الأمر، وأنا لن أعارض أفعال والدتي، ولن أقول إني أشعر بما شعرت به

لأنّه سيكون نفاقاً لا غير، ولكنّه شعور متبادل، وإن أمكنني تفسيره فهو ذلك الشعور الذي أخذني بعد وفاتها، ذلك الإحساس الموجع الذي جعلني أحسُّ كأنّني مسجونٌ ومكبّلٌ من كل أطراف جسدي، وكل ما أحيا عليه هو خمر كآبة يُظمئ، وخبزُ تمنٍّ زائل لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

أؤمن بأنّ الأضرار المتخلفة من الجروح لا بدّ لها أن تُعافى يوماً، وأن القلب رغم نزيفه المتواصل من كدمات العمر سيتعافى يومـاً. لكـن العلامـات التـي توشـم على ظهر اللاانمحـاء تقبع في الذاكرة، ولا وجود لسبيلٍ غير النسيان، وهذا ما لم أقدر عليه وما لم تقدر عليه والدتي، فكلُّ مرحلة عمر هي مجرّد نسخة مطوّرة عن سـابقاتها، نظنُّ أنّنا ننسـى، لكنّنا فقط نراكم ذكريات الماضي على الحاضر، وأيُّ وتر حسّاس يُطربُ على الجرح، تعود الذّكرى كما كانت في اللّحظة نفسها التي عشناها.

أرادت والدتـي أن تنسـى، وأن تتابـع الحياة، وأن تعتنق دلال اسمها، وأن تتذكّر هويتها الأولى قبل أن تُصبح أرملةً لبست الأبيض في زيّ مرضى. انبعثت غُدّة أمومتها من جديد وعملت على العودة إليّ، فقد تركتْ لي الغياب مرشـداً ومربّياً، وقد قضت شـهرين في مشـفى إعـادة التّأهيـل، ورفضت أن يزورهـا أحد يجلبني معه، فلم تُرد أن تخزّن في ذاكرتي الرّخوة، ألوان المستشـفى وجَوّهُ وبياضه الذي لا يُحمد. شهران استعادت فيهما عافيتها ووزنها الذي نقص، كمـا جـدّدت رغبتهـا في الحياة وتقبّلت قضـاء الله. برهنت والدتي للمختصّيـن بعلاجهـا أنّها قادرةٌ على مواصلة الحياة دون ندم، فقد تركتنـي رضيعـاً ومتألّمـاً – ربمـا – باختفاء والدتـه، ولم تخلّف لي

سوى يدٍ هرمة تعدّ لي الحليب المصنّع حتّى اعتدته واعتدتُ اليد التي حملتني، فصرتُ خشناً في طبعي دون أن أدري.

عـادت والدتـي إلـى المنزل لتجد الأحبـاب ينتظرون، جاءت وهي تحمل بيدها لون السّلام، لون أزهار الفاجعة التي بقيت على قيد الحياة من حادث السير. دخلت وهي لا تعلم كيف تبدأ حوار الأمّ مع ابنها، وكانت تدري المجهول الذي سأواجهه بعد أن أفطن مسيرة العمر وأرشد.

أديـن لوالدتـي باعتـذارات، فقد تطلّب وقتٌ حتّى اعتدتُها في المنزل، ربّما لأنّي كنتُ اعتدتُ خواءه إلّا من جدي، وأحياناً الخالة هدى. وجحودي في هذه الدّنيا سببه رفضي لحليب أمّي، فلم آخذ عاطفتها في قطرات حليب، فنما جسدي ضعيفاً ورخواً من الخارج، وصلداً من الدّاخل.

كبـرت العلاقـة بينـي وبين والدتي حسـب مجراهـا الطّبيعي، لكـنّ اختلافـي المبكّـر عذّبها قليلاً. منذ الصّغـر كنت غريباً، وكان حدسـها يخطئني في كلّ مرة. من ظنّ أن حدسـها سيفشـل تأثيره في فلذة كبدها؟ فلم تكن تعلم ما يجول في عقلي ولم تقدر على أن تترقّب أفعالي. لم أكن طفلاً عادياً، فعندما كان الجميع يشاهد التّلفاز أغيب إلى غرفتي أدرس أو أرتّب ملابسـي أو ألعب بالآلة الحاسبة. وعندما يجتمعون للغداء، أذهب إلى المطبخ أساعد دون إذنٍ من والدتي في إعادة ترتيب الصّحون، وفي كلّ مرّة أعطي لهم ترتيباً. وعندما ينام الجميع أبقى سـاهراً أراقب سـقف غرفتي، أو أصعد متسلّلاً إلى السطح أرقب السّماء. وكنتُ قليل الكلام أيضاً، ليـس تعمّـداً، بـل اعتياداً على سـكون المنزل الذي يكثرُ فيه صدى

الصّمت عند غياب والدتي للعمل، وبما أنني كبرتُ الآن ونبت لي ذقن، فيُمكنني أن أفسّر كلّ ذلك بأنّه كان تهيئة لهذا المستقبل الرتيب.

في مرحلةٍ ما في سن التّاسعة، كنتُ أكره الذّهاب إلى المدرسة، ولم يكن أيُّ خلاف بيني وبين والدتي غير ذلك السّبب، الذي لم تكن تعرف ما وراءه، ويُعزى الأمر كلّه إلى قضية الاسم، الذي كان يرهقني ويبكيني بلا دمع، فقد كنتُ أسمعه يرنُّ في أذني من خمس مرات إلى ستٍّ في كل يوم مدرسة. وكيفما اتّفق، جاء اسمي الشّخصي واسمي العائلي متشابهين. حقيقتهما أنّهما وجهان لورقة خريفٍ ذابلةٍ واحدة، يشكّلان محور دمعة ويأس وضياع، وأحياناً صدفةً في صفة قدر. الاسم الأول يرمز للصنف الواحد ولشعار هامشيّة الأشياء وانعزال دائم عن الجمع، أمّا الثّاني فهو شبيه الأوّل في التعريف، إلّا أنّه ينقص عنه إيحاءً ويزيدُ عليه رقيّاً. وكنتُ أفضّل أن أُنادى بأحدهما، فذلك كان يزيح عنّي وقع الاستماتة وثقل المعنى، أمّا جمعهما في لفظٍ واحد ومزجُ ثقل كلٍّ منهما على نفسي الصّغيرة، فكان يؤرّقني حدّ البغض.

أي قدرة إلهية تلك التي جعلت اسمي الكامل «وحيد نادر»، لكنّ الأسماء تبقى أسماء فقط، قضيّتها صُغرى، وجودي ههنا أثقل من معناهما.

كلُّ ما حدث، وما يحدث، وما سيحدث، ليس مجرّد صدفةٍ حمقاء، فلا وجود لشيءٍ اسمه الصدفة، وقد بتُّ أخاف كلمة «قدر»، ذلك القاف الذي يشي بالقضاء، وذلك الدّال الذي يشير إلى الدّأب، والرّاء الذي يوحي بالرّؤيا...

ليس للعبث يدٌ في واقعي.

طريقـي التي أحذوها، أليسـت ممشـى الهـلاك الذي لا يحبّذ وجوب اسمٍ لعبوره غير «وحيد نادر» أم ماذا؟ أوليس هواء ممشاي الذي أخطوه خُطىً هو اليأس أم ماذا؟ وذلك فها أنذا أحقق الأمر، أمشـي حافياً على نار الذّكرى، وأشـهق يأسـي المختلط بمسكّرات الأحـزان. هـا أنـذا أحيا معدوماً مكتفياً بنفسـي فقـط، وها أنذا في آخر الأمر كما أرادت العزلة في حياتي: أن أصبح ملحداً بالعاطفة.

يحقُّ لي الغضب، فما هكذا اشـتهيتُ العيش، ما هكذا أُحرم من مهجة الحياة، ليس هكذا وجب أن أنبض، وما هكذا وجب أن تتحجّر عواطفي واقعاً وتلين بحبرٍ على ورق..

أحنُّ إلى سيرتي الأولى قبل أن أوجد، أفضّل حياة العدم.

ليتني حجر، أيّ شيء.. غير هذا!

III

مـا دمـت أضـع تناقضـي الآن بين أربع زوايـا، فيطيب لي أن أتحدّث إلى أمّي، أن أناجيها وأنا أعلم أنّها لن ترد.

أمّـاه فلتغفـري، فلتغفري أسـئلتي الصّغيرة، كـم أبكيتك خفيةً بكلماتي السـاحقة، فأنا لسـتُ أكثر حظّاً منك. لا أعلم بماذا كنت تجيبيننـي عندمـا كنـت أسـألكِ: «أين والـدي؟»، ماذا عسـاك كنتِ تقولين أمّاه آنذاك؟ كنتِ تشربين كؤوس الدّمع أليس كذلك؟ هل كنت تجيبينني أنّه في العمل أو أنّه مسافر؟

أمّـاه! كنـتُ طفـلاً باكياً وأنت لا تعلميـن، أردتُ حمل ثقلك بتجاهلـي وبـرودي كـي لا أزيـد الكـرب كرباً، لكن ريـاح الكرب اشـتهت عكـس اتّجـاه ظنّـي فزدته بفعلي، لم تريـنـي أمّاه أبكي فها أنا أبكي بعدك، كنت أراكِ وليس بي طاقة كي أزيل عنك السـقم، راقبتـك تندثريـن ومـا في استطاعتي جمع نِثارك، شـاهدتُ نورك يخفت ويغيب دون أن ألمسـه، شـاهدتُ صحتك وهي تخبو شـيئاً فشيئاً، شاهدت جفافك أمامي دون أن أقدر أن أرويك، دون أن أعيد الحياة إلى أوردتك، كان حزنك المترامي يشـع من كل الجوانب، ولم أكن إلا عبئاً بادياً أمامه.

اغفـري أمّـاه لمـا أُلت إليـه، معاناتك مضى زمنهـا، وبقدر ما

عانيتِه، عانى ابنكِ ولا يزال..

أنا أفيض ألماً يا أمّي.. وعن قريب سأسافر أنا الآخر.

* * *

كنتُ من قبل قد تعافيتُ من صبغة الموت التي احتوتني منذ الصغر، والتي جعلتني أبلع رماد نصف طفولةٍ مسلوبة، وأكبر بين أرملة ووالدها، ولكنّ حرماني من وطنٍ آخر كان شيئاً لئيماً.

تركتني والدتي في السادسة عشرة، وكانت وفاتها أثقل من العمر. عندما ماتت أحسست بفجوةٍ تكوّنت داخلي، بطعنةٍ خرقت صدري، بخفوتٍ تدريجي لرؤيتي للعالم، وكأنّ شيئاً ما قد تكسّر وانحلَّ بعد وفاتها، شعرت بأنّي بعيدٌ جدّاً، أحسست بقلبي يؤلمني وينزف كما لم يفعل مرّة، وشعرتُ بأقصى درجات اليتم، وبأحاسيس تيهٍ وشرود، باتت الدّنيا صورة بلا ألوان، مجرد أسود وأبيض يكسو نظري، مجرد رماديٍّ حزينٍ خائب يعيد الذكرى.. حينها فقط شعرت بأنّ الفقد هو أقسى شعورٍ يختبره البشر.

عشتُ أنا وجدّي ليلةً لم نشهدها من قبل، كانت ليلة جاءت فيها الخرسة الأخيرة لقلب والدتي، صمتها الأخير الذي أطبق على بصيص أملنا وجعلنا نعيش على الخواء والسّراب.

توفيت والدتي إثر سكتة قلبية أتت بعد سوء أحوالها، وكان ذلك في ليلة من ليالي أكتوبر الأخيرة، بالتّحديد قرابة أذان الفجر. كان قد أيقظني من نومي تأوّهات خفيفة لا تكاد تُسمع، في البدء ظننتُ أنّه مواء قطّتنا، فقمتُ من مضجعي أتحرّى عنها وفي تفكيري أن أعطيها علبة سردين كي تخرس فأرجع إلى النّوم، إلّا أنّي فوجئت بأنّها نائمة هي الأخرى، فبحثت عن صدى الصّوت

من أين يأتي، إلى أن أدركتُ أن منبعه غرفة والدتي. فتحتُ الباب وأنـرتُ غرفتهـا، فوجدتهـا جالسـةً علـى الأرض حاملـةً قنينـة ماء وتتجرّع جرعات، وتسـكب الماء على رأسـها، وتطلق أنيناً خافتاً. ذعـرت حينهـا وهرعـتُ إليها، وأمسـكتُ يديها فشـعرتُ بجسـدها المرتعـش، وفـي الحيـن حملـتُ هاتـف المنـزل واتّصلـت بطبيب والدتي، وبدا حينها كأنّه أعطاني رقمه تحسّباً لحالاتٍ كتلك فقط، كما كنتُ أعلم أنّه سيكون مستيقظاً، لأنّي غالباً ما كنتُ ألتقي به في المسـجد عند صلاة الفجر. ردّ على اتصالي، فشـرحت له الموقف بسـرعة، وإلى الآن لا أدري كيف فعلتُ ذلك مع ذلك التوتر ونزّ العرق والصدمة. أسـرع بالمجيء جرياً، لأنه كان من سـكان حيّنا ولـم يكـن يفصله عن منزلنا سـوى شـارعين. فتحـتُ له الباب بعد أن لمحته من النافذة، دخل وقال لي كلاماً كان مهيّئاً: «اجلب لي مفاتيـح والدتـك». ذهبـت للبحث عنها هلعاً، ثـم جلبتها له. حمل جسد والدتي الضّعيف بين ذراعيه بحذر، ثمَّ ذهب مسرعاً بها إلى المستشفى.

عندمـا غـادر، أسـرعتُ لأوقظ جدّي مـن نومه الثّقيل، كاد أن يصفعني بعد أن أيقظته، شرحت له الوضع سريعاً هو الآخر، حينها ارتدى معطفه دون أن يغسـل وجهه أو يغير ملابسـه. خرجنا بدون تفكيرٍ نبحث عن سـيارة أجرة لتقلّنا، لكن كنّا سـيّئي الحظ، فعلى غير عادة لم تمرَّ أي واحدة في ذلك الوقت المبكر. فقررنا العدو إلى المستشفى، الذي كان يستغرق الوصول إليه خمس عشرة دقيقة.

عندمـا وصلنـا، وجدنـا الطّبيـب خـارج المستشـفى، وجدنـاه يجلس على الدرج الأمامي يدخّن سـيجارة، وكانت تلك أوّل مرّة

أراه يدخّن، لمحتُ وجهه عبر المسـافة القصيرة التي تفصلنا عنه، بدت لي ملامحه غير عاديّة وفيها شـيءٌ من الضّيق. لن أقول أنّي فهمت الأمر من بدايته بأنّي شُـتّتٌ مرّة أخرى، وأن ذلك الشـتات سيشـطر نصفـي الثانـي إلى أنصاف وغبار، ولكنّي شـعرت بخطب ما ليس كما كان يحدث سـابقاً، ولم تكن تلك المرّة الأولى التي شهدتُ فيها حالةً كتلك لوالدتي، فقد كنتُ أعيش أيّاماً وليالي مثل ذلك، ولـم أظنّ بأنّ ليلتها تلك هي الأخيرة.

عندمـا رآه جـدّي جالسـاً، وقـع أرضاً سـاجداً يبكي ويضرب بكلتـا يديـه الأرض الصّمـاء، وبدا لي كأنّه يطرق بابها ليخبرها بأنّ شـخصاً آخر سـيأتي زائراً ليسـكن دون عودة. انحنيتُ أحاول رفع جدّي قائلاً له: «جدّي انهض.. ماذا تفعل.. الدّم يسيل من يديك.. والدتـي تنتظـر!!». رفـع رأسـه حينها وملامح الافتقار تلتبسـه، نظر إليَّ وسائل الأبوّة يهطل من عينيه، ثمّ احتضنني بين أضلعه ونطق بكلمات عمياء في شبه صراخ مبحوح: «.. تركتني زوجتي، تركني صهري، وابنتي الآن تصفعني بتركها لي، فلا تتركني أنت أيضاً..». وقعت عليّ كلماته كالصّخر، كان فقط التّفكير بموت والدتي يأخذ منّي الكثير، والحق أن أمراً كذاك كنت أستعدُّ له، وجُلُّ ما فكّرتُ فيـه وقتهـا هـو ترك والدتي لصغـري الأحمق يعيش وحده في جنّة من الألـم.

شعرتُ بأني أشلاء، كان داخلي يئن دون أن أنبس ببنت شفة أو أذرف دمعة، رحتُ في تلك اللحظات أتخيّل مصيري الآتي؛ أنّ والدتي لن توقظني صباحاً، ولن تعدّ لي الفطور، ولن أقبّل رأسها الشـريف، ولـن أذهـب معهـا إلـى مركـز التّحليلات لجلـب نتائج

الفحوصات، ولن أشتم حنّاءها في يدها عندما أقبّلها، ولن أسمع صراخها الذي كنتُ أكرهه.

حبل مشيمتي قُطع عند الولادة، وهنالك قُطع حبل روحي بالدّنيا، وهنالك فقدتُ هويتي التي لم تعد لي يوماً.

قال لنا الطبيب: «أتريدان رؤيتها؟». أجابه جدي بـ: «لا»، فقد عجزت مضغة الصّبر بداخله، وأمّا التّحمل عنده فقد اكتفى من تحمّله، فاليد التي رفعت تابوت والدي لم تعد قادرةً على حمل تابوتٍ آخر، والعين التي رأت ما تبقّى من والدي لم تعد قادرةً على رؤية جسد ابنته نائماً دون نفَسٍ أو حراك. أمّا أنا فقد جاء ردي إيجاباً، أردتُ رؤيتها لأحترق بجمر الفراق وأُكوى برحيلها لعلَّ عيني تسيل، ففي كلّ الأحوال لم أكن لأراها بعد ذلك، كما أنّهم يقولون إن أجساد الأموات تكون ملامحها جميلة بعد أن يُفارقوا الحياة ذهاباً نحو باب السّماء. تبعتُ الطبيب بعد أن أجبته بأني أريد رؤيتها، فأسند الطبيب جدّي على كتفه ودخلنا نحن الثلاثة المستشفى. تركنا جدّي في قاعة الاستقبال، وذهبت أنا والطبيب إلى الغرفة حيث توجد أمّي. عندما رأيتها مغطّاةً بملاءة السرير الزرقاء، سارعتُ بخطاي نحوها، رفعتُ الغطاء عن وجهها، وهذا الأخير كان ساكناً، تعلوه ابتسامة شاحبة، وكأنّه يَشِعُّ بذهاب السّقم، وفمها الباسم كان يُشير إلى رسالة أخيرة منها لي، كأنّها تقول لي فيها: «ابتسم من أجلي يا وحيد». لم أعِ نفسي حتّى خرجتُ أجرُّ وجعي بألم تضاعف داخلي وانفرج معه دمعٌ من حدقتيّ. توجّهتُ إلى حيث جدّي وجلستُ بجانبه، ظللنا صامتين للحظات، بعدها قلتُ له: «إنّ والدتي تعتذر لكلينا لرؤيتها على ذلك الشّكل، وتقول

إنه يجب أن نعيش سعيدين»، أردفتُ بعد أن اعترضتني غصّة في الحلق: «قلْ لي.. هل سنقدر؟». ضرب صدري بقبضة يده وقال: «بالطبع سنقدر!».

آخر كلمة لي له كانت: «سنرى».

وها أنا أرى، أسعدتُ حقّاً؟، لا ليس بي صفة من قاموس السعادة، لكنَّني أبتسم، من أجل والدتي لا غير.

رحمكِ الله!

كم كرهتُ كلمات العزاء، زادتني ألماً وغضباً وكرهاً. صلّينا في اليوم التالي صلاة جنازتها في المسجد بعد صلاة الظهر، وكما أذكر، صليتُ في آخر الصّف. بعد انتهاء صلاتنا عليها، خرجت مسرعاً، وكلّ ما أذكره بعدها هو أنّي قطعتُ مسافات طويلة، مخلّفاً ذهابي للجنازة، وعدتُ في وقتٍ متأخّر من الليل. لم أدخل شيئاً إلى معدتي، فمن أين عساه أن يمر الطعام ووالدتي لم تكن لتعود، ثمّ إنّي لم أشعر بالجوع إزاء الحِمْل المبكر الذي أثقل كاهلي، إضافةً إلى الأفكار السوداوية التي انتهزت فرصتها واستولت عليّ في تلك الحالة. أغلقتُ على نفسي ثلاثة أيام، تغذيتُ فيها على سقم الذّكريات، وعلى الأسئلة التي وجب عليَّ طرحها على نفسي كي أخرج من ذلك الوضع، وطغت على عينيّ هالات سواد من تعب البكاء الطّائش على وطن لن يعود، ولم أجد غير النّوم وسيلةً كي أعالج به نفسي وأرتّب به حاضري المهمل والمبعثر. كنتُ أنام ساعات طويلة، حتّى القطّة رثت لحالي وشعرت بحزنٍ ينبعث من غرفتي، فمن حين إلى حين كانت تأتي وتجلس أمام الباب وتبقى تموء. سمعتها مرّاتٍ تخدش باب الغرفة لعلّي أفتح لأربّت على

رأسها وأمسح على أذنيها وذقنها كما اعتدتُ أن أفعل مداعبةً لها.

لم أكن أستيقظ إلّا على طرق جدّي باب غرفتي ذلك الذي كان يعلمني بأنّه قد أتى الفتات الذي أبقى على حياتي، تلك الشّطائر الأصل التي كانت تعدّها والدتي.

فهم جدّي أن تقبّلي الوضع كان صعباً، ولم ينبس ببنت شفة في تلك الفترة، اكتفى بتحضير الشّطائر التي كانت تعدّها لي والدتي، أو بالأحرى التي علّمها جدي والدتي، فجدّي كان فيما مضى رئيس طهاة متمرّساً، وكانت تمتّعني تشبيهاته الغريبة المصحوبة بخفّة الدّم، والتي لا تخلو من شيءٍ يُؤكل أو يُشرب، كأن يرى امرأةً سمينة في التلفاز فيقول لي: «كوكا كولا اثنان لتر»، لكن ما كان يستفزّني هو العبارة التي تلي تلك الكوكا اثنان لتر: «كوكا كولا اثنان لتر، لكنّي أحب شكلها، لأنّه يشبه شكل زوجتي»، أو كان يُسمّي الطفلات الصغيرات ذوات الثّلاث سنوات أو السنتين بـ: «غزل البنات»، يقولها عن خدودهن، لأنّها رطبة وحلوة، وتصلح للأكل تشبيهاً ومعنىً.

توالت الأيام بعد فقداني والدتي، هزيمتي الثّانية التي زادت على ميزان خسارةٍ سابقة، لتُثقل قسطاس صبري الذي استُبدل بآخر أكبر حجماً. أصبحتْ أيّامي بعد كلّ ذلك جحيماً، وإيماني في المواصلة كان معدّله ينقص بدرجات ودرجات. وكنتُ في كلّ ليلةٍ أضع رأسي على الوسادة، تحتلّني أفكارٌ من سرابٍ لا يُلتقط، فقد كنتُ أفكر في الكيفية التي سأتصرّف بها في تلك الحرب الباردة التي دخلتها بدون إذن، فكرت في كون الحياة التي ستؤولها حياتي والطرائق التي سأتّخذها لأواجه بها العراقيل بدون

صمّام أماني، أمّي. وكيف سيُمكنني أن أعيش مع قلقي الذي لا ينتهي من المستقبل الذي كنتُ أنظر إليه كوحشٍ عملاق سيأكلني، وكيف سيُمكنني أن أصل بكهولةٍ اكتسبتها مبكّراً إلى ذروة النجاح. والحقّ أنّي فقدتُ مرونتي منذ ذلك الوقت، فقد كانت مراهقتي تحلم بفيض أحلام عديدة، لكنّ طاقاتها كُبحت واختفت بخطوط جبين هرمي المبكّر من أثر الحرمان، فكُتب عليَّ.. حينها أن أغدو كهلاً صغير السّن شاخ قبل أوانه.

كانت تلك المحطّة هي مرحلة السّكون والرّكود اللذين احتقنا في أوردتي، لأنّي كنتُ أعلم أن القادم لن يكون حميداً، ولم يكن قد تبقّى لي خيار غير أن أعيش على الهامش، وراء منصّة أداء الواقع كي لا ألتقط حزناً آخر يقطعني إرباً. لم يهمّني ما الذي سأخسره بعد أن أخلص لتصوّفي واعتزالي ما تحكيه الدّنيا، وخياري ذاك لم يكن مجرّد صدفة، بل كان حتمياً كي تُخطئني ساديّة الحاضر.

أتقنتُ دور عابر السّبيل فأمسيتُ أمثّله في لحظاتي هذه، فها أنذا عابرٌ في كلام عابر، منفيٌّ في شقّة كراهب، وفي كلّ يوم أجرّب تعويذة حروف تُكمل نصّي الطويل..

* * *

ربّت على كتفي كثير من الأصدقاء، أشعروني بكثير من الرّضى والأنس، إلّا أنّ كلماتهم كانت تنتهي بعد غيابهم، فمهما كانت كلمات عزائهم لي أرقى وأحنّ وأقرب فإنّها كانت تزول، لأنّه في آخر الأمر كنتُ أنا وحدي المصاب، وحدي من تجرّعتُ العلقم، ولأنّني وحدي من كان يهمّني الأمر.

بعد مضيّ سنتين على وفاة والدتي، قرّر جدّي أن يغيّر مأكلي

ومشـربي بالذّهـاب للعيـش عند الخالة هـدى، تلك الخالة التي لم أكن أراها إلّا في المناسبات فقط، والابنة المتبقّية لجدّي، هي أكبر من والدتي، كانت لئيمة بعض الشـيء، وربّما لصفتها تلك قد آثر جـدّي أن يقطـن مـع والدتي. اضطررنا إلى العيـش معها رغبةً من جـدّي الـذي احتـاج إلى العناية لأثر التّقدّم في العمر. وافقتُ لأنّي ارتأيـتُ أنّ تغييـر موطـن الألـم سـيكون أفضل، وأحببـتُ الفكرة، رغم أن تلك الخالة لم تكن تحبّني، لسـبب مجهول، والذي أظنّه لكونها لم تُنجب في عدد ولاداتها الثّلاث سـوى البنات وبسـبب زوجهـا الـذي اشـتكى يومـاً في ولادتها الأخيـرة، والتي كانت بعد وفاة والدي بعد ستّة أشهر ونصف، لأنّه رغب بذكرٍ يورّث اسمه، وكاد أن يرغمها على إجهاض الجنين، وليته فعل.

زوجها «وديع» رجل طيّب، وهو الذي عرض على جدّي فكرة اللجوء إلى العيش معهم، بل ألحّ عليه في الطّلب، ولاءمتني أوضاع العيـش فـي منزلهـم. أخذت الطّابق الأخير، واعتبرتُ نفسـي غريباً خفيفـاً لا غيـر، إلـى أن يأتـي يوم مغادرتي، بدون رسـالة وداع ولا وصيّـة أقـدار، حتّى أنّي تذكّرتُ أسـماء بنات خالتي بصعوبة لفرط العلاقـة البعيـدة معهـن منـذ الصّغـر، فقد كانت علاقتـي بهن باردة قليـلاً، أتذكّـر أنّ الكبـرى منهـن صفعتني، في الخامسـة من عمري لعبثي بصنبور الماء في إحدى الزّيارات، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أقربهن، وكنتُ أرفض بعد ذلك الذّهاب مع والدتي رغم إلحاحها، وحتّـى إن كنـت ذهبـتُ فلا أقرب أحداً منهـن. من صفعتني كانت هي «فاطمة الزهراء»، تكبرني بسـبع سـنوات، وأختها «مريم» التي تصغرها بسنة، أمّا الصغرى فيهن فكانت «ياسمين» ذبول زهر حظي

العشر، فردٌ آخر حمل جينة الدّونية منذ الصغر، بل قبل أن تولد.

ما زلت أذكر اليوم الأول لي في المنزل، لم أكن أعلم حتّى أن لياسمين وجوداً في تلك العائلة، بل كنتُ أسمع اسمها دون أن أعلم أنّها قريبتي. وحتى الآن لا أدري كيف أنّي لم أشتمَّ وجوداً لرائحة أزهار دمشق التي رتعت بينها. حتّى أنّي ظننت أنّها الخادمة عندما رأيتها للمرة الأولى. رأيتها ثلاث مرّات في أوّل حضورٍ لي إلى المنزل، رأيتها مرّة تلبس وزرة طبخ وتضع غطاء رأس بعقدة أرنبيّة على جبينها. ورأيتها أخرى من نافذتي السّطح المطلّتين على الخارج، كانت تحمل كيس قمامة ترميه في الحاوية، حتّى أنّي لم أتفرّس في ملامح وجهها. والثالثة عندما كانت تلاعب هرة منزلنا التي انتقلت بدورها معنا.

كان لقاؤنا الأوّل مجرّد نظرات فقط، وكان بعد الظّهيرة، حيثُ أنّني عدتُ إلى منزلنا لأجلب حقيبة جدّي التي نسيها. صعدتُ السّلالم حاملاً الحقيبة اليدوية الضّخمة، التي أتعبتني في حملها، وكنتُ سعيداً لعدم إمداد أحدهم العون لي، فذلك كان بلا ريب سيُفسد عليَّ لحظتي المستقبلية. صعدتُ بها إلى الطّابق العلوي والأخير، المتداخل مع السّطح، كنت لمحتُ باب السّطح الموارب، فلم أبالِ وأكملتُ خطواتي التّعبة نحو باب الطّابق على يسار باب السّطح الحديدي. وضعتُ الحقيبة، ثم ارتميتُ على إحدى الأرائك أفرغ تعبي بنفسٍ طويلٍ مُجهد. لم يكن أحدٌ قد اتخذ من الطّابق مسكناً، لذا بالرّغم من تأثيثه وجعله مكاناً يصلح لشخصين أتيا من منفى إلى منفى، فغبار الوحدة والسّكون والخواء من الأنفس كان لا يزال يجول في دهاليزه، فشعرتُ لحظتها بضيق

في التّنفس لحساسية أنفي ضدّ الروائح، فلم أجد مفراً سوى أن أفتح النّافذة المطلّة على السطح، وهنالك فوجئتُ بها، فوجئتُ بها هي ذات الشعر الأسود الذي يصل إلى خصرها، كانت تحمل بيدها غطاء رأسها الأبيض، وكانت تطلُّ من نافذة السّطح الصّغيرة. لم تشعر بوجودي من قبل، وفور فتحي للنّافذة التي أصدرت صريراً، استدارت بحركة فجائيّة تتماوج مع انسدال شعرها الذي لمع في عينيّ إزاء انعكاس ضوء الشّمس على لونه الأسود، لوهلة وقتها ظننتُ أنّه شبح والدتي، كانت تلك لحظة من الشّوق بعد مرارة سنتين أستسيغ فيهما طعم النظر في عينين بنيتين تفيضان تساؤلاً كعيني أمّي. أكل القطُّ لساني، وانحبست كلمة التحية في حلقي، فلم أقدر إلّا أن أُومئَ برأسي مبتسماً، فردّت هي أيضاً ابتسامتي بأخرى صغيرة بغمازتين، ثم دخلتُ إلى قوقعتي وراء النّافذة كسلحفاة خائفة دون أن أتفوّه بكلمة، وقد كنتُ تعباً، فنِمتُ على فوري، لكنّ عينيها علقتا في مخيّلتي كهاجس..

كانت ياسمين حذقة من أوّل ما عرفتها، لقائي الثّاني بها والذي أتى سريعاً وفي اليوم نفسه، كان ليلاً، وكنتُ وقتها خرجتُ إلى السطح، حاملاً حصيرة أجلس عليها، مُتّكئاً بظهري على حائط ومستنداً إلى وسادة. لم يمضِ زمن قصير على جلوسي، حتّى سمعتُ طرقاتٍ على باب الشّقة الصغيرة، فأشرتُ بإشارةٍ صوتية: «أنا هنا أنا هنا يا جدّي»، سمعتُ صرير الباب الحديدي يُفتح والذي تركته شبه مغلق، كان الباب على يساري ويبعد عنّي حوالى ثلاثة أمتار. حسبتُ أنّه جدّي، فقُلتُ دون أن أنظر على يساري: «تأخّرت، أهذه كلّها صلاة؟!». جذبت أنفي رائحة زكية، فاستدرت حينها على

يساري، فإذا بي ألتقي بعينيها مرّة أخرى. قالت لي: «إنّهم ينتظرونك على العشاء»، أجبتها بنبرة فيها شيءٌ من الحزم: «سآتي بعد قليل». لم تُغادر واقتربت حيث أجلس، وقالت: «ماذا تفعل؟»، لم أفكّر حينها إلّا في بيتِ شعرٍ لإيليا أبو ماضي، فأجبتها مقتبساً منه: «كما يفعل أولئك الذين يريدون التّأمّل فالتّألّم..!». قالت تمازحني: «لا تكن جاهليّاً»، ثم أضافت: «آسفة على خسارتك». قلتُ لها: «مضت سنتان الآن، فلا داعي..»، ثم أردفت: «آسف على سؤالي هذا، ولكن من أنتِ؟». سمعتها وهي تحاور نفسها همساً تقول: «صحيح ما قاله جدّي، لا يعرفني حتى!» قلتُ لحظتها: «وهل أعرفك؟». قالت: «لنقل أني قريبتك الصغرى في هذه العائلة». تساءلتُ بدوري مع نفسي بأنّي أعرف فاطمة الزهراء ومريم، فمن هي إذن؟. أفسحتُ لها مجالاً للجلوس، جلست وألصقت ظهرها على الحائط مثلي. قلُت لها: «إذاً اسمكِ هو؟.. «قالت وهي تستفزّني: «ألا تخجل! هذه بداية خاطئة يا قريبي، والدتك أعطتني اسمي وأنت لا تعرفني ولم ترني في حياتك، لا يليق هذا يا بن الخالة، لا يليق!»، قلت وقد شعرتُ بالحرج: «آسف ولكن..»، قاطعتني: «أمزح فقط»، ثم أردَفتْ: «لكن يجب أن تكتشفه بنفسك، هل أسهّل عليك الأمر؟»، قلت: «من فضلك!!»، قالت: «اسمي على اسم نوع من الأزهار»، قلتُ متعجّباً: «أزهار!!». رحتُ أفكّر، ولم يخطر في ذهني سوى الياسمين صديق طفولتي، كما أنّي كنتُ أسمع اسم ياسمين دون أن أبالي بهوية حاملته طوال تلك السّنين.

كلّما كنتُ أحاول التفكير بعمق، كانت اللغة الإنجليزية تأخذ لساني عنوةً، فقلتُ بصوتٍ قريبٍ للهمس أحاور به نفسي دون أن

أعي أنّها ستسمعني:

«Could she be Jasmine?»

جاءني ردّها سريعاً، فضربت كتفي بيدها وقالت:

«Yep! She could be!»

ضحكتُ من استهتارها وقلت: «إذن فلا داعي لي من الاعتذار، كنتُ أعرفكِ وأجهلكِ في الوقت نفسه»، قالت: «هذا ما يبدو». هززتُ رأسي نحو السّماء وقلتُ بصوتٍ عديم الصّدى: «نعم هكذا تبدو عليه الأمور، قلتِ إن والدتي هي من أعطتكِ اسمك؟». أومأت إيجاباً، فقلتُ أنا: «أنت أيضاً سمّتكِ الأموات، أعتقد أنّه لن تخفى عنكِ حروف شخص شهير مثلي، فرد فقد كلّ ما يملك من أبوّة وأمومة». قالت «ربما»، قلت وأنا أشيح وجهي عنها نحو الأفق: «ليس عدلاً». ساد شيء من الصمت بيننا بعد ذلك. شطرتُ اللحظة بضحكة طائشة خرجت من فمي، فقالت لي: «إذاً، ما المزحة؟»، قلت: «أتصدّقين، ظننتكِ خادمة المنزل»، أجابتني بنبرة ساخرة متحدّية كالأطفال: «لا يليق، لا يُناسب، كنت تجهلني وتجهل وجودي، والآن ظننت أنّي الخادمة.. ما هذا.. هل لديك شيء آخر لا أعرفه.. قلْ، قلْ.. ماذا أيضاً؟؟!!». قلت: «كلّ شيءٍ جديد هنا، فكوني لطيفة من فضلك»، قالت: «أتعلم، أنا عصبية، قد أفعل بك شيئاً بعد كلّ هذا، سأجعلك تعيش جحيماً إذا أردت». نهضتُ قائلاً حينها بعد أن اكتفت غدة مزاحي: «افعلي ما تشائين.»، ثم أردفت: «أنا جائع، أنذهب أم ماذا؟»، قالت: «هيه! لم أنتهِ منك!»، قلتُ مغادراً وهي تتبعني: «لاحقاً، لاحقاً»، بعدها غادرنا إلى العشاء.

تحايلتُ على نفسي في كلّ لقمة في ذاك العَشاء، أن لا يكون للقدر يد في كل ذاك، لأنّي كنتُ أدري جيّداً أن قدر كلّ عودٍ يابسٍ هو الكسر، وأن مصير كلّ زهرةٍ تُنبذ.. هو الذّبول.

IV

مـرّت تسـع سـنوات علـى وفاة والدتـي، هي مقتبـل عمري، سـت وعشـرون سنة أحملها أعداداً. تغيرت حياتي قليلاً مع عملي ومـا طـرأ بعـد أن غادرتُ منزل خالتي هُدى وأنا في العشـرين من عمري إلى فرنسا بهدف الدراسة، أربع سنوات زادتني فيها الغربة إيلامـاً ووجعـاً، افتقدتُ في ذلك المنزل جدّي وياسـمين، وغرفتي بجدرانها الأربعة التي تركت على أحدها شرخاً صغيراً يعود للكمة بيدي، والتي بسببها كنت قد كسرت سبّابتي اليمنى، عندما غضبتُ من كلامٍ قيل وراء ظهري من خالتي هُدى، وهي تتجاذب أطراف الحديـث عنـي مع جماعتها من النسـاء اللواتي كُـنَّ يتوافدن عليها كل يوم سـبت للحديث. ويبدو أنّ ولعي بالآلة الحاسـبة ترك أثراً، لأعمل محاسـباً في شـركة صغيرة أُسّسـت من طرف جدي الذي تركها لأحد أصدقائه بعد أن رفضت أنا رئاستها، فلم أرد أن أظهر للعلن، كما أني لست محتاجاً لذلك القدر من الأهمية، فقد كنت أؤمن بأني يوماً ما سـيحدث لي ما أعيشـه الآن، كما أني لم أكن محتاجـاً إلـى ما سـيدره عليّ ذلـك المنصب من المال، فقد ورثت كل ما يملكه والدي ووالدتي شرعاً، وما ورثته وزّعته على جمعيات خيريـة، وكمـا لا يـورّث الأنبياء شـيئاً لبنيهم غير النّبـوّة، فأنا أيضاً

ورِثتُ روحاً متكسّرة كالّتي كان يحملها والداي. وحسابي البنكي ممتلئ ينتظر أن يُصرف فقط، ويا ليتني كنت كذلك الشخص الذي يتمنى حدوث أمنية صرف أمواله في شراء السعادة، والذي يتمنى لو كان في استطاعته أن ينقب عن الذهب والماس، ليشتريها كلها ويكنزها ويتنرجس فيها لوحده، فيخدع نفسه بالحياة. كنتُ حكيماً لأختار الحزن بيعة، فهو لا يكلف شيئاً مقابله. ليس الأمر كأني أحاول ساعياً في جعل نفسي كئيباً، فذلك يحدث من تلقاء نفسه، وكوني هذا الشخص ما هو إلا رغبة في عدم التألم، فأن تخدع عقلك الباطن بحالتك يغنيك عن الصدمة التي تأتيك فجأة، لأنك تكون مهيأً للحزن، فلا يشكل ذلك فرقاً.

لم أُحبّذ قتل الماضي، لأنه لا يموت، ولم أعد أحاول جاهداً النّسيان، فقد أدركتُ أنّه مهما حاولت، فلا يُمكنني، وكلُّ ما أصبحتُ قادراً عليه هو أن أعبث بمحو بعض أجزائه، فكما كانت القاعدة منذ القدم، بأنه يلزمني كإنسان كي أمحو منحنيات الرّتابة فأواصل، أن أغيّر نمط عيشي وأقدِمَ على عزل بحار الذّاكرة المتشابكة بتغيير الأفكار بأخرى وأخذ سبلٍ أخرى كي لا أَكِلّ، فقد أصبح كل يوم أملكه صراعاً أحاول فيه أن أزداد ذكاءً على ما يغمرني، لاسيما وأن الأصداء ولغات الصّمت وحدها أشكال حياة بشقّتي، لا أنيس لي غير الله وكلمات على كتب، إضافة إلى الإيحاء المخيف لجدران شقتي الملتحفة برائحة الفراغ.

ما مضى ذهب، ولم يعد الماضي اليوم يمثل لي شيئاً، أمسى مثل حيوانٍ شرس يُحتاج منّي أن أروّضه، أو مثل عدوٍّ يُتطلّبُ منّي أن أعلّمه لغة الحروب جيداً بتلقينه درساً في الهزيمة، لا

يسعني إلّا أن أقول إنه أصبح حليفي، فكلّما زاغت ملكة سؤالي في التّنقيب عن جواب، عدتُ إلى سيرتي الغابرة هناك. الحقّ أنّه قد اكتفى في سنين خلت بحقن إبر المرارة في روحي، وربّما ما زال يفعل، وربّما اعتدتُ عليه فغدَا أمراً طواعياً يشكّل خطراً مهملاً، أشعر بخطره أحياناً، لكن سرعان ما يُنسى مع الأحزان التي تتلقّفني وترمي بي من دربٍ إلى درب، فقد أصبحتُ على غير العادة، امرءاً عُدّلت عجينته كي يعيش على الحزن. وليس هذا شاذاً أيضاً، فكلماتي مثلي، حزينة وهاربة تبحثُ عن ملجإٍ لتتدثّر، فلا تجد سبيلاً غير دواخلها كما ألجأ أنا إلى دواخلي، وسعادتي لم يكن أمر وجودها مهمّاً، بل لم تعد مهمة لا قِدماً ولا في هذه اللحظة ولا التي بعدها، فأنا أدري أنّي لست أهلاً لأنتمي إلى طبقة السعداء. ولا تعاستي هي الأخرى تهم، فالذي اغتيل كلّ شيء قد لا يجد ملجأ أفكار يتّقي فيه من دخان ما ولّى من أحداث، فلم يتبقَّ سوى عتمتي التي تنيرني ظلمةً، باطني أشدّ سواداً من عتمة الليل، فرهبة الليل تُضاء في كلّ الأحوال بمصابيح، أمّا أنا فماذا يضيئني؟ ومن يضيئني؟ يمكن أن أقترح «المشاعر»، لكن لسوء الحظ، انخفض تركيز عواطفي على نفسي وعلى هذا العالم بأكمله، ليلي أقلُّ خطراً من سهدي القابع في بواطن الصدر، والذي يُراقب دون سِنةٍ تفاعل مكوّنات الدّنيا بعضها مع بعض دون أن يحرّك وتراً..

كان لائقاً منّي أن وضعتُ الوقت في حالة انتظار، وأوقفت عجلة الزمن وعقاربها التي تدور رغبةً في تأمّل ما يطرأ عليّ وما يُفتعل بي، لأنّي كنت مدركاً أن الأمل المستقبلي لن يُعيلني في شيء، فلن ينفعني القلق من يوم نهاية مجهول، ولا أريد أن أُبشَّر

بالتّنازل عن حزني، ولن يكون من الحكمة تركي له وتركه لي، فقد وُلدنا معاً من رحم واحدة، ووُجوباً منّا لفظ النّفس الأخير معاً، فهجرته نية في اتّباع حدسٍ من حديث القلب، سيزيدني غُصصاً في اشتياقي للّاشيء، فلا أريد إجهاضه، فحُزني جهادي.. هديُنا واحد.

ألم يُخلق الإنسان في كَبَد؟! عسى أن يسامحني الرّب على غلوِّي.

أفكّر أحياناً، ماذا لو حدث أن كنتُ رجل الوقت، بقوّة ما أمكنني السّفر عبر الأزمنة، فأغيّر الذي طرأ والذي سيطرأ بعده، كأن أُهاتف، يوم ولادتي، والدي برقم مجهول، وأخبره بعدم الخروج من بيته لأنّ لعنةً ستحل عليه إن خرج، أو أتسلّل إلى مطبعة الجرائد الحيّة فأزفّ خبراً كاذباً بحظر التجوال ووُجوب البقاء في المنزل بسبب طاعونٍ أو غازٍ سامٍّ يحوم في يوم الأحد في أرجاء مدينة الدار البيضاء، أو أغيّر مثلاً يوم ولادتي إلى يوم آخر غير يوم الأحد، كأن يكون يوم الاثنين أو غيره من أيام الله.. مهما يكن.. أيّ شيء فقط لأحظى بطبيعة شخصية مشرقة تنبض بالحيوية.

لكنّ المشكلة أنه حتى لو أمكنني ذلك، فلن أُفلح في تغيير شيء، فلا يُمكن تحدّي الطبيعة وقوانين الكون في علاقتها مع مشيئة الله، حتّى وإن نجحتُ في العبث بالماضي، فعودتي إلى الحاضر الذي تركته، سيعبث بي وسيُرديني جالساً على مقعدي أُسمع نقرات فوق ورقة تحت سطح خشبي، لأنّه لا عشوائية في حدوث الأمور، فكلّ أمرٍ بمقدار، وفي كلّ فعلٍ وحدث حكمة يعلمها الذي فطرني على ما أنا عليه اليوم، تقبُّلي أو رفضي لن يغيّر

شـيئاً، وبعد، سـيبقى الاعتياد سيّد الموقف، فلو كان بيدي، لتركتُ التّمني بقاءً في عمرٍ محدد وفي زمن محدّد بسعادة مطلقة، إلّا أن أفعال التّمني ما هكذا تعمل!

يخيّـل لـي أنّي بدأت أُصاب بالجنون، وسـيماء العجز المبين الـذي لا يليـن، ظهـرت أعراضـه عليّ، ولا يزيدنـي انتمائي لأفراد جماعة الحياة، لعدم كفاءتي سوى مرارة.

فلماذا إذاً؟ لماذا أيّتها الحياة؟ لماذا وسـمتني بطابع الضّمور في شـبابي الرّمادي، ولماذا أُترك جريحاً بالفقد، ومكسـور الجناح كفرخ يفقد معنى وجوده المتمحور حول الطّيران والملاحة، أفضّل أن أجنّ بالمرّة يا ربُّ على هذا التّعقّل الشبيه بالحمق!

أُدرك فـي ليلتـي الصّاخبـة هذه، بأنّي لـم أعد أقبل العيش إلّا بلغـة فقـد وبمشـاعر رثّـة وأفـكارٍ محايدة وباستشـعار بـارد أيضاً، غدوتُ كبلدة فصولها خريف وشتاء. فلماذا هذا التحجّر والغلاظة فـي الـكلام، ولماذا تعاندني الدموع، هل أصبحت عالم مآسٍ دون أن أدري؟ ألأنّ قـدر الحزانـى أن يعتـزّوا بصفـات مكفهرةٍ كتلك؟. إذاً فقـد كنـتُ مهيّأً منذ بداية ذلك الأحد الذي ولدتُ فيه إلى هذا الأحد الذي أعيش في ليلته هذه قبل حلول صباحه المقيت..

كان جبـران يقـول: «أريـد أن أموت شـوقاً لا مللاً». سـيكون عـاراً إن أخـذتُ كلماتـه مـلاذاً أو قبراً لي. فهل سـينفعني الشّـوق يـا صديقـي؟ لن يُفيدني في شـيء حيـن المغادرة، لا أريد أن أحنّ إلى شيء، فالشّوق أملٌ لاذع، وما أذرفه كلماتٍ تعبيراً عن نواحي فؤادي الأخرس، يُعيلني ويُسـعفني ملامة العين التي تدمع في كل يوم وليلة، لدرجة أنّي أصبحتُ أظنُّ بأنّي لم أعد قادراً على البكاء.

أتركُ قلمي وأنزع نظّارتي، وأغيب عن الزّوايا الأربع بخطواتٍ نحو سريري، ألمح من نافذتي سماءً شاحبة مثلي، ثمّ أُغمضُ عينيّ خائر القوى، ممتلئاً بغصّة مرارة أنام على مضضها مستعدّاً لأستيقظ عليها محروم الأمنيات..

الفَصْلُ الثّانِي

I

فجر آخر تستقبله حواسي، أستيقظ على صوت يرن بنغمة بيانو وكمان، أراقب سقف الغرفة قليلاً كي أستعيد ذاكرة الحاضر التي خلفتها أمس، أفيق من سباتي، ثمّ أعبر من برّ النسيان الذي افتعله النوم إلى ضفّة التّذكّر لمواجهة يوم آخر بالرّوتين نفسه.

يصدح صوت المآذن في أذني فأنهض، أتوضّأ، ألبس ما يحميني من برد فبراير، ثمّ أذهب لأصلّي الصبح في المسجد بمعدة خاوية، ثم أخرج من المسجد تاركاً سجدات تُزيل عنّي ثقل خطيئاتٍ وألماً وغضباً مشكوّين إلى الله. أعود وأنا أسلّم على بعض الجيران، أحادث قليلاً بعض الذين يعرفونني، وأعرج بخطاي المتعبة لشراء خبزٍ طازج من فرّان الحي المقابل للعمارة التي أسكن فيها، عمارتي الواقعة على الحد الأخير من شارع محمد الخامس. وما يُحيط بالمنطقة التي أسكنها، مجرّد سكون يداولها ومبانٍ شبه مشيّدة، تبدو كأنّها قاربت على الانتهاء فلم تكتمل، فأصبحت مهجورة يسكنها الطّوب الرّمادي والآجر وقضبان الحديد والخشب، والتي نخرتها الشّتاء والرّياح وأشعّة الشمس.

أستعدّ للدخول إلى شقّتي التي تلتحفني وتتقاسم معي مرارة الأيام. باردة هي، وغريبة مثلي، أو بالأحرى أنا الذي جعلتها غريبة

بصبـغ كلّ حائـط بلـون مختلـف. أذكر أوّل مرّة قبـل امتلاكها، أنّ صاحـب العمـارة قـال لي: «لا تتسـرّع، سـأجد لك شـقة غير هذه، لا تـزال قيـد الإصـلاح»، لكنّهـا لم تُرَ لي بذلـك العطب، فموقعها هو الذي جذبني، أمّا الباقي فلم أبالِ به، صبرتُ أسبوعين إلى أن تُصلح، ثم أتيتُ إليها كي أبدأ رحلة أخرى في مدينة كنتُ قد غبتُ عنها بسبب الدّراسة وأشياء أخرى.

حين أفتح قفل الباب وأخطو خطوتي الأولى فيها، يُعدُّ واجباً أن أُلقـي السّـلام ليرتـدّ إلـيّ الصّـدى مـن الفراغ الدامـس بصالونٍ قبالتي، صالونٍ خالٍ من أيّ زينة، لا فرش ولا سجّادة، تركته خالياً فـلا وظيفـة لـه عنـدي غير التّجـوال فيه، فغالباً مـا أدور حلقات به عندما تتملّكني فكرة عصبيّة ترهقني، كما أن من يزورونني قليلون، فغرفة المعيشـة تكفي لاسـتقبال أي زائرٍ كان، زيادة على أنّ شـقّتي رغم حجمها والدّيكور الذي أورثته من نفسي إليها، فإنّها لا تصلح لأن تكون مكان ضيافة، فهي مليئة بي، وما بي.. لا يصلح للرّؤية.

أبـدأ صباحـي الاعتيـادي بأخذ دُشٍّ أسـتفيق بـه من خمولي. وأضع كريم شـعر ألطّف به شـعري الأسـود البنّي الذي يُصبح شبه ناعـم مـن أثـر تقلّبات النّوم. أضـع إبريق الماء فوق الموقد، أصنع شـايي الصّباحي وأتلوه بتحضير شـراب ثمالتي: القهوة. بعد ذلك أُشـعل عود بخور، ثم أضع مائدة إفطاري. أطلّ من شـرفة غرفتي على مدينة اسـتفاقت من نومها بعد لحظات، وهدير رياحها الذي سـرعان ما سـيقوم بخطواته الأولى في تحريك رايات علم البلاد بشـارع محمد الخامس، الذي يبدو من بعيد وكأنّه مسـار لا نهاية لـه، فقـط نقـط تلاشٍ وسـراب تتراءى من بعيد على شـكل أضواء

ورؤوس بشر وسيارات وأشياء أخرى تشبه ما سبق.

يُشير صفير الإبريق فأعود إلى المطبخ كي أحضّر إبريق الشاي الأخضر، أعدُّه بلا أوراق منسّمة، ثمّ أصنع على مهلٍ قدح قهوتي المُرّ، وأهجره إلى أن يبرد.

أجلس لأفطر مع حزنٍ يتلقفني كلّما أنيرت ذاكرتي وارتوت دمائي، آكل خبزي بدون تحلية، لا جبنة ولا مربّى، فحلاوة الشّاي تكفي، ولكوني اعتدتُ على ذلك، فالطّعام غدا له ذوق آخر بعد المرض، يتذوّقه عقلي ولا تتذوّقه حواسّي. أنتهي من إفطاري، فأرشف بعض قهوتي، ثم ألبس قميصي الأبيض وسروالي الأسود، ثمَّ قميصاً قطنياً. أمسح زجاج نظّارتي وأضعها، وشعري لا يدعوني لمشطه فيدي تكفي بإرجاعه إلى اليمين، ثمّ أضع ساعتي في يدي اليُمنى وخاتمي النّحاسي في بنصر اليد نفسها، بعد ذلك أرتدي معطفي البنّي فوقي تدثّراً مقفِلاً أزراره.

بعد أن أنتهي من هندمة نفسي، أُكمل قدحي الذي برد، أتلذّذ بطعم القهوة الباردة، أحتسيها حتّى آخر رشفة، ثمَّ أدير مشغّل السّيدي بسورة البقرة، كي تزيل الآيات شحناتٍ سالبة بعد أن أُغادر، بأخرى تُضفي بريق أمل من كلام الله..

الثّامنة تماماً، أكون قد خرجت. وإنّي لَأخرج إلى الدّنيا كمن لا يعرف شيئاً ولا يريد أن يعرف شيئاً. أدير محرّك سيّارتي، وآخذ طريقي انعطافاً على زنقة القرطبي، والتي يزعجني هواؤها الممتلئ برائحة المصانع، فأعبر إلى شارع الجيش الملكي يساراً، ثمّ طولاً بدواستي نحو شارع أنفا، حيث يقبع مكان عملي الموجود في (غوتيي/ Gautier).

أتحاشى المصعد دائماً وأصعد السّلالم. عندما أدخل أسلّم على من ألقاه أمامي أو من أمرّ بالقرب من مكتبه إن تلاقت أعيننا. أرفّه عن نفسي في العمل، بل لا أملُّ، فذلك يُريحني بطريقةٍ ما. وأكره تلك الاجتماعات، وكم مرّة يعقدونها فلا أحضرها، رغم أنّها إجبارية، أكتفي وقتها بإعداد ملف على حاسوبي، فأضع أفكاري التي لا تنتهي والتي يمكن أن تساعدهم بعد أن آخذ من صديقي ورئيسي «سعد» موضوع الاجتماع الذي همّ به، فأنسخه وأعطيه لسعد الذي يغطّي على حضوري بينهم بملف. والحقّ أن أمر الشّركة كلّه لا يعنيني البتّة، أقوم بعملي وكفى، فالتطوير، والتقديم، والتأخير، والاستئناف.. مصطلحات بأفكار أحتفظ بها لنفسي، كما أنه لا طائل لي من التفكير في حل وضعيات لا تضاهي وضعية نفسي، والكلام كثيراً يُرهقني، فدائماً ما أجعل الكلمات تنوب عنّي.

يمرّ الوقت سريعاً هنا، تمرّ فترتي الصّباحية سريعاً، ربّما لهذا أحبُّ العمل أكثر، يجعلني بعيداً عن تصوّفي المعتاد في شقّتي.. غير أنّ هذا الجسد المتعب وهذا القلب الجافي لا يتركانني، حتميتي أن أجلس عند قداسة تلك العذراء، فأنا أخاف عدم ترك الأثر.

الثانية عشرة دقّت، وقد تبقّى نصف ساعة ويحين وقت الغداء، ارتأيتُ أن أُكمل الثلاثين دقيقة كما أفعل دائماً، في تدقيق السجلات وفي كتابة تقريرٍ سريع. ثم أنتهي بسقي نبات موجود داخل شبّاك النّافذة، برشّه بما يتبقى من قنينة الماء المعدني الموضوعة فوق مكتبي. وفي كلّ الأحوال، دائماً ما تكون خطوتي الموالية أحد الأمرين؛ إما أن أتغدى مع سعد في المطعم، وإما أذهب إلى شقتي لأنام قليلاً بعد التّعب، لأستعدّ لتعب التّدوين.

آثرت أن أتغدى مع سعد في مطعم بالقرب من الشركة. وجدت سعداً ينتظرني قبالة الباب الزجاجي الكبير للشركة. قبل أن أخرج، أخذت كوب قهوة بلاستيكياً صغير الحجم من ماكينة القهوة الموجودة قبالة مركز الاستقبال، قهوة مجانية، وأكرهها جدّاً، أكره القهوة التي لا تصنع باليد، كما أكره تفضيل آلة على يدٍ لا سيما ما يحضّر شرابي، ورغم الأفكار التي تراودني عن القهوة الآلية، فإني أشربها بكل تقزّز، أصبر على الكافيين الذي يحتاجه جسمي.

ذهبنا إلى المطعم المجاور، وغالباً لا آكل كثيراً، فأنا أذهب مع سعد للحديث فقط، ثرثار هو، وأحب ثرثرته تلك، ولا أعرف كيف أستسلم لهذا الشقي الذي يدفعني للحديث دائماً، ويجعلني أتبادل معه السخرية.

جاء النادل بعد أن جلسنا وقال: «كالمعتاد دائماً؟»، أجابه سعد: «نعم وعلبة سجائر»، قال صديقنا النادل: «عشرون دقيقة ويجهز»، وقبل أن ينصرف، تذكرت أن القهوة التي بيدي يكفي ما صبرت عليها فناديته قائلاً: «.. وقهوة سوداء من فضلك». قال لي سعد: «ألا تكتفي من ذاك السم، أن تبدو متعباً طوال الوقت»، قلت دون النظر إليه: «كما أنت تشرب سم سيجارتك لتشبع رغبتك، أنا أيضاً أشرب سمي كي لا أشعر بثقلي» قال لي: «ولكنك شره في حقن الكافيين»، أدرت رأسي نحوه، ثم قلت: «على كل، هي جزء من ارتوائي، لا أبالي بما يفعله الكافيين، أعلم أن السجائر تضر أكثر من القهوة، ولكن لو لم تكن السجائر تنفث دخاناً وتحترق لأدمنتها، إلا أني لا أحب الأشياء التي تحترق بالنار، لن تتآلف مع لهيبي، لذا فأنا أحتاج سائلاً لأطفئ قليلاً مني، والقهوة هي أداة

ألمي، وعصاي التي أهش بها على غنم استيقاظي»، قال لي: «افعل ما تشاء..»، ثم أشعل سيجارته المتبقية في علبة سجائره، وأخذ جرعته الأولى منها ونفث دخانه في الهواء، ثم قال: «أنا سعيد أنك لا تدخن، لكني لم أعلم أنك تحب أن تجعل نفسك تعاني»، قلت وأنا ألوح بيدي لأزيل دخان السجائر: «ليس الأمر كذلك يا صديقي، كل ما في الأمر، أنا أعوّد نفسي أن أحيا هكذا، لأن الحياة ليست عادلة كما تبدو، وأنا لا أريد أن أحترق كسيجارتك بلهيب التوقعات، أنا أحيا فقط بقلب معطوب، وعندما تعيش كثيراً تتألم كثيراً..»، قاطعني ساخراً: «تتحدث وكأنك في التسعين أو المئة من عمرك، وكأن رأسك اشتعل شيباً»، فأجبته بعد أن احتسيت آخر رشفة من تلك القهوة الكريهة: «يا صديقي، الإنسان لا يهرم بالسنين، بل بالأحزان»، صمت بعد قولي قليلاً، ثم قال وهو يبتسم: «فهمت ما تريد قوله»، وأنهى الحديث بإشعال حاسوبه المحمول الذي يجلبه معه، وأنا تركت لعينيّ التأمل من بعيد في حمامة بيضاء تشرب من نافورة صغيرة تقع بالقرب من المطعم، قائلاً في نفسي: «متى يأتي السلام».

جاء النادل بأطباقنا المعتادة، همَّ سعد بأكل البيتزا المتوسطة الحجم، وانتهيت أنا من السلطة سريعاً، وهممت بشرب سودائي لأعيدني إلى نفسي.

لم أنهِ قدحي، وعياء ما بعد العمل أشعرني بالنّوم فجأةً. ودَّعت سعداً سريعاً، وحملت حقيبة سوداء صغيرة كنت قد جلبتها معي، فيها بضع أوراق تخص عميلاً. ركبتُ سيارتي، واستغرقت المسافة من المطعم إلى العمارة عشرين دقيقة. ركنت السيارة قرب

رصيف المبنى، حملت حقيبتي، ثم توجهت نحو الباب، وقبل أن أصعد الدرج، تذكرت أني لم أُقفل السيارة، فعُدتُ أدراجي بمسافة قصيرة عن المدخل، ثمّ ضغطتُ زرّ الإقفال الأتوماتيكي عن بعد.

لا أحب استعمال المصعد لأن فيه مرآة، وأنا لا أحب المرايا لأنّها تُظهر مكامن النّقص في الجسد، ولأني لا أريد أن أُواجه وجهي بملامحه التي أصبحت شيئاً ما.. بليدة وصامتة. ما زلتُ أذكر يوماً عندما كانت إحدى الجارات تقيم حفل خطوبة، أعتقد أنه كان لابنتها، وكان ذلك مساءً، وكنتُ أريد الصعود بعد أن كنت قد خرجت لشراء الشّاي، ثمّ عرجتُ على محل تأمينات أراجع بعض الحسابات، فطال غيابي ثلاثين دقيقة فقط، وعندما عدت، كان الدرج الذي نزلت منه عند مغادرتي مكتظّاً بالناس. صعقت لحظتها بكثرة الأوجه ومساحيق التجميل المفرطة التي تضعها النساء، ولم يكن لدي خيار غير المصعد، فعلى أي حال تجد فرصة الصعود فيه بضغطة زر وانتظار. كنت أنتظر أنا وشخصين آخرين، امرأة قصيرة مع ابنتها أو قريبتها أو ما شابه ذلك. حين أضاء الزر الأخضر للمصعد، ضغطت السيدة الزر، ففُتح بابه، ترددتُ في الصعود، إلا أن الضرورة غلبت تردّدي. عبرت دون أن أنظر إلى شبحي في المرآة. وطوال الثواني للوصول إلى الطابق الأول حيث يوجد ما يوجد، بقيت السيدة ومن معها واقفتين مقابلتين للمرآة، السيدة تعدل غطاء رأسها، والأخرى أخرجت أحمر شفاه وأدوات أخرى تزين نفسها. أما أنا فقد كنتُ أدير للمرآة ظهري ولا أبالي بما كانتا تفعلانه. عندما خرجتا وبقيت وحدي مع شبح ورائي، كنتُ أنتظر صوت انفتاح المصعد ليس إلّا، وحين انفتح وخرجت،

أثارني الفضول إلى وجهي الذي لم أكن أنظر إليه إلّا نادراً، ودون إرادةٍ نظرتُ قبل أن ينسد الباب، فواجهتني من المرآة نظرة واحدة باردة نحوي، وحين اختفت مع إقفال المصعد.. أصِبتُ بخيبة.. من نظرةٍ واحدة فقط.

هواية الحساب لديّ لا تكتفي في العمل فقط، فأنا أصعد السّلالم وأعدُّ الدّرجات إلى شقّتي. أحياناً أخطئ، مرّة أحسبها سبعين درجة، وأخرى تزيد بواحدة أو تنقص، وتبقى عشر أخرى تفصل بين طابقي والسّطح. شبه مظلمة هي شقتي، تقع في جهة لا تصلها أشعة الشمس، وذلك يناسبني، فكثرة الأضواء تعمي بصري وتجعلني تعباً، والشمس هي الأخرى تتعبني.

وضعت مفاتيح السيارة والمنزل فوق طاولة منقوشة قرب مزهرية خالية من الورود. نزعت معطفي، وتوجهت نحو خزانة الملابس، تركت ليدي الاختيار، لبستُ عشوائياً دون أن أبالي لا بالزّينة ولا باللّون، كيفما كان نوع القميص أو السروال الذي اختارته حاسة يدي فقد لبسته، وقد حدث مرة أن لبست قميصاً مقلوباً وخرجت به لأبتاع، إلى أن نبهني حارس العمارة عندما عدت بأني كنت ألبسه مقلوباً، ومن حينها أصبحت عندما ألبس شيئاً أتيقن جيداً إن كنت لبست الأشياء كما يجب.

أغفو قليلاً أرتاح من تعب الصّباح، وأستيقظ كالعادة على المنبه برنّة البيانو الحزين والكمان الذي ينثر سقمه، كفعلٍ أعدُّ به نفسي لليلة بؤسٍ أخرى.

إنها الرابعة، وقد أذّن المؤذن لصلاة العصر، ولم أصلِّ بعد صلاة الظهر، وسيتوجّب عليّ أن أجمع الاثنتين. نهضت من

فراشي ومرارة القهوة تسري في فمي مع ريق الاستيقاظ، وشعري غير مرتب. حملت علبةً زرقاء صغيرة أضع بها حاجيات الحمام، وذهبت إلى الحمام مباشرة، فتحت صنبور الماء، دافئ كعادته، أخذت دشّي ونظفت أسناني ثمّ توضّأت.

صليت الركعات الثماني تباعاً، ثم أتى بعدها الاستعداد لنثر شراشري على الورق الصامت، بقلم رصاص لا أكتب إلا به، قلمٌ أهش به على قنوطي وألمي جيداً، وأظلُّ أستنزف الحزن الذي يعتريني من الصباح إلى ما بعد نومي القصير إلى أن يأتي وقت نومي الذي لا أحب أن أستيقظ منه، وكم مرة عندما أسمع أو أقرأ آية في سورة الزمر ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الآية: 42]. أثناء ذلك كم يدعو شخص في داخلي أن يمسك الله نفسي ويجعلها من التي قضى عليها الموت، ولكني أستيقظ بالنفس التي ترسل إلى أجل مسمّى، وكنتُ أحاول دائماً أن أُقنع نفسي بالفكرة وبإمكانية حصولها بالإيمان بوقوعها، لكن من غير جدوى، لا شيء يتغيّر.

هذا مأساويٌّ جدّاً، تخونني اللّغة قبل أن أبدأ، وأفتقد للثّقة قبل سحق ما يربض فوق ذهني دهساً، بتُّ الآن أعلم شيئاً واحداً؛ ليست الكتابة الآن حلّاً لي، لستُ من ممجّديها، ولست من مسانديها رغبة في التّفريغ، لأنّها عندما تفرغني، تقوم بإعادة ملئي بحلقات انتظار، إلّا أنّه لا يسعني إلّا القبول بها في هذه المرحلة مع كلّ التّشييء الذي يطوّقني بالوهم الذي نسبته إليّ..

لكن أين ألتجئ.. أين أحتمي من علقة التّجاهل، فلن يمكنني

التغابي هذه الليلة أيضاً بعدم الطّرق على الورق.

اقترب الوقت، وفنجان الصّباح ينتظرني ليعطيني شحنة باردة مرّة من البن كي تساير مرارتي.

أُهيِّئُ مكتبي في غرفتي الموجودة في ذيل الشّقة، غرفة تحمل كلّ عضو منّي، جهاز آخر للتّنفس والبقاء على قيد البقاء. أُعدِّل إنارة المصباح المكتبي، حيث تكون إنارته خفيفة، كي لا تُصيبني بالتعب، كما لتُضيء مساحة المكتب فقط. وألبسُ ثياباً فضفاضة كي تَسَعَ حرارة جسمي، وكي لا يلتصق عرقي بها من أثر عنفي في الكتابة.

قبل البدء، أنفض المساحة الجلدية التي أجلس عليها في كرسي المكتبي من غبار، رغم عدم وجوده، فحركتي تُعزى إلى أنني أنفض بقايا تعب الأمس، كأني أُهيِّئُ نفسي لجنازة أخرى لي، فأنا وبكلّ فخر لا أستطيع أن أسمّي نفسي كاتباً أو ما شابه، أنا مجرّد رجل داهمته ظروفٌ غير ملائمة فجعلته يوقن أن تسخير اللغة بهذا الشّكل قد تستطيع بكل احتمالاتها أن تصل إلى جوهره، ففي آخر الأمر أشعر بأنّي رجل يحتضر، إذاً فلِمَ لا، رُبّ حكمة رجل قبل الموت!

وإذا ما كان هناك شيء عاق وغير وفيٍّ ينسب إليّ، فلن يعدو قلم رصاص، فأنا لا أعي هذه الأداة بشكل جيد، أراها شيئاً اختُرِع للتحريف والتضليل، حتى الإشارة إليه باسمٍ يحمل معه قذائف لا يفتأ يربكني، أيعني ذلك أنه سيِّد معارك حامله؟.. انجذبتُ إلى الرصاص إذاً.. ربّما لأن خاصيته في قابلية المسح والتغيير كأن شيئاً لم يُكتب.. هي من جذبتني، وأنّ تحريفه لزمن الكتابة هو

من أيقظ خيالي بجعله أداة زمني، فاستحالة رجل الوقت جعلتني أبحث عن شيءٍ أغتصبُ به الزمن بممحاة، وأخلق بقلم كادحٍ لا يتوقف عن تزويد صاحبه باللازم وغير اللّازم.

أهكذا أنتقم؟

قبل البدء، أول شيءٍ أضعه برصاصي يُخطُّ على خشب المكتب، مقولتان لا علاقة تجمعهما، لكن في حضوري أُجمعُ وأُطوى بهما، بل أُنتقدُ وأُؤيّد بهما، ولو أنّ أحدهما باللغة الفرنسية، فلن أُترجم ما استساغته حاسة انتقائي في حين قراءة. أكتبهما في كلِّ بداية وأنتهي بمحوهما، كأنهما بدايتي وخاتمتي، ويرويان كل شيءٍ متناقضٍ ومتنافرٍ يشكل ما في كنهي.

يأتي الجنون من عند "نيتشه" على مكتبي أولاً قائلاً: "إنني، ولكي أُعبر بطريقة الألغاز. ميت في هيئة أبي، حي في هيئة أمي، وسأعيش طويلاً وأعرف الشيخوخة".

يُعرِّفني نيتشه كطفل صغير سيكبر ليرى الحياة بضعف في روح والديه، ويهدمني باستحالة شيخوختي.

ثم يأتي «Giesbert» ثانياً، فيُعزي استحالتي للشيخوخة نفسها، فيقول:

«Le cancer fait le vide autour de vous. Plus de visites, ni d'invitations, ni de coup de téléphone. Tout le monde vous repousse».

لن يهمّ إن كنتُ راضياً عن مرضي، فأنا لا أخاف من صحو جسدي، فعندما يمرض المرء في جوهره، لا تعدو أن تكون أشياء سطحية كسرطان كبدٍ أوَّلي وراثة تعني شيئاً، فلا بأس بذلك الفتك الذي يُعتملُ بي مع ضرر تلك الأدوية التي تأكل مني كثيراً..

وتُعطينـي قليـلاً، فقد صبرت على الكثير، ويكفي مقاومةً لسـرطان الأقـدار التـي تتوالـدُ وتتناسـل علي، فلن تُضاهي خلايـا خبيثة في جسدي تورُّمات أوجاع سكنتني.

قبل البدء، يكون واجباً أن أشرب دوائي، فالقلق من مهيجات المـرض، ويكـون لازمـاً شـربه، لكـي لا أتعـب مرتيـن.. تعبـاً في الجسد.. وآخر في طعن الكلمات..

فإرهاقٌ واحد يكفي!

كدرويـشٍ مُتصـوِّفٍ أبدأ الكتابة، أقلق كثيراً ولا أرتاح لجملي التي أكتبها، وكلماتي التي أنفثها من مضخة ذاكرتي غير يقينية في معناها، فحروفي غير دافئة وغير مؤسسة على شيء ثابت ومطلق، فأنا لا أريد أن أُصيب المعنى، وبقدر ما يشاء ذلك المتصوف في البحـث عـن يابسـة يجدها ليرتاح فيها من نفسـه، أحـاول أنا أيضاً أن أهرب في حرفتي من نفسـي، ولكن المصيبة، أني أجد نفسـي في كل حرف أكتبه لأكبته من صدري إلى الورق، وفي كلِّ صبغة مشـاعر أخطُّهـا أجـد نطفة من صدري تحمـل جينة منها، وفي كل فكـرة أبدؤهـا فأنهيهـا، أجد جزءاً من ذاكرتـي يتأرجح على بندول خطئها وصحتها، كأني لا أريد التذكر جاهداً في نسـيان وجودي، فأتذكـر أكثـر فأكثـر وأعـرف عـن هويتـي أكثر، مؤلمٌ ذلك كشـظية خشـب مغروسـة في لحمي، بقدر ما أُحاول نزعها.. أزيد عمقها. وكل ذلك لا بأس به، فلا أشياء مجانية، يجب أن أنزف وأحترق، لكـي تمتلـئ الورقـة وأُسـتنزف أنـا جيداً من خيباتـي، لكي لا أجد عـذراً يقينـي عتـاب النفس، سـبيلاً فـي فضح الـذات وتعريتها كي تجرّني مع سـخطي، فلا شـواهد عيان يُبطلون جرائمي التي أكون

فيها أنا الضحية والقاتل معاً.

كنتُ أحسبُ نفسي مرتباً في كل شيء، وحسباني ذاك أخذته من مكتبي في العمل، فكل الأقلام والدفاتر حتَّى سلّة القمامة تأخذ مكاناً معيناً بدون ضجة، ومحتويات منزلي هي كذلك بالرتابة نفسها، ففي خزانة الملابس مثلاً، نادراً ما أخلطُ السراويل مع القمصان، ولا أذكر أني وجدت شيئاً ملقى على الأرض بشكل متعمَّد، بل حتى شكل جسدي وشعري والملابس التي أرتديها مرتبة بحصانة، حتى دقات قلبي لا تُحدث أيّ عدم استقرار إلا في حالاتٍ نادرة بفعل المرض.

ولكن الكتابة تأتي فتُعلِّمني العشوائية بكل أبجدياتها، أنسى كلَّ قواعد الترتيب. مكتبي المنسق والذي يكون من قبل أنيقاً ومزيَّناً بأوراق مستعدَّة لتُجرح وتُخدش، يُصبح ساحة معركة، حرباً ضروساً تكون خسائرها هي الفوائد التي تكسبها تعاريج الورق، تتبعثر الأوراق هنا وهناك. وفي نفسي لا أصبر على الأشياء المبعثرة التي تحيط بي في غير مكانها، ولكن في حالة الهيجان العاطفي بحقنات الكتابة، أنسى كل شيء كان يستفزني ويثير الترتيب عندي، كأن البصر لا يركِّز إلا في بياض الورق.

عندما أصل إلى ذروتي، تغدو ضربات قلبي حسيسة الخفقان، وأصبح عنيفاً في بذر الكلمات، أنسى الهدوء المستكين، وتغدو أفعالي كعازف آلة لا تُحمى آلتُهُ إلا بحرارة الجسد، وتحتاج كل عضوٍ في الجسد، فدائماً ما كان القلم آلة عزف الكاتب، فبعد كلّ شيء أنا أسطّر في أرقام التّاريخ ما تبقّى من هذه الحياة. ولربما كان مُحرِّكُ أناملي ألمي، أؤلمُ نفسي لكي أتلاءمَ مع التئام الجراح

التـي تُخـاط وتنسَـدُّ.. ثـم تتفتَّـح فـي كل فعـل كتابـة. ويزيد ذلك اللِّحامُ التذيلي للأفكار تلك المؤثرات الصوتية التي تزيد استخراج الكلمـات مـن منجمهـا، هي تعاسـة نوتـات آلة موسـيقية وترية لا يُسمعُ صدىً حولي لشيءٍ غيرها هي مع نقرات قلمي، جرات آلة التشيلو تمارس ساديتها على قلبي، أشعُرُ أن أوتاره الأربعة جزءٌ من شـراييني، وقوسـه يعزف داخلي كمنشـار يأكلُ وينخر بلا تعب، أو كأمواس وسيوف تطعنني فتُخرِجُ رحيقاً على أنصالها، دماً خلاصته سـواد قلـب وانشـراح ذهـن مـن شـوائبه ومعضلاته بشـكلٍ مؤقت ودوري. وألحانه تنبشُ في منحدر جبل وجعي، فتسـقط الكلمات على الورق دقيقة ثم تكبرُ فتكبرُ متدحرجة لتشـكِّل فقرة، ثم ورقة بوجهين، وبعدها بضعة أوراق غيرِ مُحصاة. أؤمنُ بأن التشـيلو إذا ما سمحتُ لنفسي بالعزف عليه يوماً، سأعزف ألحاناً تشبهُ الكلمات الجافة التي ألفظها على الورق، نوتات ستُزعجُ وستَخرب جوَّ كلِّ سـعيد يأمن في عيشـه، ستجعله يُشـفقُ عليّ لأنني عازفها ومخترع ألحانها، وكم من مرَّةٍ راودتني فكرة أن آخذ دروساً لأتعلَّم العزف عليـه، لكـن لـم يتبقَّ الوقت للتّعلم أيضاً، كما أنّي فكَّرت جيّداً بأن الموسـيقى تجسـيدٌ متقنٌ للتعب النفسـي، وأنني سـأُصبح بارعاً في تقليب أوجاعي يُمنة ويُسرة، وموسيقاي ولغة أساي ستُسمع وسينتبه لها بعض الناس عندما أعزف، وأكره أن يُشفَقَ علي، أَخفيتُ حزني بقلـمٍ علـى الـورق لصمـت الكلمات، فكيفَ لـي أن أُظهر عجزي وقهـري بالنغمـات؟ لذا فقد اكتفيت بالعـزف على أوتار الذِّكريات وخطّطـت، فـلا شـيء يُتعـبُ أكثر من الكتابة، كمـا أنها صامتة ولا تُسمع صدىً أثناء ممارسة السادية على الأوراق، والحروف خيانتها

ضئيلة ومُضلّلة بمعناها، أمّا النوتات فتفضح من أول ترنيمة.

الحرفُ مجرمٌ عالمي، عذّب البعض، وسجن البعض، وأبكى البعض، وشكَّلَ شقاءً للبعض.. وكلُّ هؤلاء الضحايا يُميتون أجزاءهم التي لم يعودوا بحاجة إليها في سبيله، كأنها قربان يُقدّم ليهِب، أو كقاضٍ لا يحكمُ إلا بالإعدام، وكلُّ من حملَ القلم أو كتب شيئاً كيفما كان، أكان مأساوياً أو ساخراً أو مُضحكاً.. أو حتَّى مجرد حماقات، فهو بطبعه إنسان يُحاول ملء فراغ ما، فلا الرّداءة أو الجودة تعني شيئاً أمام محاولة خلق فسحة نسيان الحاضر، فكلُّ الكتابات مبنيّةٌ أُسُسها على الماضي، وكلُّ كاتبٍ لو لم يشعر بالنَّقص، لما تحرَّشَ على ما بداخله وأجبر عقله على العمل، وتوسَّلَ لأنامله كي تخُط... لكن هذه أشياء ليس لها أي علاقة بي، لم أحبّ الأمر منذ البداية، لا يهمّني رداءة هذه الكتابة أو جودتها، فلن تعدو أن تكون مجرّد أصداء لما مضى، مجرّد تأبين صغير لي.

ألعبُ الحياد في كلِّ شيء، حتّى الاستواء أخاصمه، أنحاز ضدَّ رغبة استقامة الكتابة، وأحاول ما أمكن أن أجعلَ السطور مستقيمة، لكن دون جدوى، لا تستقيم.. مُتقلِّبٌ أنا حتى في السطور، وروحي كما أرسمُها على الورق غاضبة، لا تريد أن تخضع لأي قانون، ولا أن ترضخَ إلى أي قاعدة استقامة. وقد لاحظتُ أنني نادراً ما أضع نقط النهاية، وإن وضعتُ أي نقط، أكتفي في آخر الفكرة بثلاث نقط، لأن حديثي طويل، وبوحي لا ينتهي في إصابة وعدم إصابة ما أُريدُ كتابته..

ببساطة أتبع غريزتي فقط.

* * *

وضعتُ قلمي بين السبابة والوُسطى، ودون أن أنظر إلى يميني، حملت قدح القهوة لأرتشف بعضاً منها وأكمل في تركيز، لكن كوبي فرغ دون أن أشعر أني احتسيته كاملاً. حملتُ الإبريق لأسكب، كان فارغاً أيضاً، فلم يملأ سوى ربع القدح. ارتشفتُ القهوة القليلة وطرقتُ بقعر الكأس على سطح المكتب، كأني طرقتُ مُعلناً عن انتهاء جلسة محاكمة، وسيُستأنفُ الحكم في المرة القادمة إذا ما كانت.. ولا بدَّ أن تكون.

اتّكأتُ على ظهر كرسيّي رافعاً رأسي إلى السطح، تنفّستُ الصُّعَداء، وزفرتُ بقوة. تحسست وجهي بيدي اليمنى. لحيتي أصبحت كثَّة ويجب حلقُها. مسحتُ على جبهتي، ومسحتُ شعري بكلتا يديّ من أول شعرة منسدلةٍ على جبيني إلى آخر شعرة في رقبتي، تركتُ يدي معلّقة برقبتي، وأنزلتُ رأسي عمودياً حتى ارتدَّ بصري نحو فخديّ، نظرتُ للحظات، ثم رفعت بصري إلى ورقي وما كتبته في حالة نسيان وتذكُّر، ويبدو أنني ملأتُ صفحاتٍ دون توقُّف. أدرتُ رأسي نحو النافذة على يميني، وقد كان الليل سكن المكان. عقارب السّاعة تشير إلى الثّامنة والنّصف، فكّرتُ في أن أُكمل، لكنّي قوّضتُ الفكرة، فلن يعني ذلك شيئاً، فكأسي فرغت، وأنّي سأثمل أكثر إذا ما أكملت.

نهضتُ لأتجول في أنحاء مسكني قليلاً، لعلَّ شيئاً ما يحدثُ بدون تدخّلٍ مني. أشعلتُ الأنوار، مررت بجانب المكتب هامّاً لكي أخرج من غرفتي، فاستوقفتني حروف مخدوشة عليه لا أتذكَّرُ متى كتبتها أو نقشتها بسكين على سطحه الخشبي، بخطٍّ عريضٍ وبائنٍ تقول أحرفي بالإنجليزية:

((All you need to reach me is to lose everything))

قرأتُها وأنا أضحكُ كما لم أضحك من قبل، بعدها صمتُّ قليلاً، فقد بدا أن سخريتي من نفسي لم تكن في محلِّها، لأن الظاهر أنها كانت كلمات حكيمة من رجل ميّت..

ألم يكن الخراب دائماً موطن ولادةِ أشياء وانبعاث أشياء أُخرى، وأن بداية كلِّ الأشياء الخسارات؟ فكلُّ هزيمة هي بداية وعيٍ جديد وبداية حكاية ليست كسابقاتها.

أليس ذلك الطائر الأسطوري خبيثاً بما يكفي ليُبَرهن عن عظمة الخسارة؟ أليست أسطورة «الفينيق» مثالاً يعينني على فهم حالتي؟ أليس هو ذلك الطّائر الجميل والقوي، والذي يستوحي عظمة ولادته من خسارته حيث يحترق ويصبح رماداً ليُعيد إحياء نفسه مرَّةً أخرى كل ألف عام! فرديته تلك ألا تُشبهني؟ يقولون إنه يعيش سعيداً وفرداً ولا يوجد طائرٌ يشبهه في الصِّفات، ويغدو الأمر جائزاً عندما لا يريدُ أن يحرق أحداً غير نفسه ليُعاد، وفي الأمر مُطابقة ما لقضيتي.. من يعلم لربما أنا فينيقيٌّ على حد تأويلٍ محرَّفٍ مني بتأويل الصّينيين.

تجوَّلتُ في الصالون وأنا أُهمهمُ بصوتٍ مسموعٍ أترنَّمُ به مع جرّات التشيلو. وقفت تحت مصباح الصالون المضاء. نظرت إلى ظهر يديّ وبقيت أُحدّق إليهما. ولم تسعني سوى غصّة البِنية التي ابتلتني. فقط لا يُمكنني أن أفهم بنية أنني شاب وأشيب في الوقت نفسه. وما بال هذا الصراع النفسي الذي يلتهمني في قضية العمر! فأنا أشعُرُ أحياناً أنني عاجز عن المشي، ومُغتربٌ من كلِّ شيء، حتى الألوان اختزُلت عندي في لون واحد لا اثنين. زيادةً على

ذلك التّخيّل المقهر للأشياء على غير حقيقتها، ورتابة الأيام. يُخيّل لـي أحيانـاً أننـي أعيش في فيلمٍ بالأبيض والأسـود، وأنّ ازدواجية اللونيـن تلعـب مـن حولـي، ومُزج اللَّونان فشـكلا رمـزاً لضياعي، لونٌ أرتدي صبغته على جفني؛ اللّون الرمادي الذي لن يكفّ عن ملاحقتي، وسيتبعُني حتى قبري في صفة شاهدٍ قرب رأسي، حتى قلمي يقذف رصاصه رماداً، وهباً وحرماناً..

كانـت إسـفنجة صفـراء مرمية علـى الأرض، كانت تبعُدُ عني نصف متر تقريباً، خطرت ببالي فكرة طريفة. فتحتُ نافذة الصّالون، ورَجعـتُ بخطـىً ثابثـة رواء الإسـفنجة، ثـم اسـتعددتُ وتوجّهـتُ نحوها، فركلتها ككرة قدم، كأنني أُسدِّدُ ضربة جزاء. ركلتها فضربت حاشية النافذة الجانبية على اليمين ولم تُصب الهدف، حملتها مرةً أُخرى لأقوم بمحاولة أُخرى.. فشلت، محاولة أُخرى بعد السابقة، أصبتُ فيها الهدف. ذهبتُ لأطل لأرى أين وصلت الإسفنجة، وهل ارتطمت بالأرض. كان فعلاً سـخيفاً مني، فقد ارتطمت الإسـفنجة بشـخص مـار، لكنَّـه لـم يرني، ولم يعرف مـن ألقى بها. ظلَّ المار واقفـاً للحظـات وهـو ينظُرُ إلى الأبنية محاولاً توقُّع من أين رُميت الإسفنجة، لكن يبدو أنه فكّر أن الأمر ليسَ له أهمية فأكملَ مسيره وهو يبتسـم. وقفتُ مدهوشـاً في لحظة، وابتعدتُ عن النافذة وأنا أضحك بشدة وأقهقه كمجنون، بعد لحظةٍ أُخرى صمتُّ مصدوماً، ونزلـت دمـوعٌ طفيفـة علـى خديَّ. كنـت أعلمُ جيداً لمـاذا البكاء، شـعرت حينها برعشـة تذكّرٍ بجسـدي، فقد تذكّرت شـيئاً اقشعرّت لـه شُـعيرات جسـدي، أمراً أحمـق كنت قد أقدمت علـى القيام به عـن غيـر قصـد، لكـنّ أمراً إلهياً حدث قد أنقذنـي. لم يمضِ على

ذلك سوى شهرين، فقد حاولت القفز من النافذة نفسها، لم أنوِ بالفعل، فقد حاولت فقط أن أُجرِّب الوقوف على حافَّة الموت، إلا أن الأمر حدث فعلاً، فقد انزلقت إحدى رجليّ، لا أتذكّرُ أيَّ قدم، كلّ ما أذكره هو أنّي شعرتُ بالسُقوط. ولولا ثوبُ قميصي لكنتُ في عداد الموتى، وقد أحرقت القميص بعد ذلك لكي لا أتذكّرَ الحدث. حمداً لخيوط القميص المتينة التي تمسّكت بسلك عمود الكهرباء الأسود، الذي كان مُلتصقاً بحائطِ العمارة والمار تحت نافذتي، ولحسن الحظّ أنّ الخيُوط تشبثت بالسِّلك لأبقى مُعلَّقاً للحظات وهلعاً ومرتبكاً لما كان سيحدُث، ولا أدري كيف جاءتني القُوَّة بعضلات ساعدي لأُمسكَ بكلتا يديّ حافة النافذة كأنني أتسلَّقُ سوراً. كان مخيفاً حقّاً، أتذكّر أنني شعرتُ بشيءٍ يحتويني، كأن الريح التي كانت تهُبُّ في الرابعة صباحاً أرادت أن تُنقذني هي الأُخرى.. كانت ليلة فزعٍ بحق!

عدتُ إلى غرفتي وصوت معدتي ما فتئ يُنادي، خزّان خلاياي قد نفد، ومن الواجب أن أشبع بطني لأستأنف الكتابة. أحقّر الكتابة بهذا الفعل، تجعلني أجوع سريعاً، وليس أي جوع، فجوعُ الكتابة ليس عاديّاً، ومتى يبدأ لا ينتهي إلا عندما تنتهي حرقة الأفكار، وكم مرَّة نمتُ جائعاً من أثر تعبها لي.

إلى المطبخ ذهبت، فتحتُ الثلاجة، حبَّة بطاطا واحدة تبقَّت وجزرتان، وقليلٌ من الأرز. المعادلة ليست كاملة لإشباعي، ومؤونتي في الثلاجة قد نفدت. أغلقتُ الثلاجة وذهبتُ لتغيير ملابسي. ارتديتُ قميصاً صيفياً أبيض يصل كمّاه إلى معصميّ، تركتُ أزراره مفتوحة لأبردَ من حرِّ العنفوان الذي كنتُ به.

خرجتُ بعد أن أقفلتُ باب شقتي. لم تكن أنوار السلالم مضاءة بعد خروجي، عندما أضأتها، سمعتُ صوت باب الشقة المقابل لشقتي يُفتح. كانت الشقة خالية من قبل، والآن يسكنها جيران جدد جاؤوا قبل يومين، وهذه أول مرة أصادف فيها أحدهم. كانت امرأة مسنّة، وكانت تحملُ سلّة غسيل، والظاهر أنها ستصعدُ إلى السطح لتضع الغسيل فوق الحبال كي يجف، وكما بدا لي، أن سلَّة الغسيل كبيرة شيئاً ما، ولا أظن أن امرأة بترهلات على يدها وتقوُّسٍ على ظهرها ستقدر على حملها.

لم أكن في مزاج جيد للحديث، في البداية تردَّدت بعد أن ألقيتُ عليها السَّلام فور إضاءتي المصباح الذي يُنير الطابق.

قلتُ لها:

– أيمكنني المساعدة؟

ابتسمت ابتسامة عريضة وتنهَّدت كأنها كانت تنتظرُ أحداً يحملُ عنها السّلة، ثمَّ قالت بعدها:

– نعم.. نعم! يا ولدي.

حملتُ السلّة في يد ومددت يداً للعجوز أُعينها على الصّعود، وكان صوتٌ معدني أسفل منسأتها الخشبية يطرقُ الأرض في كلِّ درجة. وصلنا إلى السَّطح، فتحتُ الباب الحديدي الأحمر، ووضعتُ السلّة.

قالت لي:

– الله يرضى عليك.

قلت مبتسماً:

– لا مشكل، شيء واجب.

بنفسِ الابتسامة ردّت علي:

– الله يعينك ويحفظك.

أكملتُ تقَوُّس الابتسامة على وجهي، ثمَّ غادرتُ ونظراتها تتبعُني إلى أن تجاوزتُ عتبة الباب.

الأضواء التي كانت مُنارة انطفأت. أعدتُ كبسَ الزرِّ الدائري الأبيض بقوّة، لأن فيه عطباً لم يُصلح منذ أن قَدِمتُ لأحتلَّ الطابق الأخير. أُنيرت الأضواء بفعل جُهدٍ شحنته للزرِّ بكفِّي. نزلتُ الدَّرج.. ثم التقيتُ بعُنصرٍ آخر من العائلة المجاورة، الأول كانت المرأة العجوز، والآن شابة تقريباً في سنّي نفسها أو أصغر مني. عندما رأت بابَ شُقَّتهم مفتوحاً، راحت تنظر تارةً إلى الباب وتارةً إليّ، كأنها تريد أن تفهم ما الذي حصل.

أدركت الوضع، فقلت لها:

– المرأة الكبيرة التي تسكن هنا طلبت المساعدة في حمل سلَّة الغسيل، فساعدتها.

تبسَّمت بعد أن كانت ملامحُ وجهها تريد تفسيراً ما، تنفَّستِ الصُّعَداء وزفرت بتنهيدة طويلة.

قالت:

– آآه.. الحمد لله! ظننت أنها خرجت مرّة أخرى.

لم أرد إكمال الحديث، ولم أعقِّب على كلامها. تداركَتْ نفسها وعرَّفت عن نفسها وهي تضحك:

– آسفة، نحنُ الجيران الجدد، أنا حفيدة المرأة التي ساعدتها.

رددتُ عليها بصيغتها نفسها:

– وأنا الجار القديم هنا، والذي أصبح جديداً عندكم، تشرَّفتُ

بمعرفتكم.

قالت:

- فلتكن جيرة طيِّبة.

ألقت إليَّ يدها لتُصافحني، قالت:

- بالمناسبة.. أنا نجوى.

صافحتها. حنيتُ رأسـي قليلاً، ثمَّ رفعتُ بإبهام يدي اليُسـرى نظارتي التي انزلقت، قلت:

- وأنا وحيد.

ضحكت من اسمي، وألقت عليَّ مزحة:

- لم تعُد تسكن الآن لوحدك.

غادرتُ مبتسماً في وجهها، وقبل أن أنزل السَّلالم، قلتُ لها:

- حقّاً..

ثم اختفيتُ بعدها مع انطفاء الأنوار.

طـوال المسـافة التـي قطعتُها نحو السـوق المركزية «أسـيما»، كنتُ أفكّر في كلام تلك الجارة الجديدة، أدري أنها كانت تمازحني فقط، ولكن.. هل بالفعل لم أعد أسـكن وحدي؟ تبدو فكرةً غبيَّة صاغتها، فالسَّـكن لا يعني دائماً باباً مقابل باب، أو شـقَّة قرب أو فـوق أو تحـت أخـرى، لربَّمـا عامـة الناس يفهمون كلمة «سـكن» بشـكلٍ عادي ورمزيٍّ إلى مع من نعيش، وإلى وسـط من نتفاعل، ولكن مفاهيمي أنا أشـياء أُخرى عن ما يفكّر به العامة، فسـكني لا يختصُّ به جسـدي والمكان الذي يقطنُ فيه، فيُمكنُ أن أقول عن نفسـي: أنني متشـرّد، لا أسـكن ولا أقطن لا هنا ولا هناك، فالأمر شخصي ويُعنى به قلبي الذي أحمله، لا الجسد الذي أملكه وظيفة

فـي الحيـاة وإجباريـةً في الفناء، فالقلب ونـوع ضرباته هي من تُقرُّ الملجأ الذي يهرب إليه الإنسان حينما يذعر ويخاف.

فأين هو ملجئي إذن؟ إلى من أعود؟ وأين هو طريقي الصحيح في متاهة الانتماء واللاانتماء؟ وإلى متى سـأبقى ههنا أعيش أو لا أعيش بدون هويَّة، ولا برَّ أمان يحضنني.

ابتعـتُ مـا احتجتـه مـن ذرة وجلبـان مُعلَّبين، وبقيّـة التَّكوينة التي تصلحُ لعشـاءٍ سـلطِي كالعادة. دفعتُ الحسـاب ثمّ خرجت. وقفتُ للحظات أمام المدخل، فكَّرتُ أنني في الغد يمكن أن آتي لأتغـدَّى فـي المنـزل. عدت دخـولاً، تجوَّلت بالمـكان المُخصَّص للخضـروات. أخرجـتُ مذكِّرتـي، لأرى وصفـةً لأكلـة تكون على مزاجـي غـداً. فكّـرت قليـلاً، ثـمَّ أرجعتُ المذكّرة إلـى جيبي وفي ذهنـي أنّ «طاجيـن» سـيفي بالغـرض، فلـن يأخـذ منّـي الكثيـر من الوقت، كما لا يحتاج المراقبة كثيراً.

ابتعتُ ما أريده من لحم وخضروات وتوابل ثمّ خرجت. عدتُ بأيدٍ عامرة في الطريق نفسه الذي سلكته في مجيئي. كانت خطواتي بطيئة، ولم يعد يفصلني عن وصولي سـوى شـارع مسـتقيم وطويل لكي أصل إلى العمارة. نظرت نحو السماء التي اشتد لون غيومها دكنـةً، قطعـتُ أمتـاراً أخـرى، فبدأت تمطر، أسـرعتُ فـي خُطاي، ورحـت أفكّـر فـي ذلـك الجدّ الذي لم أره منـذ زمن، قال لي مرّة بأنّه يحبّ المطر، يذكّره بجدّتي، فقد هطل المطر في يوم زفافه، بل حتّـى أنهـم اتخـذوا هطول الأمطار موعداً يخرجان فيه للتّنزّه. أتراه الآن يتنزَّه تحت ذرفات المطر متذكّراً جدتي وتفاصيلها التي كانت تنزُّ عطفاً؟ أتراه يُطلُّ من وراء النافذة، ويدعو ويبعثُ كلمات نحو

السماء؟ أتراه أسعفته ركبتاه اللتان نخرهما صدأ الهرم في الذهاب إلى المسجد في هذا الجو الماطر؟! ربما هو كذلك، أو ربما ليس كذلك، قد يكون غاطّاً في النوم من أثر السِّنين الأربع التي تفصله عن الثمانين. رحت أسترجعُ في حلم يقظة على الطريق شكله الذي سيزيد ظرافة من قبل، بقصر قامته وكتفيه المنحنيتين، وعظام ساعديه النَّحيلة المختفية تحت جلبابه في حياء، ومعصميه اللذين تبدو عليهما آثار الوهن، ومنسأته الجميلة المزخرفة والمنقوشة. ما زلتُ أذكر وجهه البشوش رغم التَّجاعيد وقصمات الجبين، وصوته الذي يُخرج في كلِّ كلمة ينطقها بُحَّة تُعَلِّبُ كلامه وتجعل حديثه طفولياً. وما زلت أذكر ضرباته الخفيفة على ظهري بقائمة منسأته عندما كنت أتأخَّر في الاستيقاظ والذهاب معه إلى المسجد في فتوح النهار. ويبدو أنني لم أكن كُفئاً في حمل جينة الطَّهي لأنشرها في مطعم أو حتَّى في تطويرها. أنانيٌّ أنا حتَّى في ما ليس لي. أُراهن أنه ما زال يطبُخ، وقد علَّم كل حيل الطَّبخ ياسمين وأخواتها. حتى الآن لا يزال طعم الشطائر التي أعدُّها لا يُضاهي طعم شطائره، شيءٌ ما ينقصني في تحليتها، شيءٌ أعرفه جيِّداً، وأعتقدُ أنه الحب والبركة أو ما شابه، فأنا لا أطبخُ حبّاً في الطبخ، بل في إشباع غريزة الجوع لا غير، ولا يهم المذاق، أكان سيِّئاً أم جيِّداً، ولكن في الغالب يكون جيّداً، فالتَّعلم على يد خبير لن يأتي من وراء ذلك سوى الأطباق الشهيَّة.

على حين غرَّة، وجدتُ نفسي أمام العمارة، مبلّلاً بالمطر ومنتعشاً من أثر الذِّكرى التي أتت بسابق إنذار مطري.

جفّفت حذائي أمام عتبة باب العمارة. صعدت السلالم بمزاج

متعكِّـر مـن تحرّكات وأصوات معدتي التي تجمعُ شـكوى الخلايا وتطلقهـا تأوُّهـات، وقـد مضـى على جوعـي أربع سـاعات. كنتُ متوجِّسـاً فقـط بـأن أُصفـع بوجه جديد ألاقيه مرة أخرى. سـمعتُ صوتاً ينزل متثاقلاً مع نقرات نحاسـية رتيبة، وكانت المرأة المسـنّة مـرة أخـرى. خلَّفـتُ بضع درجات خلفي، ثم أصبحتُ مقابلاً لها. كانـت الملابـس التـي رأيتهـا مـن قبـل ترتديهـا هي نفسـها، مرّت بجانبي، وبدا وجهها مُتقضِّباً بعض الشـيء، ابتسـمتُ لها فلم تردَّ بشـيء، ولم تسـتجب لابتسـامتي كي ترُدَّ بواحدة مثلها. أنا أكملتُ صعودي وهي أكملت نزولها دون أي فعلٍ يُذكر.

أدخلتُ المفتاح لأفتح، فتحتُ الباب. قبل أن أدخل، شعرتُ برعشة تيَّار هوائي بارد آتٍ من السطح. أغلقتُ الباب، ثم صعدتُ العشـر درجات لأُغلقه، وجدتهُ مواربا،ً ولمحتُ سـلة الغسـيل التي صعدتُ بها مساعدة للمرأة المسنة، حينها تذكّرتُ كلاماً طنّ بأذنيّ، كان كلاماً عابراً وكلمات غير مشروحة، وقد كانت الكلمات تعود لحفيدتهـا. فكَّـرتُ أن أفعـل شـيئا،ً كأن أطرق بابهـم لأعلمهم بأن العجوز قد خرجت، لكنِّي عارضتُ نفسـي، فمازالت مرارة القهوة تلعبُ في فمي والجوع يجعلني في مزاج سـيئ، فوضعتُ احتمالاً ناقصاً لا يجعلني أستنزفُ طاقتي وأهتم بشيء ليس لي به علاقة أو صلة: فمن يعلم، لربما العجوز خرجت لتبتاع، أو أنها تعرفُ إحدى الجارات بالعمارة، وبالتالي فلا يجب عليَّ أن أبالي بما لا يجب.

دخلـتُ مضجعـي وأطرافي تصطك، وقميصي الأبيض أصبح شفافاً وملتصقاً بي. أوّل ما خطر ببالي هو دشٌّ سريع يدفئ جسدي. أخذتُ دشِّي على مضض الجوع صابراً على تدفئة أعضاء جسدي

البـارد. خرجـتُ مـن الحمَّام بعد أن غيَّرتُ ملابسـي بأخرى قطنية وفضفاضـة، سـروالٌ رياضـي وسـترة صوفيـة بسـحاب، وقد يكون غريباً أنّي لا أنزع نظارتي في الاستحمام، فقد أصبحت جزءاً عملياً فـي تركيبـة هندامي، ولا يُمكنني الاسـتغناء عنهـا. انتعلت صندالي الأزرق الموجـود أمـام عتبـة بـاب الحمَّام، ثمَّ رُحـتُ إلى غرفتي. أزلـتُ صندالـي. وطِئـتُ بقدمـيّ العاريتيـن زربيـة الغرفـة الرطبـة، شـعرتُ بالبـرد قـد أخذ كسـوته على قدميّ. أخرجـت من الخزانة إيشـارباً ووضعتـه سـريعاً برقبتـي. فتَحـتُ دُرجاً بالخزانـة، أخذتُ زوج جـواربٍ مـن النـوع الصوفي الثقيل، لبسـتُ الجوارب واقفاً، وبعدهـا توجَّهـتُ إلـى المطبـخ دون أن أتلصّص على حرفٍ يوجد على مكتبي.

وضعتُ إناءً عريضاً فيه حبات بطاطا وحبات جزر فوق مائدة المطبخ البلاستيكية. جلستُ على كرسيٍّ أقشِّر البطاطا، أقطع الجزر مربَّعـات صغيـرة كما فعلت بالبطاطا بعد تقشـيرها. اسـتغرق الأمر بعض الوقت، وضعتُهما كلّاً على حدة في قدر فيه ماء، وتركتهما يغليـان فـوق الموقـد، كما وضعـتُ الأرزَّ ليغلي في قدرٍ صغير هو الآخـر. جلبـتُ من الثلاجة الصَّلصة التي أعددتها البارحة بالخردل والكتشـوب والجبـن المـذاب، وارتأيتُ أن أُضيـف قليلاً من زيت الذرة لتصبح الصّلصة طازجة أكثر.

تركتُ القدور تغلي وذهبتُ لأقضي الدقائق الخمس والعشرين التـي تجهـزُ فيهـا القـدور فـي تصفّح حاسـوبي المحمـول. فتحتُ علبة وارداتي؛ مجرَّد رسـائل إلكترونية قديمة من عملاء للشـركة، لا رسـائل جديـدة. انتابتنـي خيبـة أمل في أنه لـم تكن هناك خدمة

ما أقدِّمها، أُسلِّي بها الزمن بعض الوقت، كما لأنسى تهجُّم الدُّنيا بأرقام بنكية وأموال قادمة وأخرى مسافرة، وأتعملق في حسابات أخرى غير الحساب الحرفي للكلمات.

لكنني سيئ الحظّ اليوم، سأزداد علقماً فقط، وستكفيني تلك الكلمات البخيسة على الورق في إدراك نفسي التي أصلها في ليلة.. ولا أقربها في ليالٍ طويلة وعقيمة.

لا تزال المرارة في لعابي وحلقي، والجوع يفتك بمعدتي. مسحتُ بقوّة على بطني. نظرت إلى السّاعة الموجودة أدنى اليمين على شاشة الكمبيوتر، تبقَّت دقيقة لكي أنهض لمعاينة القدور.

نهضتُ بسرعة، ومشيتُ حافياً نحو المطبخ، أطفأتُ نار الموقد، ورشّحتُ القدور من الماء. خلطتُ الأرزّ وكامل المجموعة مع الجلبان والذّرة المعلَّبين وسكبتُ فوقها الصّلصة، ثمَّ بملعقة في يدي اليمنى وشوكة في يدي اليسرى، بدأت عملية الخلط. وضعت السلطة في صحن زجاجي مقعّر، وغرستُ الشوكة في وسطها.

ازدردتُ سلطتي في هدوء وسكون، وفي الوقت نفسه راجعتُ ملفّاً كنت قد كُلّفت به صباحاً عن خطأ اقترفه زميل لي في العمل بخلطه حسابين لعميلين.

II

كانـت السـماء لا تـزال تمطـر عندما انكفأتُ إلى المسـاحات البيضـاء، أوراق مُلئـت فـي غضـون سـاعة ونصـف أو أكثـر. كان يجـب أن أرتـاح، فأشـعلتُ التلفـاز لأُطلَّ علـى العالم الذي أعيش فيه؛ مجرد نشـرة أخبار مُعادة عن مستشـفيات شـيّدت، وأخبار عن الحكومـة الحاليـة.. زادتنـي ملـلاً لا غير. لم أتحمل أشـعّة التّلفاز والأشعة الحارقة لمسلسل تركي مدبلج باللغة الدارجة عُرض بعد نهايـة نشـرة الأخبـار. أطفأت التّلفاز، وأطفـأتُ عينيّ بقيلولة أرتاح من تعب اليوم.

غفـوت قرابـة السـاعة، ولم توقظني سـوى طرقات على باب شقتي، طرقات كان يمكن أن لا تُسمع لولا حسِّي السَّمعي القوي بالأصوات حتَّى في نومي.

نهضتُ متثاقلاً وشـبه نائم، لم أنتبه لعدم وجود نظارتي على وجهي، ولم أنتبه لشعري المبعثر وغير المرتَّب. كنتُ يقظاً بالمرارة التـي تشـحن نفسـها فـي لعابـي وأسـناني من أثـر القهوة. غسـلتُ وجهي، ومسحته بيدي دون منشفة، ولم أهتم بشعري، ولـم ألاحظ أيضاً عندما غسلتُ وجهي أني بدون نظّارات.

كانـت حفيـدة العجـوز. كانت ترتدي معطفاً أسـود يتلاءم مع

شعرها الكستنائي الباهت، وتحمل مظلّةً بدت لي صغيرة الحجم، بهـا شـخصية رسـوم متحركـة، أعتقد أنها لذلك الفأر الأسـود ذي الأذنيـن الكبيرتيـن فوق رأسـه «ميكي مـاوس». نظرَت إلى وجهي، وتفرّست ملامحي لوهلة، حتَّى أنّها ترددت في الحديث معي، فقد فاجأها منظري الذي يبدو مليئاً بالتّعب.

قالت:

- آسفة على إزعاجك، يبدو أنّك كنت نائماً..

قلت:

- لا بأس أتحتاجين شيئاً؟

بقيت صامتة، كانت متردِّدة في ما تريد قوله.

رفعت خصل شعرٍ عن وجهها فوق أذنها بعد إذ نظرت إلى الأسفل، ثمَّ رفعت بصرها نحوي، كأنها تتشجَّعُ لتقول شيئاً.

قالت:

- قد يبدو الأمر شخصياً لكنني أحتاج مساعدتك في شيء، فلم أتعرف إلى أحد في العمارة بعد.

قلت لها:

- أليـس الأمـر شـخصياً، ألا يوجد فرد في العائلة يسـاعدك بدلي؟
- والـداي خـارج المنـزل، ولم يأتيا بعد، وأنا لا أريدهما أن يعلما بالأمر، وكما ترى أن أختي الصّغيرة لا تزال رضيعة، وأنا الأخت الكبرى هنا، لذا...

فكّرتُ مليّاً في أن ذلك سـيزيدني تعباً، وسـأمرض بلا شـك، لكنّني لم أفكّر في الرّفض، فقلت:

- حسناً ما المطلوب؟

قالت:

- أريدك أن تبحث معي عن شخص.
- شخص؟
- أريدك أن تبحث معي عن جدّتي.

فكّـرتُ قليـلاً، ثـمَّ تذكّرت محاورتي الأولـى معها، وتذكّرتُ كلامها وتعابير وجهها بعد أن كان باب الشقة مفتوحاً.

قلت لها:

- لقـد رأيتهـا قبـل سـاعتين عندما كنت صاعداً إلى شـقتي، أعتقد أنها خرجت.

بدا القلق عليها، كأنها سمعت ما لا تريد.

قالت:

- يا إلهي كيف سأجدها؟!

قلت:

- ولماذا تريدين البحث عنها؟ ألن ترجع؟

قالت:

- جدّتي مريضة، مصابة بضعفٍ في الذّاكرة، وأصبحت تنسى كثيراً.

صمتت للحظة، ثم أضافت:

- هي من ضحايا الزهايمر.

قمتُ بحركة لاإرادية بسبّابة يدي اليسرى لرفع نظارتي كعلامة تفكيـر وحيـرة، لكنـي لـم أشـعر بهيكل النظـارة. وضعـتُ إبهامي وسبّابتي على عينيّ وبقيتُ ممسكاً بالجلد الذي بينهما.

يـا إلهـي، كم مـن الحكايات قرأت هذه الفتاة في عينيّ، وكم من التّوجُّسات أخذت عني!

نظرتُ إلى الأسفل حيث توجد قدماي، وقلتُ لها سريعاً كمن يعتذر، مديراً ظهري:

- انتظري سأُغيّر ملابسي.

قالت:

- من فضلك.. وحيد.. أسرع!!

لم أتذكّر أين وضعتُ نظّارتي، وتبادر إلى ذهني مكان الأريكة التي نمتُ عليها جالساً، بحثتُ خلفها وتحتها، لكنني لم أجد شيئاً، بـل إننـي كنـتُ محتـاراً حتّى فـي ما كنتُ أبحث عنه، فشـيئان كانا يتقافزان في ذاكرتي التي استيقظت لتوِّها، الأوّل نظّارتي التي أبحث عنها والثاني حروف اسـمي التي عَلِقَتْ بذهني، والتي قيلت بنبرة مساعدة جريئة تنتظر منّي نداء الاستجابة.

كِـدتُ أن أدوس علـى نظّارتـي قبـل أن أجدهـا مُلقـاةً علـى الأرض علـى مسـافة قصيـرة مـن الأريكـة. وضعـت النظّارات كي تتّضح الصّور لأُفكِّر بشـكلٍ رزين، وبدا الوقت كأنّه يتباطأ بعد أن قمت بعملية ذهنية لما سأفعله، فلا أريد أن أترك مجالاً للخطأ.

ارتديـتُ معطفـاً ثقيـلاً فـوق ما ألبـس، وانتعلتُ حـذاءً مريحاً يصلـحُ للمدى الطويل من السّـير. حملـتُ مظلّتي البنيّة، وخرجت لملاقاتها.

لم أجدها واقفة أمام باب شقّتي، وجدتها جالسة على الدّرج المحـاذي لشـقّتي. كانـت تضـعُ راحة يدهـا على جبينهـا، وعندما سمعَتْ صوت إغلاق الباب وخطواتي تقتربُ منها، أدارت وجهها

سريعاً وهي تنظرُ إلى هيئتي التي تغيّرت.

قالت وهي ما تزال جالسة:

– هل انتهيت!!

– نعم.

ثم أردفتُ:

– اسمكِ نجوى أليس كذلك؟

– نعم هو كذلك.

بعدها وقفت، بدت لي متفاجئة قليلاً، أعتقد أنّها تفاجأت من مظهري الذي تغيّر. كان يمكن أن ننزل على السّلالم، إلّا أن الأمر سيستغرق وقتاً. اضطررت أن أركب المصعد معها لكي لا أُحرج. صبرتُ على ملامح وجهي التي تتحدّثُ لي كلّما نظرتُ إلى شبحي في المرآة، ولكي لا أشغل بالي بالخطوط المرسومة على وجهي، رحتُ أنظرُ إليها وأحاول أن أحادثها لكي أنسى نفسي وحكيها واغتيابها لي بصورة تفضح عيوبي.

قلت:

– إذن نجوى، هل يحدثُ كثيراً أن تخرج جدّتك دون أن يراها أحد أو دون مراقبة؟

حنت رأسها، وبدا عليها الشعور بالنّدم.

قالت:

– إنه خطئي، كان يجب أن أراقبها، لكن ماذا يمكنني أن أفعل، كنتُ أطبخ لها، وبعد ذلك صعدت إلى السّطح، وجدتها تضع الملابس لتجِفّ على الحبال، فناديتها لتأتي، لكنّها أبت، وقالت إنها ستأتي بعد قليل، فتركتها

على راحتها، وانشغلت بنقل الأثاث، كما انشغلتُ بملء استمارة عملي الجديد الذي سأحظى به غداً بعد انتقالنا إلى هنا.

فهمتُ سبب عدم اتّصالها بوالديها، فقلت:

– وتريدين البحث عنها سرّاً دون إخبار والديك، أليس كذلك؟

أجابت:

– صحيح، وهناك سبب آخر لجعلك تبحثُ معي، لأنك رأيتها وتعرف ملامحها، وقبل أن آتي إليك، فقد سألتُ كلَّ من بالعمارة هل رأى امرأة مسنة تخرج، والكلُّ أجابني بالنفي.

فكّرت في ما قالت، ثمّ قلت:

– وهل سألتِ حارس الحي؟

قالت:

– حارس الحي؟.. مممم لا، لم أتجاوز سكان العمارة قط، وهذا سبب آخر لجعلك ترافقني، فأنت تعرفُ المكان والأشخاص الموجودين هنا.

لم أُرد أن أزعجها بأسئلة أخرى، فباشرتُ بابتسامة جافَّة، ثم قلت:

– أتمنَّى أن نجدها!

ردَّت لي الابتسامة، وحام الصمت لحظتها حتَّى فُتحت أبواب المصعد.

كان مطراً قويّاً، خرجنا من الباب الكبير للعمارة، والريح

تصفع وجهي بقوة، إلّا أنها أنعشتني، وأيقظت ما تبقى من أجزاءٍ بي كانت نائمة.

فتحتُ مظلَّتي، وهي أيضاً فتحت مظلّتها، وكان وقع المطر على طبلتي أذني مدوّياً. ابتعدنا عن العمارة بمسافة، وتوجَّهنا نحو مرأب السيّارات لنسأل الحارس.

لم يكن صوتي الخفيفة تردُّداته يُسمع مع تساقط المطر، فرفعتُه قليلاً لأسأله:

قلت:

- السّلام عليكم.
- وعليكم السّلام، كيف الحال؟
- الحمد لله، اسمح لي، أريد أن أسألك عن شيء.

ثم أردفت:

- قل لي، هل صادف أن رأيت امرأة كبيرة في السّن تمرُّ من هنا، أو بالقرب من العمارة.

وأشرتُ بيدي إلى نجوى:

- هذه حفيدتها.

لم أُرد أن أفتح باب الحديث أكثر فأُحرج نجوى، فقلت له:

- المرأة قد تاهت عن العمارة، ونحن بصدد البحث عنها.

قال الحارس:

- يا صديقي، أنت تعرف أن كثيرين يأتون إلى هنا ويذهبون، أعتقد أنه لا يمكنني مساعدتك في هذا، ولكن متى يمكن أن تكون قد خرجت؟
- لا أعلم بالضبط، ولكن يمكن أن تكون قبل ساعة أو أكثر

تقريباً.

– قبل ساعة!

ثم أردف:

– لا أعتقد أن أحداً قد خرج من عمارتكم في ذاك الوقت، فقد كنت أنا وصديقي ندخّن بالقرب من العمارة، ولا أظن على ما أذكر أنه قد خرج أحدٌ غيرك أنت، فقد رأيتنا أليس كذلك؟

قلت:

– صحيح.. صحيح.

قال:

– أؤكّد لك يا صديقي أنني لم أرها.

– شكراً على أي حال، لقد أفدتنا بشيء.

قبل أن أغادر، ناداني: «هيه هل لديك قدّاحة؟». كنتُ قد وضعت القَدَّاحة التي أُشعل بها الموقد في أحد جيبي بنطالي. أشعل سيجارته بقدَّاحتي، شكرني والسيجارة في فمه تتمايل مع دخان يخرج مع كلمات شكره.

مشينا كثيراً ونحن نسأل عن خبر يجعلنا نتقفَّى أثرها، لكننا لم نجد شيئاً يعيننا. والجو القارس الذي أتى به المطر، جعل أنفي يحمرُّ ويتجمَّدُ من البرد، واللَّحظات التي كنّا نبحث فيها، أمكن لها أن تكون اللّحظات التي أشتعل فيها بحزن أنفثه إلى الورق.. لا أن أتجمَّد في طريق بحث.

خطونا مسافة طويلة، ومررنا بالقرب من أحد البنوك ((BMCI)). نظرتُ إلى السّاعة الرقمية المعلَّقة فوق مدخله،

وكانـت الأرقـام الحمـراء تشـير إلى التّاسـعة وسـبع عشـرة دقيقة، ودرجة الحرارة كانت اثنتي عشرة درجة. مررنا بالقرب من منعطف بجوار البنك، هبَّت رياح عبر الممرِّ الذي نحن به، قاومت مظلّتي، وتكسَّرت مظلّة نجوى، فقد كانت صغيرة. وضعتْ نجوى لحظتها قلنسـوة معطفهـا، لكـن بدا لـي ذلك غير ملائم، فالقلنسـوة قصيرة شيئاً ما. قلت: «خذي مظلّتي، إنها قوية»، رفضَت في البدء، لكنني أصررتُ عليها. جمعتْ مظلّتها المكسورة، وحملتها بيدها اليسرى. أخذتْ مظلّتي وقالت: «ألن تحتمي أنت أيضاً من المطر؟!»، قلت: «أكـره المطـر، ولكن.. سـأكون صديقه اليـوم». قالت: «هل جننت، ستمرض حتماً». اضطررتُ أن أرفع صوتي أكثر، قلت والماء يسيل من فمي وكلماتي: «لا بأس احتمي أنتِ فقط..»، ثم أضفت: «ومن غير اللائق أن أحتمي معكِ تحت مظلة، تعرفين ما أعني، قد يراني زوجك أو ما شابه». ليس الأمر أني أخاف أن يراني أحدٌ أنا وهي تحت مظلة، فيبني عني فكرةً ما، كلّ ما في الأمر، أني لا أريد أن أخلط هالتي الرّثة معها، فأحياناً أكون جالباً للحظِّ السيئ.

تشـي ملامحها التي ارتسـمت على وجهها بأنها فهمتني، ولم تفتعـل بعدهـا سـوى ابتسـامة رضى تشـي بأنها تفهم عـن حدادي المخفي.

بحثنا قرابة الثَّلاثين دقيقة، نمشي جنباً لجنب، وكانت تراقبني بنظراتهـا خلسـة، كأنهـا شـعرت بمـسٍّ منّـي، أو أن بصماتـي التي انطبعت على يد المظلة شـرحت لها شـيئاً مبهماً منّي، ثم لا شـكَّ في أنها أخذت عن جارها توجُّسات ضررٍ نفسي يلحق به، فهالات حزنٍ تُحيط بي وبأشيائي التي كلما اقترب أحدٌ منّي أو منها تظهر،

وربما شعرتْ بالأسى على حالتي التي قرأت سابقاً جزءاً منها من نافذتي روحي.

لم تكِلَّ السماء عن الهطول، واكتملت ساعة من بحثٍ غير مُجدٍ، ولا شيء أعاننا على اقتفاء أثر العجوز، أو حتَّى خبر مرورها من الأماكن القريبة من الحي، ولم يتبقَّ سوى العودة إلى العمارة، وأن ننتظر لعلّها ترجع أو يحدث شيء ما.

عدنا أمام عتبة باب العمارة نترقّب بعدما انتهت حيلنا. غدا جسدي مبلّلاً حتَّى آخر بقعة جافَّةٍ في ملابسي، وأنفي مُحْمَرٌّ من التّجمد الذي يحيطُ بعظام جسدي الخفيف. أضحيتُ كفرخٍ ارتوى ريشه بالماء، وارتعدت عضلاته الطّرية، ورمشت عيناه بتثاقل، وانتصفت جفونه. لم أقدر على أن أرفع نظّارتي التي انزلقت على أنفي، وكانت ثناياي تصطكُّ في فمي المغلق بإحكام، وانحشرت يداي بشدَّةٍ في جيبي معطفي، ورعشات البرد التي تمر يقشعرُّ لها بدني وتسقط معها قطرات ماء من خصل شعري ورموشي، ومن أنفي كذلك. ضعُفت رؤيتي قليلاً بسبب نظّارتي التي أصبحت ضبابية بسبب قطرات ماءٍ سقطت عليها، ولم أجد خياراً سوى أن أطلُب من التي بجانبي المساعدة، والتي نسيت وجودي ربّما، والتي اكتفت بمراقبة النّاس يميناً وشمالاً، تقطع بضعة أمتار وتعودها تارة أخرى.

نزعتُ نظّارتي، شعرت بجليدٍ دمويّ قد تكسّر في مفاصل ذراعي التي نزعتْها. لوَّحتُ لها بيدي دون كلمات، أشرت بحركة بمعصمي وأصابع يدي إلى أنني أريد أن أمسح نظّارتي. قلتُ مُرغماً بشفتيّ المخدرتين وأسناني المصطكّة: «هل.. عندك

منديل..؟». أجابتني: «لا ولكن هاتها، ثوبي سيفي بالغرض». ثوب معطفها كان خشناً، لكنّه قام بالغرض. كنت محترساً هذه المرَّة، أخذتها من يدها وأنا أمسح عينيّ. وضعتُها بسرعة، كان الزجاج غير ممسوح كفاية، إلا أن ذلك كان كافياً لأرى بصورة أوضح من السّابق.

بعد دقائق أخرى من الانتظار، لم أستطع مواصلة الوقوف، فأشرتُ بيدي إلى نجوى أنّي سأدخل إلى داخل العمارة، فقد احتدمت جزيئات البرد المشنَّج في جوفي، وتشنّجت أوتاري الضعيفة، ولم تعد قادرة على مواصلة العزف الحركي.

جلستُ قرب مصباح فوقي، أشعلته ليُدفئني، وأزعجتني الحركة المكرّرة عندما كان المصباح ينطفئ فأعيد إنارته.

بعد برهة، دخلت نجوى هي أيضاً، وعلامات اليأس تملأها، وكانت تُسخِّنُ يدها بديناميكية حركة بيديها، كأنها تفركهما لتُشعل ناراً في راحة يديها لتخلق تدفئة.

تقدَّمت نحوي، جلست بالقرب منّي، قالت وبها رغبة في البكاء: «مصيبة.. مصيبة». لم أجد ما أقوله، فالتزمت الصمت. وضعتُ ذراعيّ على ركبتيّ على شكل x، ووضعت جبهتي عليهما، انعوت نظّارتي بوضعيتي، فأدرتُ وجهي نحو اليسار حيث توجد نجوى بجانبي، بدا لي كأنها تبكي، وكانت تبكي بالفعل، ولا مراء أنها تفكّر في طريقة ما لتصوغ ما ستقوله لوالديها. تردّدتُ في قول شيءٍ لأواسيها، فأنا أكره بدء إشعال حديث ما، بَيْدَ أنّي أكره أيضاً أن أرى امرأةً تبكي أمامي، فذلك يذكِّرني بوالدتي.

اعتدلتُ في جلستي، عقدتُ ذراعيّ، وزفرتُ في الهواء،

فتصاعـد دُخـانٌ مـن فمـي، وقد تنبّهـت هي لفعلي. رفعتُ رأسـي وعلّقـتُ نظـري على رقـم العمارة الذّهبي «138»، الموجود وسـط قطعة بلاسـتيكية صغيرة بلون أسـود، فوق الباب المشـبك، والتي تُرى من الأمام والخلف.

تحدَّثتُ وابتسامة لا أعرف من أين أتت اتخذت شكلها فعَلَتْ على وجهي:

– لديَّ جدٌّ يحبّ المطر، ولا شكَّ أنه الآن يتجوَّل تحته، أو ينظر من نافذة ما.

أخفت وجهها تمسح دموعها. قالت:

– آسـفة علـى كلِّ شـيء.. ولكـن لـم أجـد شـخصاً غيـرك، أدخلتك في محنة لا تريدها.

قلتُ وأنا لا أزال أنظر إلى الأرقام الذّهبية التي تلمع في زجاج نظّارتي.

– لا بأس سيدتي، لم يُزعجني شيء، إضافة إلى أنك جديدة هنا.

ارتاحت بتنهيدة قصيرة، ثم قالت:

– قلـت أنَّ جـدَّك يحبُّ المطر. جدّتـي كذلك تحبُّ المطر، في الحقيقة كبار السّن كلُّهم يُحبُّونه.

– ليـس الجميـع، فهنـاك أناسٌ يضعون الأشـياء الجميلة في خانـة الذِّكريـات العقيمـة التي تضيء الجـراح في كلِّ ليلة هطول، فيُصبح المطر مؤلماً بقدر ما هو ساحر.

كانت هفوةً منّي أن قلتُ كلاماً يلمّح إليّ ويهينني، لا أعرف إن كانـت فهمـت مـا أقصد وما لم أقصـد، فقد صمتت قليلا كأنها

أدارت الكلام الذي قلته في رحى فهمها وإدراكها. أزالت قلنسوتها من على رأسها، ورتّبت شعرها الكستنائي.

بعدها جاء صوتها خفيفاً وهديلاً يُفتى من ورائه بتفاؤل لا أملكه، قالت:

– ربّما، أو في الحقيقة كلامك صحيح، فالأشياء الجميلة عندما تُؤرَّخ بين ثنايا ذكرى مؤلمة تُخدش على جدران الذّاكرة، وتُصبح مثل لعنةٍ تجلب الحظَّ السيئ، ويُقلبُ جمالها إلى نقيضه الذي ننفر منه عادةً، تجنُّباً للتّكرار الذي يؤذينا أكثر مما نتصوَّر.

بدت لي كلماتها يقينية، إلا أن بها ملابسة لخطأ لا أعي مكمنه جيداً، ولن يكون جائزاً لي أن أُكمل حديثي بعد كلماتها الطّويلة التي أتخمتني برجوعٍ إلى ذاكرة الماضي السّحيق، أدركتُ أنني إذا ما أطلتُ الحديث أكثر، فسأُخدّرُ أكثر، تارةً بالبرد الذي يُحيطني من كلِّ جانب، وتارةً بالسَّفح الثلجي الذي يقبع بالذاكرة والذي سينهار ليجرفني إلى أشجار الأسئلة الشَّائكة التي لا تكفُّ عن وخزي بنصالها.

أبقيتُ على ابتسامتي. نظرتُ مباشرةً إلى عينيها، ثم قلت:

– سيدتي، الحقيقة مُرَّة، لكنَّها مخبأ نشوتنا لنواصل العيش.

أجابت بمزحة أُعجبتُ بها:

– كالقهوة السّوداء، توقظنا من النّوم بمرارتها لنواجه ما ينتظرنا.

عندما ذكرت القهوة، أصبحت صديقتي فجأةً، بل كأنها أعطتني أمراً بلا سبب لأهدم أفكار رفضي في بادئ الأمر عندما

طلبت مساعدتي، فتخلّيتُ عن رسميتي، وفتحتُ عينيّ نصف اليقظتين، وكشفتُ عن أسناني بضحكة قصيرة أتاحت لها النظر إلى جانبي المنسي لملامح الوجه المنفتح والمنغلق بكهولته.

- صحيح.. صحيح نجوى..

ضحكت هي الأخرى، وحدَّقت إلى تراسيم خلقتي، وقالت:

- ضحكتَ أخيراً!

لجمتُ ضِحكتي، وتركتُ للابتسام حريّته على وجهي.

قلت:

- أنتِ أيضاً فعلتِ سيِّدتي.

قاطعتني ممازحة:

- سيِّدي، لستُ سيدةً كما ترى.
- عذراً، اعتدتُ على قول «سيّدتي»، إنها عادة العمل لا أكثر.
- حسناً!
- حسناً، سيّدتـ.. عفواً! نجوى، إنَّ التفكير في أمر جدَّتك يرهق أكثر، ضعي أملاً في رجوعها وفي إيجادها، فالتَّوقُّعات السيِّئة لا يأتي من ورائها سوى تحقُّقها.

فجأةً، وجدتُ نفسي أقول كلاماً فارغاً بالنسبة إليّ، وممتلئاً إلى آخره بالنسبة إلى الآخرين، وجدتُ نفسي أتكلم بنبرة شخصٍ يعرف الحياة التي لا يفقه فيها شيئاً سوى الوجع، سخرتُ من نفسي للحظات حين الكلام، لكنَّ الأمر صحيح لن تنفيه أي حجَّة، فالَّذي يتفوَّهُ بكلام لم يُشفه، عادة ما يُشفى به غيره، تبقى تجربةً في الحياة والعيش، والفرق بيني وبينها في استجابة الأمل هو أنها

تؤمـنُ بـه، كما أنها تبدو مليئة بالألوان، وتملك الأجوبة الصّحيحة والأسـئلة المختـارة بعنايـة.. وعلـى العكس، أنـا اختلطت أجوبتي وأسـئلتي فأصبـح كل مـا أتفـوه بـه مثـل أطروحـات تبنـي حججاً ونظريات، فأصبح الفراغ يملأني، وهذا الأخير هو الشـيء الوحيد المتبقّي الذي يُروى علناً في رؤيةٍ مباشرةٍ مع نافذتَي روحي اللتين تشيان بالفراغ النِّزاعيِّ الذي ترتّله الوحدة، والذي يفصله انشطاري المتتالي في ساعة عمري التي لا تدُق.

وأردفتُ قائلاً:

- أين كنتم تجدونها عندما كانت تتيه أو يحدُثُ أمرٌ كهذا؟

قالت:

- لم تكن الأشياء كما الآن، فالحي كلُّه كان يعرفها، وعندما كانت تغافل أحداً في البيت كُلِّفَ بمراقبتها وتخرج، ينتبه لها أحدٌ في الحي، فيُعيدها إلى البيت، لكن الأمر صعب الآن!

فكَّرتُ أن أسـئلتي بدأت تأخذُ طابعاً شـخصياً وتمسُّ حواجز العائلة، فاكتفيتُ بأمل خدعني أكثر من مرَّة فجحدتُ به وبتصديقه الزائف. أخدعني لأُربِّت على كتفها ليحدُث ما تريده، ليُصبح أمَلُها أملاً وبقايا.

قلت:

- لا تقلقي، سنجدها.

وأضفتُ بعد أن صمتُّ لحظة:

- .. سنجدها إن شاء الله!

- إن شاء الله..

بعدها صمتُّ وعدتُ إلى طبيعتي الأولى برعشة البرد التي قرصت جسدي لتُذكِّرني بهويتي، شعرتُ بالبرد أكثر حينها، وأحسستُ بالعُسرة تأخذني. وانحشرت غصَّاتُ ألمٍ في كامل جسد، كأن كُلَّ رقعة بي تشكو منّي لأنها صدَّقت جُزءاً من كلماتي التي لا تُبرأ وتجرح أكثر.

يداي تجمّدتا لأني أخرجتهما في حركات مع الكلام الذي قلته، ليبدو كلامي طيِّباً وليِّناً وفيه شيءٌ من الحياة ادِّعاءً.

قلتُ بعد أن فركتُ يديّ بصعوبة:

- نجوى، انتظريني دقائق، سأصعد لأجلب قفَّازين لتغطية يديّ، وشيئاً أضعه على رأسي.
- حسناً، لا تتأخّر.

تركتها خلفي بنظراتي التي رأتها تُعيد وضع قلنسوتها. صعدتُ السّلالم بروية، شعرتُ بدوار يأخذني فجأة، ودوخة تملّكت عقلي وإدراكي الذي خوى من جهده في تلك المحادثة. توقفتُ لبرهة أستجمع أنفاسي. حركت رأسي يمنة ويسرة ككلب يُجفّف نفسه من الماء، وكنت أُجفّف نفسي فعلاً، كنتُ أنفضُ عنِّي آثار قلبي الذي نبض قليلاً في المحادثة من أثر ضحكي، والذي كان يبوح دون إذنٍ منِّي بسكوته وخرسه اللذين وهبتهما له الحياة، ورعيتهما أنا كضيفين أتيا برحالهما ليستقِرَّا في قلعتي المشيَّدة من ألم وغضب.

صعدتُ مجاوراً كتفي للحائط خوفاً من أن أقع. صحيحٌ أنّي أشعرُ بالضّعف، لكن هذه المرَّة، أشعرُ بثقلٍ غير عادي على جسدي بأكمله، كأن أطناناً من الحديد والخشب ترتكز على كتفيّ، وأمتاراً من السَّلاسل الثقيلة تطوِّقُ خصري، وقيوداً تُكبِّلُ رجليّ، وشعرتُ

بذراعيّ تفقدان الإحساس وأصبحتا تتحركان على هواهما.

انطفأت الأنوار وأنا في الوسط، مررتُ بأحد الأزرار التي تنير سلالم الطوابق التي تفصل طابقاً عن آخر. لم تكن بي رغبةٌ في أن أنير طريقي، فطريقي كان وما زال معتماً، فلم أعد أفرّق بين البصر الوجوديّ والبصر الماديّ، يتساويان في ميزان بصيرتي، فقد كنتُ ضريراً دائماً، ولن يُضرَّ مصباحٌ إذا ما انطفأ، فلا مصباح يضيءُ طريق العدم إذا كان فتيلهُ لا يقبل أيَّ شعلة غير شعلة الحياة التي أصبحت أسطورة في قواميس مَحيَاي، قيدها فقط من يمسكني.

لأوَّل مرَّةٍ تمنّيتُ أن تكون شقتي قريبة غير بعيدة كما ألِفتها، فحالات الضَّعف الجديد وغير المألوف غيّرت رغباتي البشرية، وشعور ما خالجني في تلك اللَّحظات، فأدركتُ شيئاً؛ أنني اخترتُ السّكن بعيداً للحظات كهذه فقط، كي أضع نفسي في نزال مع إرهاقي الذي لا ينتهي، ولأدرِّسَ فنَّ المقاومة لإرادتي ولإلحادي بتراكيب الضَّعف الذي سرى معي منذُ الولادة. لا أدري السبب الذي يجعلني أناهض نفسي بطريقة البعدِ هذه! ربّما لأغادر سريعاً لأن الذين مثلي يعتبرون ثقلاً على الدُّنيا؟ أو أنّ وجودي هذا كما اتَّفق، يعكِّرُ على الدنيا صفاء مسارها بمعاكسة شريعتها وقوانينها؟ أو أن أفعالي البريئة بإجرامها هي من تفعلُ كلَّ هذا بي؟!

وصلتُ الطّابق الثالث. أظنّ أنني لن أفي وعدي لنجوى بأن يكون انتظارها لي قصيراً، فقد تبقّى طابقان لأصل، أي ما يُعادل ستة وأربعين درجة لأصل، وسيأخذ ذلك وقتاً طويلاً مع زحفي هذا كي أصل، إضافة إلى مدَّةٍ ما بعد وصولي في البحث عن قفازيّ وطاقية قطنية لرأسي، أو حتّى أنه يمكنني أن أغيِّر ملابسي

كلّها إذا لزم الأمر، لأحمي أعظمي الهشَّة من وخز البرد.

عبرتُ درجات أخرى والظلام كان شبه حالك، وإنارة مصابيح الحيّ الخارجية التي يأتي شعاع طفيف صادر منها يعبر النوافذ الصغيرة للعمارة، هي وحدها التي تضيءُ منعرجات السّلالم شبه الحلزونية بين كلِّ طابق وطابق، كما تُنير بشكلٍ باهت جدّاً الانعطافات المتاهية التي تتشابه نحو كلِّ شقَّة في الطَّوابق الأربعة والتي يحتوي كلُّ طابق منها على ثلاث شقق. والطّابق الخامس الذي أقطنُ فيه، هو الوحيد الذي يضم شقَّتين متقابلتين.

عندما صعدتُ درجةً أخرى، لامست قدمي شيئاً، فسمعت صوت معدنٍ ارتطم بالأرض. كنت أنظر أمامي قبلاً، وبعد الارتطام نظرتُ تحتي، وبدا لي شيئاً يلمع مع الأشعة التي تأتي من النوافذ، نظرت إليه جيداً، ولكني لم أتعرف إلى ذلك الشيء الذي لمحته يبرق. ضربت بقدمي ركلةً خفيفة لكي أدرك ما الذي ارتطم بالأرض، فسمعت بعدها صوتين، الصوت الأول نفسه، والآخر لم أعرف ما هو بل بدا لسمعي كصوت بلاستيك، أو زجاج، أو خشب تشوشت ذاكرتي، ولم أقدر على مواصلة الصعود أمام عقبة الأصوات.

رُحتُ أتمعَّنُ للحظات اللّمعان الباهت الصّادرِ من الشّيء، وأتخيَّل مجسّمه لعلِّي أفهم ما الذي أصبته. ارتعبَ جسدي بصوتِ حركة ما، وقد ظهر لي شيء يتحرَّك في الدرج، وحينها بدأ خوفي الذي نُسِيَ كيف يُفعِّلُ نفسه. رُسمت في ذهني صورٌ بشعة لوحوش نراها في الأفلام وخرافات اختفاء بعض النّاس في الظّلام، حتّى أنّني بدأتُ أشكُّ في أكذوبة الأشباح، إلا أنّني تيقَّنتُ من شيءٍ

واحـدٍ، أنـي سـأُصادف المخلوقـات الأخرى التـي خُلقت من نار، وسأكون شاهداً على رؤية أجسادها وهيئتها. لم أقدر على الصُّراخ ولو حتّى بصوت خافت. زممتُ فمي، واحتكمتُ إلى عمليةٍ سريعة فـي ذهنـي. فكّـرتُ فـي أنَّ تلك مجرّد تخيُّـلات، فمن الممكن أن يكون أحد الجيران قد فقد وعيه عند طلوعه، أو جريمة قتل افتُعلت هنا.. واحتمالات عديدة أخرى. أخرجتُ هاتفي من جيبي مرتعداً بدون أن أحدثَ ضجيجاً. وقبل أن أضغط الزّرَ لكي أُشعل مصباحه اللّيلـيَّ الصغيـر، جاءتنـي رغبـةُ ملحَّةٌ في أن أعطـس. بقيت حاملاً الهاتـف فـي يـد، وفـي اليد الأخرى وضعتُ سـبّابتي فوق شـاربي وألصقتها أفقيّاً بفتحتي أنفي، وحاولتُ جاهداً أن لا أُسمع صوتاً. مرَّت اللحظة بسلام، واستطعت حبس العطسة.

تراجعتُ بخطواتٍ سلسة إلى الوراء، والإنارة البيضاء للهاتف موجَّهةٌ نحو الحائط، مشـيتُ بهدوءٍ أزحفُ بجوار الحائط ملتصقاً بـه، وقـد أعانتنـي ذاكرتي المشوَّشـة في تذكُّر موضـع زرِّ الكهرباء المضاء بالبرتقالي. اقتربت أكثر، سمعتُ جلبةً مرَّةً أخرى، فطاردتني أفكار الهيئة التي سـتواجهني. أسـرعتُ وأدرتُ وجهي نحو ناحية الشـيء الـذي يلمع مُلصقاً ظهـري بالحائط. أطفأت مصباح هاتفي حيـن وصلـتُ إلـى مكان الزّر، وضعت كفّي علـى زرِّ الإنارة دون أن أضغـط، رغبـةً فـي الاسـتعداد لرؤيـة الحقيقـة التي ستكتشـفني وأكتشفها. استعددتُ بعد أن تنفَّستُ الصُّعَداء في صمت، قمتُ بعدٍّ تنازلي من الرقم ثلاثة، وصلتُ إلى الرقم واحد، فتردَّدتُ للحظة، لكنني تشجَّعتُ وضغطتُ بكلِّ ما أوتيت من ضعف وتوجّس..

أُنير الطّابق، لازمتُ مكاني أُشـاهد ما يحدث، آلمتني الأنوار

في عينيّ ثمَّ شعرتُ بالأسف على نفسي لا غير.

كنتُ ضحيةً للمطر فقط، وضحية للبرد الذي التحفني. عدتُ أدراجي إلى نجوى، ناديتها بصوتي الباهت والمرتاح قليلاً: «هييه نجوى!»، استدارت وقالت لي: «تأخرت كثيراً!»، ثمَّ أردفت: «انتظر لحظة، أنت لم تفعل شيئاً، لم تغيِّر ثيابك». قلتُ لها: «اتبعيني لنحمل جدَّتك».

لم تفهم ما كنت أشير إليه. شرحت لها بكلمات قصيرة تقيني ما حدث: «جدّتكِ.. نائمة»، وبإشارة إلى السّلالم قلت: «.. فوق..». حملَت جسدها بسرعة، وأرادت الجري صعوداً، فاستوقفتها وقلتُ لها بأن تهدأ لكي لا نوقظها فتهلع. ولم أطلب منها أن تصعد إلا تحاشياً لما يحدث داخلي من نزاعٍ مرضي يأكلني ويُهشِّمُ عروقي.

صعدنا بخطواتٍ لا يسمع منها سوى حفيف أحذيتنا المكتسية بالتُّراب والماء. وأنفاسُنا كان صداها يزيد مع الحيطان المتقابلة، التي تعكس الصّوت وتضاعفه. انطفأتِ الأنوار، وأشعلتها هي. وصلنا إلى حيثُ رأيتها. كانت ممدّدة على السّلالم وتمسكُ منسأتها، وقد حِرتُ بين نومها وإغمائها، لكن متى وأين وكيف، كلّها أدواتُ استفهام خالجتني، والتي لم تعد بي رغبةٌ في الإجابة عليها، لكنّها تطِنُّ في رأسي، ولا طاقة لي كي أجيب عنها، فكفاني الدراما التي أرعبتني من قبل والتي شككت في معتقداتي.

طلَبتْ منِّي نجوى أن أنادي أحد الجيران ليُساعدنا في حمل جدَّتها، لكنّني رفضتُ مستفسراً: لماذا. قلتُ لها: «ذلك لن يُجدي نفعاً، لا تحاولي أن تُدخلي أحداً آخر في هذا، الناس هنا ألسنتهم طويلة، ولا أحب أن تُروى عنكم أشياء تشيع وتتداول بين الجيران،

كما أن جدّتكِ ثقيلة كما أرى، وأيُّ محاولةٍ في حملها قد تؤدي إلى سقوطها، لذا لنحاول إيقاظها فحسب». فهمتْ ما أعنيه، ثمَّ حاولت أن توقظها، لكنّها لم تُفلح بالمناداة عليها. جرَّبتُ أنا أن أَرشَّ قطرات الماء على وجهها. رفعتُ كفّي إلى شعري أمسحُ ذهاباً وإياباً حتَّى تبلَّلت يدي، ونششتُ بأصابعي على وجه العجوز، حاولتُ مرَّةً ثانية، والمرَّة الثَّالثة وضعتُ كفِّي على معطفي الذي أصبح فشلهُ في امتصاص المياه ميزته، مسحتُ بشدَّةٍ مرَّات عدة، واجتمعت بأصابعي وراحة يدي مياه، ثمَّ نششتُ بقوَّةٍ وأنا أحرك عضلات ذراعي، بعدها استيقظت العجوز، والظاهر أنه لم يُغمَ عليها، فلا يوجد أيّ أثر لأيّ كدمة بجسدها أو مزق في ثوبها، وحتّى غطاء الرّأس لم يسقط من مكانه، وهذا يعني أنها كانت نائمة بإرادتها، ووضعيتها تلك أكّدت ذلك، فعندما رأيتها بعدما أنرتُ الأنوار، كانت جالسة على الدّرج وموليّةً كتفها اليسرى للحائط، وممسكةً منسأتها بإحكام، والّذي حيَّرني أكثر، هو سببُ نزولها، وكما يبدو من ثيابها، فهي غير عامرةٍ ولو حتّى بقطرة ماء، والمعنى أنَّها لم تخرج قط!

كان الموقف ساخراً عندما استفاقت فقالت: «صباح الخير». نظرتْ إلى وجه حفيدتها التي تدمع وابتسمت لها. وعندما نظرت إليّ شعرت بالفزع، لم تتعرّف إليّ أنا الذي ساعدتها من قبل والآن أيضاً. نستني بسرعة، ولحظتها عاكستُ الأمنيات وتمنّيتُ مرضها الذي سيجعلني أستيقظ كلَّ يومٍ أنسى فيه الفضل وأنسى الوجوه، وأنسى السُّلوَّ بغير قصد.

اعتذرتْ إليَّ نجوى، وقالت لي همساً: «حاول مسايرتها».

أخذتُ نصيحتها بغُلو، ولم أُثِر وتراً للحديث، ابتسمتُ فقط.

أصبحتُ أبتسم كثيراً، والحقُّ أني أبتسم كثيراً، فالابتسامة تعريفٌ آخر للحزن.. بل أقسى من ملامح الأسى، فالضِّدُّ دائما تعريفٌ آخر وفصيح لكلِّ شيءٍ في الوجود.

نهضتِ العجوز متثاقلة، وكانت نجوى تمسكها من ذراعها بحذر. أردتُ مسكها من ذراعها الأخرى، فأبعدت يدها عنّي. تقبَّلتُ إهانتها. قالت لها نجوى: «لا تخافي جدَّتي». استمعت لحفيدتها، وأمسكت يدي الباردة. وقفت العجوز وعلى وجهها نظرة غريبة، كأنّها تتأمل أو تتحسّس شيئاً.

سحقاً! سرى معها هي الأخرى ما يتناكف بي.

لم تنظر نحوي. حاولتُ أن أنزع يدي وأضعها على مرفقها، لكنَّها أبت تركي، بل ضغطت بقوَّة على يدي، وشعرتُ بدفئها يحتوي يدي. نظَرت نحوي هذه المرَّة وقالت: «آه هذا أنت!». في البداية لم يدركني نسيانها ولا ذاكرتها التي تآكلت، ولم تدركني عيناها التي سترسَّخُ على أيِّ عينٍ رأت شكل صورتي، ولكن تبقى ذاكرة أخرى تُخزَّن فيها المواقف، إنّها ذاكرة الجسد، خطوط يدها عرَّفت عنّي، مثل كودٍ أمني يُمرَّر فوق ماسح ليزر، فأُعطيَتْ معلوماتي عن هويّتي لها.

مكابرةٌ أنتِ يا حاسّة اللمس.

لم أتفوّه بكلمة طوال الصعود نحو شقتي، شعرت بضعف أعضائي يزيد مع حالة التوتر والإرهاق الذي أصبح متواصلاً في كلِّ حركةٍ أقوم بها، وصوتُ طقطقة الأحذية الستّة جعلني أتمنى أن أصبحَ أصمّ، رغم حفيفه الخفيف فإنّه يصدح ويدوّي في طبلتي

أذني. استشعرتُ بأن عروقي بدأت تنتفخ، وأذناي احمرّتا من الصّبر غيـر البـادي، والـذي لا يُـرى لهما والـذي أراه وحدي بعين قلبي. ومـن حيـنٍ إلـى حين، كنتُ أنفُخ صدري لأستنشـق القدر الأقصى مـن الهـواء، لأخفّـف عنّي مضخّات الألم الذي ارتفع ضغطه، فلم يَتبقَّ لي سـوى أن أصطبر أكثر حتّى أصل إلى غيهبي لأحتمي من عتبى السقم.

وصلنـا إلـى الطابـق الأخير، أردت تـرك يد العجوز من يدي، لكنَّهـا تشـدّدت ثانيـة. انتزعتهـا بقوّة فخلّفت على يـدي آثار عظام يدها الناتئة. ظلّت نجوى تمسكها مخافة أن تتهاوى، لكن العجوز انزعجت وانتزعت ذراعها من حفيدتها، وأخذت بشكل من العصبيّة منسـأتها من يد حفيدتها بحركةٍ سـريعة بيدها اليُمنى، ثمَّ انتصبت تمشي، كأنّها تُسفِّه مساعدتنا، إلا أنها كانت راضيةً شيئاً ما بوجهها الذي انقلبَ بشاشة شبه مخفيَّة. لازمتها نجوى تمشي معها المترين نحو شقتهم، أما أنا فاستدرتُ مقابلاً لهما بكتفي وظهري أفتح باب شـقتي. دخلـتِ العجوز لتسـتريح، ونجوى لم تتجـاوز عتبة الباب تراقبها وهي تذهبُ لتكمل نومها على السّرير. انتظرتُ واقفاً بإشارة من نجوى بأن أنتظرها، وعلى ما يبدو فإنّها تريد شـكري. أغلقتْ شُقَّتها، وتوجَّهت نحوي.

قالت:

– لا أعرف كيف أشكرك على ما فعلت معي.

قلت رغم أنَّ بعض الدوار كان يعتريني:

– لم أفعل شيئاً.

وأتبعتُ كلماتي بابتسامة، وشفتاي تعِبتا من التَّقوُّس.

راحـت تُحـدّق إلى مُحَيَّـاي، ونظراتها تلك أقلقتني، بدا كأنها رأت فيّ شيئاً غريباً.

قالت:

– أنت تبدو شاحباً، بشرتك تبدو كبشرة مصّاصي الدّماء!

اعتقـدتُ أنهـا كانـت تمـزح، فقد شـعرتُ بضيـق في صدري عندمـا سـمعتُ مـا قالـت، فازداد ألمـي وتفاقمت شـدّة رغبتي في إخفاء ما بي.

صرختْ صرخةً صغيرة، وقالت:

– يا إلهي أنفك ينزف!!!

شـعرتُ بصداع في رأسـي، وزاد وجودها أمامي من الصّداع. تمالكتُ نفسي فقُلت:

– هذا يحدث لي أحياناً، ليس بالشيء المهم.

كان الـدّم يسـيل مـن فتحتَـي أنفي نحو فمـي، ابتلعتُ بعضه. رفعـتُ وجهـي إلى أعلى كـي لا يتواصل النّزيف. أخرجت نجوى منديـلاً ورقيّـاً أبيـض مـن معطفها، وراحت تمسـحُ دمي. وبسـرعة أزحـتُ يدهـا عنّـي بحذر، وأخذت المنديل من يدها، ثمّ مسـحتُ لعنتـي دون أيِّ سـببٍ يُذكـر وجَّهتُـه لها لفعلي، فهـي لا تعلمُ نوع حُرقتي.

بدا عليها الهلع، أمّا أنا فبدا عليّ الأرق.

تعمَّدتُ أن أضحك، أن أظهر بشاشـة مصطنعة، كي لا تشـكّ في ما يحدث لي.

قلت:

– سيّدتي جدَّتكِ تنتظر، أعتقد أنها جائعة، اذهبي من فضلك

لمعاينتها، فهي تحتاجك.

قالت:

- حاضر سيّدي.

أضافت:

- .. لكن، هل أنت بخير؟
- ثقي بي، ليس بي شيء، إنّها حالة تأتيني من حين لآخر.
- المهم أنّه يجب أن ترتاح، يبدو لي أنك أُصبت بنزلة برد، انتظر سأجلب قرص أسبرين.

استوقفتها قائلاً:

- شكراً لك نجوى، لا تقلقي، لدي أقراص أسبرين.
- على راحتك، على أي حال، خذ قسطاً من الرّاحة، وسامحني على جرِّك في كلِّ هذا، وشكراً على كلِّ شيء، وقل لوالدتك أن تحضّر لك شراباً ساخناً، فأنت تحتاجه في هذا البرد.

لم أنطق ببنت شفة، سوى افتعال إشارات ابتسامات على وجهي.

قبل أن تدخل شقَّتها، قالت:

- أراك لاحقاً.

بادلتها بابتسامة مزمومة أُخرى، ثم دخلتُ مضجعي مكتئباً لحالتي الرَّثة، مخذولاً بجسدي الثَّقيل وبمعطفي الذي يُثقلُ كتفيّ، ومُمَسْرحٌ جداً بهرمي المبكر، الذي تشكَّل في خرفي المكتسي على كلِّ زاويةٍ، لكن لم يكن شيئاً جديداً، فقط الغصص نفسها والجرع المرّة نفسها التي آخذُها كلَّ ليلة، فقط هي جرعٌ زائدة آلمتني أكثر

من اللازم، وقلَّت في نشـوتي، وزادت من فراغي الجوفي أضعافاً مضاعفة.

دموعٌ هطلت من عينيّ بعد دخولي، ولم أُلقِ لها بالاً، فما هي إلّا فائـض المعانـاة والتوتـر لِمَا كبسـه التكرار الـذي يُقلِّده الوجع. كانت دموعي حارقة كعادتها، لكنَّ بشـرتي اليوم انكوت بها أكثر، وتدفَّأتْ بها من غشاء البرد الذي يكتسيها.

كنتُ كبئرٍ جفّ فيها الماء، وقاحلاً كتربة..

أحتاج دفئكِ أمّاه!

لم أعِ في شقتي سوى أن وجودي بها أصبح مريحاً لنفسيتي. نزعـتُ معطفـي، فشـعرتُ بخفّـة ما مع الألم نفسـه. نزعتُ حذائي وجوربيّ، ومشـيتُ حافياً. غيَّرتُ ملابسـي على مهل، وأوّل شـيءٍ فكَّرتُ فيه هو دوائي وقرص أسبرين لصداع رأسي.

وكان صحيحاً ما قالته الفتاة، فقد كنتُ أبدو شاحباً جدّاً، كأنّي أضـع مسـاحيق تجميـل. بدوت مثل الغمامـة عندما نزعت نظارتي ونظرتُ إلى المرآة مكرهاً، بدوتُ طيفاً بحق، وكانت عيناي تنبّئان بالرّعد من شدّة اللَّون الرَّمادي تحت جفنيّ، وشفتاي فقدتا لونهما وكانتا متعطّشتين للدّفـء الذي يزيل عنهما خدر الابتسامة.

كم تكون المساعدة مؤلمة، عندما تهبها ولا تأخذها.. كبرياءً فقط.

كان من المفترض أن أرتدي شيئاً فضفاضاً يُخبّئني من الوحشة التـي صنعتهـا الأمطار في جسـدي من بـرد. ارتديتُ قميصاً بكمين قصيريـن، وبنطـالاً عشـوائياً يُغطّي عورتي، والفضـل لجهاز التّدفئة الذي أسعد لأوَّلِ مرَّةٍ بتشغيله، بعد إذ نبذته في رُكنٍ منسي، لعدم

تحمّلي الحرارة المفرطة. لم أشعر بالجوع هذه المرَّة، رغم شريط التعب الذي مررت منه، وكانت بي رغبة ملحة في النّوم. مللتُ من تلك التدفئة، فأرجعتُ مصدرها إلى مكان نفيه، وارتديت ما يلتصق بلحمي، ليُضاعف حرارة جسمي الطبيعية.

لا أدري كيف وجدتُ نفسي ملقى على السرير، ساقاي سارتا بي دون أن أشعر، كانتا تُلبِّيان مقاومة رغبات التقهقر الذي أُفتكُ به نفسي. كان كلُّ عضوٍ في أجهزتي يريد النّوم، إلا أن الذاكرة التي تشبَّعت أبت أن تنام، فتركتني في حالة نومٍ نصفي، يقظاً ونائماً. فجأةً وجدتني أتفوّه بكلام لا أفقهه ولا أعي بأيِّ لغة كنت أتحدَّثه، ألغة أحلام أم لغة واقع؟ لم أكن أدري إن كنت نائماً حقّاً أم أنني أتخيّل، فعيناي كانتا شبه مفتوحتين، وعقلي كان غائباً، ولم أكن أرى سوى سقف الغرفة، فكلُّ الأضواء كانت مطفأة، ضوء عينيّ وحده مشتعل، حتّى بدا لي أنّي رأيت صورتَي والديّ، صورتَي الحلم الرَّهيب بحنيني إلى أوطاني، وإلى زمن الغياب والارتياب، وإلى الارتهاب مني ومن جشع الأيام والفصول والأقدار..

تأوُّهاتُ ألمٍ خرجت من فمي.

كفاني عذاب الروح، لا تقتلني أنت أيضاً يا جرح الجسد، أم أنّك أنت أيضاً لا تقبل هذه الصّفقة التي جعلتك تسكنُ فيَّ أنا سيّد الحزن الطّويل!

شعرتُ بوحشة اللّيل، وكان هدير الرياح يؤرجح دفةً من النافذة إياباً تارةً بزاوية، ورُجوعاً تارةً بزاوية أخرى، كأن طقساً ما يُفتعل في شقتي التي خصَّصت غرفة للعلاج والمرض في آخرها.

لم تعد بي قدرةٌ على الصبر أكثر على الضّوضاء التي تُصدرها

الدّفة، فأخرجتُ نفسي من حمّام العرق والهلوسات التي تزرعها خلايا الضّعف. صفعت وجهي بكلتا يديّ، ولكنَّ رهبة الصُّور الضّبابية لم تُزل. تكوَّرتُ تحت لحافي حتَّى لم يعد لي أثر وجود سوى داخلها، وآخر دمعة بكاء شحيحة ذرفتها في الداخل. صفعتُ نفسي مرّةً أخرى، وأزلتُ اللِّحاف مقاوماً لهفة النّوم. أشعلتُ المصباح بقربي وأنا مغمض العينين، فتحتهما، ونسيت بعد فتحهما أنني كنت أريد النّوم، فقد التهمني جوع الكتابة. قمت وكان جسدي يقاوم حمقي، عققت تحذيرات صحتي، وذهبتُ أعرج نحو فصيلة الخشب أُجرِّبُ طلقات رصاص. أصبحت الجمل التي أخُطُّها تصيب الأهداف ولا تُخطئ، أصبحَتْ كفعل خلاصٍ أُهدَمُ به. ظننتُ أنني سأتوازن عندما أتوه في الرُّؤى التي أطمع في تبيانها، أنّني سأرتوي بعدما يجفُّ نهري لأفرح بالجفاف الذي وُلدتُ لأجله، أنّني سأعيد تشكيل الهرم الذي هُدم بحوادث الذّكرى العابرة، أنني سأجدُ كنزي الذي ضاع في الأعماق إثر عاصفة مطرية أفقدتني وعيي، فتركتُهُ مخافة غرقي معه، وأنني سأرقى فوق ضعفي بقوَّة الحرف الذي يجعلني ملكاً وعبداً.. لكن لا شيء من ذلك حدث، هزمني الواقع، إذ تهاويتُ من سفح ذاكرة الشَّتات، وتعمّقت جراحي أكثر، وغبنت قلبي بمفاوضات فاشلة، وزادت الهزائم وتوالت كيفما شاءت، مُنهالةً عليّ بخيباتٍ أخرى.

لم أقدر على المواصلة. حملتُ الممحاة لأزيل خطيئتي التي لن تكُفَّ عن تعذيبي في كلِّ مواجهة مباشرة؛ عندما كنت أمحي بقوّة، تمزّقت الورقة، عندها أدركت أمراً، أدركتُ أنَّ محاولة محو الماضي هو تحريفٌ بحد ذاته، ولن يُجدي شيئاً غير تمزيق

حاضري، وتعفين مستقبلي. وعندما تمزّقت الورقة، أحسستُ أن ما قد وقع، كان فقط عقوبة لي على مسح صِدقي الذي انطفأ على الورق.

لم أجد ما أفعله حينها سوى التخلص من جهدي، فكَّرتُ في أن أحرق الورق، أو أرمي بالكلمات في سلّة المهملات، فسيكون محوها جريمة لا غير.. لذا فلتُحرق لتُحوَّلَ إلى دخان يعبره الريح ويغادر إلى شخص غيري أو يبقى موجوداً على شكل ذرّات غاز، يتنفَّسني النّاس فأُقرأ في ذات تنفس. أو أُهمل في كرةٍ ورقية، فأُغادر من حاويةٍ إلى حاوية، من مصنع إلى مصنع، ويُعاد تشكيلي ورقاً آخر، وأُحملُ من يدٍ إلى يد، وأُبعث من هنا إلى هناك.. إلى هناك، فأبقى خفيّاً كما شاء لي أن أكون، مُشتَّت، لكن.. حيٌّ بأكثر من طريقة.

بعض الأوراق كوَّمتها ورميتها في سلَّة المهملات، وأخرى جعلتها رماداً، لأُوزَّعَ بالطريقتين، غازات وأشكالاً.

تذكَّرت أنّني لم أثمل بقهوتي، ولا أدري كيف تشوَّشتُ وتلخبطَتْ عليَّ الأوقات، فنسيت طعم المرارة الذي لا أعيش إلا برتوشاته التي تهُزُّ نشوتي، وتُبطلُ إرهاقاتي الدَّورية. إرادتي أن أحايد العادة، وأقلبَ الأوقات، وأجعل النّهار مساءً بقهوةٍ ترتشفني.

حضَّرتُ الفنجان، وصببتُ في كأسين، واحدة للّحظة، والأخرى لإثارة اللَّحظة ببرودتها الزَّائدة على التي قبلها.

وقد غدرتني الكتابة هذا المساء، أفاضتني أكثر مِمَّا جمعتني.

حملتُ كأسي ورحتُ أتجوَّلُ في أرجاء المنزل، فلعلّ مفاصلي وذهني ينقشر عنهما الصّدأ. تجوّلتُ أبحث عن مكانٍ ملائم

للجلوس لتصفية الذّهن، والحق أنّ كلَّ ركن في محيطي يصلح لفرز نفسي عن نفسي، لن أقول إن الوحدة موجودة في كلِّ شيءٍ يحيط بي، بل أكثر من ذلك، في الحقيقة لست وحيداً أيضاً، الوحدة أرقى من أن تنتسب إليّ، أنا فقط شيء انبعث من رماد الوحدة، إنسان خيّم داخله الصّمتُ الطّويل.. ومكاني هو الآخر، حتَّى لو تربَّعتُ في مطبخي، سأجد فسحة من الرّاحة المضطربة، وكلُّ ركنٍ مثله سيُعادله في اضطرابه.. إلا غرفتي التي تزيد بمعدّلاتٍ أكثر قسوة، فهذه الأخيرة، ليست كباقي الأماكن، إنّها مثل المقبرة، فيها الأموات أكثر من الأحياء، أشخاصٌ كلُّهم دارت على أعناقهم شَفرة الموت، وأنوفهم استنشقت رائحة الرَّحيل، كلُّهم منقوشون على كتب في رفوفي الكبيرة، التي تسلَّطت على غرفتي وأخذت الجزء الكبير فيها. وأكثرهم شهرةً هو ذلك الغاضب «نيتشه»، ذلك المارد الذي غلغل فيَّ الرفض، وغرس نزعته داخلي، وصحّح نظري بقوانين العجز الذي يحقنه المرض ولصكوك الذّكرى الغائرة، فهو الآخر عاش سيرةً مرضية. كان يقول: «في حالة المرض يغدو الإنسان عاجزاً عن التخلص من أيِّ شيء؛ عاجزاً عن الحسم في أيِّ شيء وعاجزاً عن ردِّ أيِّ شيء؛ كل شيءٍ يغدو جارحاً»، وزاد كشفي عندما قال: «تتقارب الأشياء مع الإنسان بصفةٍ وقحة مزعجة حدَّ التلاصق؛ الأحداث تصيب في العمق، والذِّكرى تصبح جرحاً مُتقيِّحاً».

وكنت فعلاً مجروحاً من سنوات العسرة، ومقروحاً بماضٍ وجراحي تقيَّحت حدّ عدم البرء، ولم تتبرَّأ منّي أيّ ذكرى، كلها جاءت شاهدةً على أفعالي تحاكمني كقاضٍ يقبلُ الرَّشوة، وأنا أيضاً كنتُ مع كلِّ ذكرى في يوم محاكمتي، راضياً بحكمي، فقد آل إلى

مـا تطلَّعـت إليـه نواياي الخفيَّـة التي تؤول كلّها إلى رغبة في نفس سقراط قضاها.

ارتشفت نصف الكأس وأنا أجول هنا وهناك، تارةً في الردهة، وتارةً أخرى في الصّالون، وقد تيقَّظَ ذهني بشكلٍ تدريجي، وأزهرت رائحة البنِّ ما حولي.

محيطـي مرتَّـبٌ بعنايـة، الأواني فـي مكانها وتلمـع بنظافتها، أزواج الأحذيـة مصطفّـةٌ كالتّلاميذ، وآخر الأمر.. أنَّ شـبح الوحدة يجول في كلِّ بقعةٍ في شقَّتي بكل ترتيبٍ وحصانة من أيِّ إهمال، فعندمـا يعيـش المـرءُ وحده، يجب عليـه أن يكون نظيفاً ومرتَّباً في كلِّ شـيء، حتَّى في حزنه، فيجب على الحزن أن يكون مثاليّاً هو الآخر، لا تنقصه ناقصة. وأنا الآخر، لا أريد أن أعيش جحيماً ثانياً غير الذي يحيا في داخلي، تكفي الجثث التي تسـكنُ في ذاكرتي، ولا أريد أن أغدو جثّة عفنة تتحرّك في جحيمٍ غير منتظم.

أخذتُ مكاني أخيراً، حملت كرسيّاً ووضعته في الصالون أمام النافذة، وكلُّ انتباهي علَّقته في عينيّ أحدّق إلى السماء التي تظهر علـى شـكل مربّـعٍ أزرق من نافذتـي، تغيِّرُ معالمهـا قطرات المطر التي تلمع بغزارة شـبه مرئية. سـبحتُ في السُّـحب بعينيّ، خيالي راح يشـكِّل مجسَّـمات وأشكالاً بالغيوم الرمادية، التي تظهر مبهمة بغياب نور الشَمس وحضور نور القمر، وتشكَّلت عبثاً وجوهٌ غريبة مكدَّرة تُشبهني كرباً.

بعـد لحظـات مـن التَّمعّن، صادفت عيناي غيمةً مُضاءة بضوء القمر وتظهر بلَّورية اللّون، غيمة أراحت قلبي بكلمة (الله) منحوتةً في السّـماء وشـامخةً بعرضها وطولها. حينها وضعت كأسـي على

الأرض، ورفعتُ كفيّ لأدعو لوجهين تحت التُّراب، وأتضرَّعُ إلى الله عسى أن يستجيب لطلبٍ أنانيٍّ لي في تحقيق طلبٍ.. تمقُتني فيه الحياة داخلي.

خوت كأسي، وكنت لا أزال أنظر بعطش صغيرٍ يرى ألعاباً نارية لأول مرّة. تجرَّدتُ من سودائي أثناء تعلُّقي، ولم يدم ذلك طويلاً، فسرعان ما انتبهتُ لنكهتها التي خفَّت حدَّتها وهي تُداعب لساني. قمت من الكرسي، وتوجّهتُ إلى النّافذة لأشبعَ بالرؤية كاملة، وأجعلها كحلقة انتظار بعدما أرجع بالكأس الأخرى. حدّقت إلى السماء التي تشبه البحر في هدوئه وغضبه، وأُراقب القمر الذي يُرى لي أنّه يتغيَّرُ من موضعٍ إلى آخر متحرّكاً مع الغيوم، يتخبّأ وراءها تارةً ليُرى بتلابيب من ضوئه، ويتجرّد منها تارةً ليُرى واضحاً بازغاً وبدراً يلغي كل الأضواء.

رغم الجمود البارد لرشفات القهوة، فإني شعرتُ بالحرارة تُداعب جسمي، وعيائي قد تفاقم، والظّاهر أنّي أُصبتُ بالحمَّى، وقلمي لم يساندني اليوم على تجاهل الحمّى، وعلى تغافل هذا الكدح المتواصل. شربتُ كأسي في جرعتين مُرَّتين، ومزاجي قد تعكَّر أكثر، وكأنَّ كلَّ الذي يحيط بي ينفر منّي ويُكدرني بمثالية اصطفافه. أقفلتُ النافذة فقد دخل بعض المطر إلى الأرضية، ثمَّ عُدتُ إلى غرفتي وفتحتُ النافذة. قعدتُ على الكرسي حيثُ أعتكف الكتابة شادّاً شعري وحانياً رأسي مغمض الجفنين. فَوْرَ أخذي مكاني وتجانس الحمّى معي، دخلت ريحٌ وطيَّرت أوراقي عن المكتب، وانتعشتُ أنا كذلك ولم أغضب، ولم أقم لأجمعها، فحالتها المبعثرة هي بعثرتي، وحروف العربيّة المشتّتة أخذت أركاناً

حولـي تطوِّقنـي. تلقّـف نظري جملة قصيـرة: «ما مضى ذهب»، لم يُلهمني المعنى، بل وجدتُ نفسي عسيراً عندما اخترتُ لغة الضَّاد حرفـةً، هـذه اللُّغـة الصَّعبة في كتابتهـا وفهمها، وكلُّ المجازات لن تقدر أن تكفي في إغناء قارئها وكاتبها، وبمجرَّد دخولك إليها، لن تخرُج منها إلا مجلوداً بأسواطها التي تشحن بالعروبة.

الرّيح التي أقبلت علي، كانت ترمز بإشارةٍ لأن أنهض وأغادر، لأعالَجَ بالنّسيان المؤقَّت، فالنَّومُ دائماً كان علاجاً نافعاً.

ذهبتُ إلى سريري كمُحارب عاد من معركة كان فيها هو الناجي الوحيد، جريحاً ومنتصراً بخيبة أمل، واستقبلته أرضه بحرارة وتصفيق لم يَرضَ به، بسبب انتصاره هازماً نفسه فقط بتركه لحياته هناك.

تقلّبتُ في المرّة الأولى، ولم تأتني سنة نوم، ولم يهدأ عقلي من مُراجعة غفوات الذَّاكرة، فأشعلتُ مُشغِّل السِّيدي بجهاز تحكُّمٍ عن بعد، ضغطةُ زرٍّ تركت الآيات تُغلِّفُ المكان كي تجعله مريحاً، وكي أُلتحفَ أنا بكلمِ الله عسى أن أنام.

III

استيقظت متأخِّراً. أعضائي كانت منهكة جدّاً، وعظامي كانت كالمكسـورة، وكان انثنـاء المفاصـل يخزنـي. والشُّـعاع المسـتطيل الـذي يأتـي من ثقـب النافذة أذابني كقطعة ثلـج، وصهرني كقطعة بلاستيك. كانت ملامحي مكابرة بالمرارة ومتشعّبة بوحي النّسيان، وكل احتكاك مع الغطاء كان كحركةٍ أضرم بها النار في جسدي.

اصطبرت على كل شيء وقمت جاهداً.

كان الجوُّ بارداً، وكنتُ وحدي أشتعل بشرارة الأمس، مغطّى بِكِلْسِ النوم المنصهر على وجهي، وعمش العياء الذي يغشِي عينيّ.

نظرت إلى ساعة الحائط. لم أحتكم إلى عقربي السّاعة فظننتها العاشـرة فـي أوَّل رؤيـة، لكنهـا كانت الحادية عشـرة. لا يهم، فقد غبتُ عن العمل.

كتبتُ ملاحظة على ورقة، كي تذكِّرني بالاتصال بسعد لأخبره بأنّي لن آتي اليوم وسآخذ بضعة أيام راحة بسبب المرض. رميتُ الورقة فوق طاولة صغيرة في زاوية الغرفة وُضعت عليها مزهرية. انتابتني دوخة، فقرفصتُ على الأرض. وضعت يديّ على رأسـي، أغمضت عينيّ، لم يكن يتراءى لي سوى البياض غير العادي الذي يكتسي سواد الانغلاق. شعرتُ بتحسُّنٍ بعد مدَّة.

تشنَّجت عضلات فخذيّ، ولم أستطع النهوض. جلست خائراً وطريحاً على الأرض مُولّياً ظهري إلى الحائط الذي بقُربي، وكانت زاويةً تلك التي وضعتُ عليها كاهلي، فقسمت ظهري طولاً. لم أتحمّل. وقفت بصعوبة بعد أنِ ارتخت عضلاتي من تقلُّصها.

كان أنفي مسدوداً بمخاط الحمّى. لم أطق رائحة النوم والمرض التي تحيطني، فقد أشعرتني بالتَّقزُّز من نفسي. فتحتُ قنّينة الغاز، وتوجّهت دون النّظر إلى شيء، حاملاً أدوات الحمّام كي آخذ حمّاماً أتطهر به من طفيليات الحمّى.

ابتعدت عنّي روائح الفم، وانفتحت فتحتا أنفي بعد طهارتي، وانحلّت مسام جسدي تستشعر الهواء، وارتوت شعيرات بدني، فاستفقتُ كما يجب. صفّفتُ شعري بعد خروجي، وألقيتُ بالملابس التي اجتمعت بها الحمّى في سلة الغسيل.

مسحت نظّارتي من عتاب الأمس لأستقبل لون اليوم، وجدتُ شطائري تنتظرني، سخّنتها في المكرويف ووضعتها في صحن، وذهبتُ بي وبه نحو موضع الأريكة المقابلة للتلفاز. أثار انتباهي هاتفي الذي يومض بالأزرق، شخص ما كان يتصل بي؛ سِتُّ اتّصالات من سعد، وفي الغالب اتصالاته كانت ليسألني عن غيابي. أرجعتُ الهاتف حيث كان موضوعاً قرب موضع التلفاز، ولم أدر هذا الأخير، وعدتُ أدراجي إلى الكنبة لأوازن غلبة الجوع بالفطور.

أشعلتُ حاسوبي. شغّلتُ مقطوعات موسيقية لشوبان وباخ وتشيكوفسكي، عسى نقرات شوبان تُنير المنزل، وكمان تشيكوفسكي الحزين يحرِّك الأثاث النائم، وتشعِل الأوتار لحن

استيقاظي المتأخِّر. أزعجتني طرقات الإصلاح الصّادرة من مشروع بناء بالقرب من العمارة، وتلك الآلات الصّاخبة بطرقها الرتيب كانت تشتت انتباهي. ذلك الاختلاط بين هدوء الموسيقى وصخب الآلات أزعجني. أطفأت الحاسوب، وحملتُ هاتفي الذّكي متجاهلاً الاتصال بسعد. وضعت سمّاعات الأذن لأتفرّد بالمقطوعات نفسها وحدي حتّى ينتهي عمّال البناء.

أعددت الشاي، وجلست أفتتح الصّباح الذي تنفّس قبلي بساعات. على حين غرّة انتابتني مسحة الحزن مما كنتُ أسمع، فقد كانت مقطوعة دخيلة على المجموعة التي حمّلتها من الحاسوب إلى الهاتف، كانت مقطوعة للعازف العبقري ((آدم هيرست))، الذي هزّتني جرات مقطوعته، فهو عازف تشيلو بعد كلّ شيء. مقطوعته تلك التي تهزّ كياني وتمرّ على أذني كنداء لجفاف البكاء الذي كنتُ أتخيّله، تزأر النّوتات في أذني فتجعلني مسلوباً كشِعرٍ تبرّأ منه قائله. اسم المقطوعة هو: «الباب الخفي/ Hidden Door».

أين هذا الباب يا صديقي آدم.. أين؟ وهل يوجد حقّاً، لأنني أريد أن أخفي ما بي فيه، وأنبذها حتّى أريدها إلى أجل آخر، أن أسترها من القيل والقال، فقط قل لي، هل هذا الباب موجودٌ بالفعل؟

وحتّى لو وُجد فإني لا أحمل مفاتيح لأفتحه كما يحمله باقي البشر؛ وهذا الضّريح الممنوع عليّ من الزّيارة، لن يكون إلا قلبي، فلا أملك مفاتيح لهذه العضلة، وقد جرّبت كلَّ المفاتيح الكونيّة، لكنّها لم تُفلح.

كيف أدخل إليك يا قلب ومفتاح الحب ضاع منّي؟ كيف

أزف إليـك خبـر قدومـي وأنا لا أفهم معنى السّـعادة؟ كيف أنشـئ طريقـي إليـك ومادّة البناء مجهولة عندي؟ وكيف أصعد إليك وقد أكل ران الوجع مفاصلي؟ ثمّ كيف أزيل عنك أغلال العادة الحزينة فتصير مبتهجاً؟ أيُّ جوابٍ سـيُمَكِّنني من إيقاظك بعد أن جمّدتك من الخوف؟!

صدّقنـي يـا قلـب، إنّ الـذي يرعبنـي هو تكرار حادثة سـادية تفتعلها بي الأقدار بشـراكة مع الدنيا. يا قلب جعلتك سـاخراً من الحياة هكذا، لا لأتخلّص منك، بل كي لا أتجرّد منك. نعم سوف نبتسم، لكن ليس هنا، فقط اشفع لي عند ربي يومئذٍ...

ولا تسـامحيني يـا لعنـة العاطفـة، فهـذا أفضل لـك، فما أكثر الموجوعيـن منـكِ. أوجعتنـي يومـاً، ولا أحبّذ الآن معـاودة الكرّة، حتّى لو فعلتِ خارقة قاموس الجفاء، فلن تصيبي منّي شيئاً، ستأتين بوحيك وتنشفين وتنسلين أمام أقدام الأيام المحدودة التي تبقّت.

كانت سـاعة الحائط تشـير إلى الثّانية عشـرة وخمس عشـرة دقيقة. أزلت السّماعات، صفت أُذناي، فقد توقف ضجيج الأشغال. تركت هاتفي وعلَّقت مهاتفة سعد في ذهني لأهاتفه بعد أن أصلِّي صلاتي المؤخّرة.

هاتفـتُ سـعداً وأخبرتـه أنّني متعـب ولن آتي، وطلبت منه أن يصلنـي بالمديـر لأشـرح له حالتي. ربطنـي بالمدير، وأعربتُ له ما قد جرى لي، وأنّه ليس بي القدرة على القدوم، وأنّي أحتاج أياماً لأرتـاح. قبـل أن يتركنـي، كلّفني بمهمة مراجعة سـجلات الشّـهر، وأنّه سيرسل لي ما يُتطلّب في بريدي الإلكتروني. تمنّى لي الشفاء العاجل، وأن أبلِّغ سلامه لجدّي. أنهيت المكالمة معه، وتحدّثت أنا

وسعد لوقتٍ قصير، وتمنّى لي الشفاء هو الآخر، ثمّ انتهى حديثنا بعد أن قطع الاتّصال.

أيّ شفاءٍ يتمنّى لي هؤلاء!

ولم يبقَ سوى أن أتابع يومي الذي يتشابه مع الأيّام الأخرى، التي تنقضي وأتساءل دائماً عمّا سيملأ نقصاني بعدها. إلّا أنّ هذا اليوم كان مغايراً، فقد أخلفت فيه العمل بسبب مرضٍ مؤقّت طفا كقطعة فلّين في بحيرة مرضي المزمن، فزاد الطّين عكرة، ومرّغ صفو ما تؤول إليه حياتي بتغيير آخر طفيف.

IV

مـرّت خمسـة أيّـام، ولا شـيء قـد تغيّر، سـوى أننـي حلقتُ شـعري، وخفّفتُ من شـاربي ولحيتي، وتناسـب الاثنان. أصبحتُ أبدو مختلفاً عن السّابق في الواجهة، لكنّي نفسه السّابق في جوفها. وقد قضيتُ الأيّام الخمسة في الفعل الوحيد الذي يرهقني، ترهقني الكتابة لكنّني مرهقٌ قليلاً مقارنةً بما كنتُ عليه.

رشحَ المرض عنّي، والظّاهر أنّ الحمّى كانت مستضافةً فقط، ولتكون عابرةً وتغادر، فلم أصب بحمّى منذ زمن. تسببت الحمّى لي بمشاكل وخيمة قلقت منها لسرطاني، فقد نقصت مناعتي أكثر، وزادت الأدوية التي أكرهها. لم يشكّل ذلك فرقاً كبيراً، فما دمت خارجاً معطوباً فهذا أفضل، لأن الخارج سيُشفى يوماً. الذي أرهب منه، هو أنّ تضاعفه سيربك معافاتي الدّاخلية التي تزيد ولا تنقص بفعله، وهذا يزيد من رهبتي مما قاله لي الطّبيب ذات أمسية. لكن الأمور مرَّت بخير في كل الأحوال، رغم قلقي من نتائج الفحوصات التي أخبرني بها الطبيب، وقد نصحني بأن أبتعد عن شرب القهوة وعن الأعمال التي تزيد حدَّة قلقي. استطعت الامتناع عن الكافيين بصعوبة ريثما تستقرّ حالتي.

أفكّـر فـي زيارة جدّي، وفـي أن أجعل حضوري ببيت خالتي

مفاجـأة، رغبـةً فـي أن يفرح بـي بعد غيابي الطّويـل، وكي يعاتبني بعتابه الجميل، ويقبّلني على جبيني ككلّ مرّة معاكسةً لقوى السنين التي تكبرني أضعافاً.

عندما أذهب للزّيارة، يسعد كما يسعد الأب بتخرُّج ابنه، وكم نأخـذ مـن الوقـت في الحديث! هو عضلتـي في الحديث المطوَّل، حتّى أنّ تلك الخالة، أصبحت تحترم وجودي معهم، وترخي لؤمها أكثر، لأنني أعرف كيف أتعامل مع شيخ البيت الذي أصبح الكلُّ يجد صعوبات في الحديث معه، للعصبيّة التي تنشدها السنون التي تكدَّسـت في جسـده، والظّاهر أن نفورهم من طلباته المتكاثرة هو مـا جعلهـم شـديدي العجـز في تلبيتها، ولهذا فقـد أصبحتُ الأداة التي تجعله يشـعر بالرّضى، كما يشـعرني هو بالبر، وبخصلة شـعر أمي، ولمستها التي مضت، أتعمّد أن أحادثه أكثر، فقط لسماع رنّتها وجـزءٍ مـن حضورهـا. آخر مرّة زرته فيهـا كانت في عيد الأضحى الماضـي، وقـد هيمنـت أنـا وهـو على الـدّور العلـوي حيث كنت أسـكن، وجـلُّ مـا كنا نتحدّث عنه يخصُّ العمل وأحوال الشـركة، أما البقية فقد كان حديث أصدقاء لم يرَ بعضهم بعضاً منذ زمن.

ما زِلنا في منتصف فبراير، وأفضّل أن أزوره في أواخر مارس عقـب عـرس أحـد أقرباء زوج خالتي. لم أقدر على الرّفض عندما اتّصل بي زوجها في الشهر السّابق ليُخبرني. كنت متقبّلاً رغم عدم اجتذابـي للحفـلات والأعـراس، فلم يكن زوجها شـخصاً سـأقف ضدَّ دعوته، وكان اعتناؤه بجدّي حاجزاً أزال عنّي الرّفض، فقبلتُ الدّعوة على مضض. لن يكون الأمر سيئاً، لأنّني سأتهرّب من ذلك الصّخب الذي سيقام في دركِ الوقت بصحبة جدِّي، عصفوران في

ليلة واحدة ثمَّ أُغادر.

وها هو ذا يوم السبت يُغادر كسابقيه، لأستقبل الأحد الذي تمقته غريزة الكره المدفونة في ذكرى والدي. لا أرتاح لمدته الزمنية، أخاف الخيانة في أي لحظة، فساعاته قدريّة، فهو الأول في الأسبوع. سخريةٌ أن يكون الأحد في المقدِّمة وهو يوم عطلة، كأن الإنسان جعله أضحية لوحدته، كأنّه سوء حظ، ويُفضَّل ارتقاب ساعاته وهي تمرُّ على مهل في تجنُّب عزلته عن باقي الأيام الأخرى.

أكان يجب عليَّ أن أحبَّ هذا اليوم بدلاً من مقته؟

ربّما!

إلّا أنّي أكرهه لأن جميع البدايات التي حيكت بي حدثت فيه، وهو يوم ولادتي الثّانية، ولا شكّ أنّي أحملُ منه نبذةً ما. سحقاً..!، أكره أن أصبح يوم عطلة، مراقبة الوقت وهو يمر زاحفاً، تجعلني مائعاً. أحاول دائماً أن أحقنه بالمغادرة، أذهب إلى سعد، أو أحمل سيّارتي لأزور البحر.

لكن مهما كنت أفعل، يصنع بي ما يشاء في مدته، وكلُّ أفعالي تصدر عنه، فهو يُعطي تأشيرة الحرية، وأنا أكره تلك الحرية أكثر.

اسقُطي عنّي يا حرية الأحد!

الفَصْلُ الثَالِث

I

انتقمتُ من الأحد الليلة الماضية، بفعل أشياء غبيَّة؛ قلّمتُ أظافري، أخرجتُ القمامة، ولولا المرض لخرجتُ وعدتُ في منتصف اللّيل لأنتهي منه سريعاً. شرّدتُ ليله بلعبة فيديو في البلايستيشن، وقراءة أشياء مسليّة كالجرائد، قرأت النكات في آخر صفحاتها، وعن اعتقال مجرمين وتفكيك خلايا إرهابية في مدن مجاورة. ومثل أيِّ قارئ يقرأ للمرة الثانية في حياته جريدة، لم تهمّني حروب الأديان والمجازر التي يكذب فيها بعضهم ويُنافق فيها بعضهم الآخر، ولم يستجدِ جني رأي التّعبير السّياسي بنصرة نظام ومعارضة آخر، لأنّي أسمع وأسمع عن تغيرات ستطرأ، وفي الأخير لا يتغيّر شيء، ويبقى المواطن هو هو.

تأمّلت، قبل مغادرته لأنام، حيله الخبيثة التي كانت مثل كواليس مسرحية حُذفت، لشدّةِ عدم مماثلة السّيناريو لعُهرها الذي يُنافي نواميس الاستقامة لديّ، وقدِرتُ أن أمحو ذاكرتي منه بالنوم أملاً ضعيفاً في استقبال اليوم الذي يليه.

* * *

متعباً كالعادة استيقظت، مُجهداً بحُثالة الأمس وخوارجه. أَفقتُ في موعدي المعهود. قمت بأموري الاعتيادية في كلّ صباح.

بعد أنِ اكتملت هيئة صباحي بمثاليتها، أرسلتُ في السّابعة وعشرين دقيقة رسالةً إلى سعد أُخبرهُ فيها بأنّي سأَقْدُمُ اليوم. جهّزتُ نفسي بهندمة العمل المعتادة، ونسختُ العمل الذي كلّفتُ به من قِبلِ المدير الذي سيسعد جدّاً بما قمت به من إضافات.

اقتربت التّاسعة. أنهيتُ ما تبقّى من كأس الشّاي المؤقت، والتي سيطول عناقي لها على ما أعتقد، إلى حين عودة قهوتي لتعيد صقل الأثر في عروقي بنشوتها المركّزة. عندما سألتُ الطبيب عن متى يُمكنني العودة إلى شربها، لم يفدني سوى بجملةٍ قصيرة، قال لي: «أنا لا أتوقّع الأمور، ولكنّك ستعرف متى»، كأنّه جعل خيارها مفتوحاً في أيّ وقت، لم أعرف حقّاً ما كان يعنيه، ولكنَّ كلامه كان فيه نبوءة ما، وأنّ عودتها ستكون في زمان مُحدّد يتناسب مع رغبة تضاؤل مرضي.

وضعتُ المفاتيح في جيبي، وأغلقتُ أزرار معطفي ثم خرجت. قُدتُ سيارتي في طريقي الاعتيادي. بدت لي الدُّنيا غريبة بعض الشّيء. ستّة أيام فقط غرّبتني عن الطّريق الذي كنتُ أُعبّده كلّ يومٍ بالعجلات، شعرتُ كأنّني زائرٌ للمرة الأولى، وكأنَّ هذا اليوم هو أول أيام عملي. عَمتني الملصقات الجانبيّة.. وعاتبني الضّوء الأحمر على غيابي.. وخضخضتني مطبات.. وصرخ في وجهي سائق أجرة غاضب.. وشعرتُ أن حزام الأمان يشدُّني جدّاً، وكان معدِّلُ السرعة ينزلق من يدي من حين إلى حين.. وكان المقود يُقاوم ويستسلم لوجهتي. شعرتُ بأنّ كلَّ قطعة غيار في سيارتي تشكو من غيابي، حتّى باب العمارة الذي دلفته سابقاً قد أسمع صريراً لم يُسمع من قبل!

ما بِكِ يا مدينتي، وما بكِ يا أشيائي، هل غياب الموجوع أشعركم بالحنين لوُجوده، فرحّبتم به معاكسةً؟

ركنتُ سيّارتي، ثمَّ توجهتُ نحو الباب الزُّجاجي حيث يدخل الموظّفون. عندما ولجت، استوقفني حارس الأمن، أخبرني بأنّ باب الزّبناء من الجهة الأخرى، وأنّ الباب الذي دخلتُ منه خاصٌّ بالموظّفين فقط.

تغيّر الحارس أيضاً! هل هذا من فعلك أيضاً يا خربة البيضاء؟

أعربتُ له بأنّني موظّف هنا، وأريته بطاقة عملي التي كنت أضعها داخل جيب سترتي، ولم يُصدِّقني. رأيتُ سعداً الذي كان في الجوار، ناديته ليشرح للرجل. أتى سعد يُعانقني على سلامة عودتي، وأخبر الحارس في حديثٍ فردي بهويتي، وبدا الهلع على الحارس عندما علم بأنّني حفيد الرّئيس السّابق، واعتذر مني. لم يبدر منّي أي شيء من القلق على استيقافه لي، فقد كان يؤدّي عمله فحسب. ودَّعتُ الحارس مُسالماً قائلاً: «كنتَ تقوم بعملك يا صديقي ليس إلّا».

كنتُ أوَّلَ الواصلين وسعد بعدي، وجنّبني ذاك أحاديث مع زملاء العمل.

أمشي أنا وسعد جنباً لجنب.

قلتُ له:

- هل كل شيء على ما يرام، أَهناك شيءٌ جديد يجبُ أن أعلمه؟

- كلُّ شيء تحت السّيطرة!

صافحته، وافترقنا بمفترق الطابق، هو يكمل مسيره ليأخذ

المصعد، وأنا أصعد السّلالم إلى فوق. حدّقتُ إلى اسمي المكتوب على الباب للحظات «M.NADIR». تعجبني حروفي الفرنسـية وما فيهـا مـن تضليـل، لا تُنـذر بفكرة إذا ما قرأها شـخصٌ لا يعرفني، سـيقرأها إمّـا «نذيـر/ ناظر/ نظيـر...». كم تكـون اللّغات الأخرى لطيفة في تبديل المعنى وتحريفه، تُخفي الأسرار عن الذي يجهلنا، فمعرفة الأسماء تؤدّي عادةً إلى معرفة الأشياء.

فتحـتُ البـاب، ظننـتُ أنّنـي سـأجد المـكان مُكتظّـاً بالغبار، وشـاحباً من جفاف حضوري الذي اعتملته بالغياب، واعتقدتُ أنَّ نبتتي الخضراء سـتذبل لِشُـحِّ السّـقي، وأن النّوافذ سـتكون مغلقةً كما تركتها.. إلّا أني فوجئت، وجدتها مليئة بالحياة؛ نبتتي مرتويّة، وتيّارٌ هوائي يروح في أوراقٍ فوق المكتب، وكان المكان منتعشـاً برائحـة عطـرٍ سـبق أن مـرّ علـى أنفي، ظننتُ أنّـي دخلتُ المكتب الخطأ للحظات!

شيءٌ ما غريب في هذا اليوم!

حوقلـتُ فـي المـكان جيّداً، أُنقِّبُ عن دليل يختصر الأحداث المفاجئـة والجوَّ الـذي لـم آلفـه. وضعتُ حقيبة يدي فوق سـطح المكتب. حاولتُ أن أتعرَّف إلى ما حدث، فعلاقتي وطيدة بالمكان، وكلُّ الأشـياء تعرفنـي وأعرفهـا جيّـداً. لفتَ انتباهي شـيء، سـطح المكتب كان ممسـوحاً بعناية، وليس من عادتي أن أُطهِّره بمُطهِّر، كما أنَّ دهان خشـبه البنيِّ القاتم يبدو لامعاً كحبّة شـكولاتة ذائبة. جلسـتُ على كرسـيّ المكتب، وتشاكلتُ بين نفسي والمقعد! ربّما أنا الذي تغيّر جسدي فلم يتلاءم معي، أو أنَّ معياره تَغيَّر ليُناسب شخصاً آخر غيري. وضعتُ مرفقيّ على المكتب ورادفت يداً على

يـد، ثـم وضعـتُ يدي عليهما، ورحتُ أُفكِّر في ما يحدث من هذا الصّباح. بدأتُ أشكُّ في أنّ هذا المكان إمّا أنّه أصبح ينفرني لغيابي وإما أنّه يرحّب بي كما رحّبت بي الأشياء الأخرى معاكسة.

لم يتبقّ سوى تفسير وحيد للمفاجأة، الظّاهر أنَّ أحداً ما عمل هنا في غيابي مؤقَّتاً. حلّقتُ بنظري أسترجع خارطة المكان؛ خزانة السّجلات الرّمادية على اليمين، صورةٌ كبيرة للملك محمد السّادس معلّقـةٌ علـى الجـدار الـذي خلفـي، النّافـذة العريضة على اليسـار، السّـتائر الحمر الفاتحة، معدن الألمنيوم الذي يطوّق طول وعرض النافذة التي تطلُّ على نخلةٍ طويلةٍ بشـارع ممتد لا يرتاح من وقع الأقدام وحشـرجة العجلات، السّـقف الأبيض الذي تتوسّـطه لمبة مُزخرفة بزينة تُحيطها تبدو كثُريّة صغيرة.

أدنيتُ نظري إلى المكتب، لم ينقص منديل ورقي أو زاد في علبة المحارم الورقية الخضراء. كان كلُّ شيء في مكانه كما تركته، الأقلام في العلبة الأسطوانية، وصورة صغيرة لوالدي ووالدتي في إطار أضعه فوق المكتب، وعلم المغرب الصّغير في الركن.

اكتفيتُ من إعادة روحي إلى المكان، لكنّني نسيتُ شيئاً، لم أنظر إلى سـلّة المهملات. حملتُ السـلّة الصّغيرة، وعدتُ أجلس فـي مكانـي. حملتُ بضعة أوراق مُنكمشـة وفتحتهـا، كان أغلبيتها يعود لي وحدي كنت نسـختها وتخلّصتُ منها حين تبيّن لي عدم نفعيتهـا، إلّا أنّـي وجـدتُ ورقـةً لا أعهدُ أنّي رميتها. وجدتُ أخيراً دليـل الإدانـة الـذي كنـت أبحث عنـه، أوراقٌ بها أشـياءٌ لا تخصُّ مـا أقـوم به، والتّواريخ تخصُّ يومَـيْ الأربعاء والخميس الفارطين. حملتها وحدّدتها بيدي. نقَّبتُ في تعرُّجات الورقة أبحث عن اسم.

لم أجد أيَّ اسم، لكن ما نفع الأسماء إذا ما وُجد تاريخ الوقوع، فالتّاريخ ثغرة الأشياء، والطّفرة التي يتحوّلُ بها من شيء نسبيٍّ إلى حقيقة مشهودة مطلقة.

تجاهلتُ المكان والأحداث بعد حصولي على مُرادي، ولم أشغل نفسي بعدها بشيءٍ يخُصُّ الشّخص الذي دخل هنا دون إذني، لأنَّ الأمر سيكون رسمياً، فلا يتحرّك المفتاح الرّئيسي إلّا بأمر من المدير. تغاضيتُ عما كان يزعجني ريثما تنتهي ساعات عملي وأقُصُّ الأمر على سعد. كان يُمكن أن أتَّصل به وأُنهي الحوار، لكنّي أحتاج أن أُركِّز لكي لا تهزمني الأرقام، وأحتاج أن أرتاح إلى عملي مُركِّزاً في إعادة نمط شَغل نفسي.

اتَّصل بي سعد مرتين، فكتمتُ أسئلتي، وهو أيضاً لم يُعر للأمر أهميّة، والمرّتان كانتا في طلب تسجيل حسابات جديدة لعملاء جدد.

جاءني اتِّصال للحضور عند المدير، لتقديم طلبه المتواضع الذي كلّفني به. حمَلتُ الأوراق في يدي وتوجهتُ إليه. رحّبَ بي، طلب منّي الجلوس على كرسيٍّ قبالة مكتبه العريض. سألني عن أخباري وصحّتي التي غُشَّت بالحمّى، وعن جدّي أيضاً، فأجبته في إيجاز «الحمد لله - بخير»، ثمَّ طلب منّي ما طلب. أعطيته الملف، وبدا على وجهه الرضا والشُّكر، قال لي: «لم يكن عليك أن تكلِّف نفسك بهذه الإضافات»، كأنّه استحى منّي ومن إرهاقي لنفسي، ولم أجد جملةً أنسب أُجيبه بها، والتي كانت لفولتير:

«Travaillons sans raisonner… C'est le seul moyen de rendre la vie supportable».

ضحك سنّه، وشكَرني على مثاليتي في العمل، هضمتُ شكره في انزعاج من الإطراء كتماً. قُمتُ من مكاني لأُغادر، بادلته التّحية وغادرتـه وأنـا أُلوِّحُ بيدي سـلاماً عليـه. كان يجب عليه أن يعلمني بما حدث في غيابي، أو أنّهم كلُّهم ظنُّوا أني لا أُمانع في أن يشغر أحدهـم مـكان عملـي في غيابي بدون إذن؟، لكنّه معذورٌ على أي حال، فقد كان مشـغولاً كما رأيت، فقد كان يتحدَّثُ إليّ، ويكتبُ شيئاً تارةً وينظرُ إلى الحاسوب تارةً أخرى.

عدتُ إلى المسـار الطّويل الذي يأخذُ دقيقتين من مكتبه إلى مكتبـي، وتلاقـت عينـاي مـع زمـلاء، ابتسـمتُ و«السّـلام عليكم» تكرّرت مرّاتٍ عديدة من قِبلي، ولحسـن الحظِّ لم يسـتوقفني أحد ليسألني عن غيابي.

رأيـتُ ماكينـة القهـوة. نفـرتُ من جذبها لي، ولـم أطل النّظر في شـهوتي وإدماني للقهوة. عدتُ إلى مكتبي، أُدخل أرقاماً تارةً، وأستقبلُ طلباتٍ تارةً، وأتَّصل بزملاء تارةً أخرى، وكلُّ شيءٍ يصبُّ فـي العمل نفسـه، فيجعلني ذلك فـارّاً من عدالة النّفس وأوجاعها، ألم يقل «شيشـرون» بأن العمل يزوِّدنا بمناعةٍ ضدَّ الألم؟ وها أنذا أفعـل ومـا زلـتُ أفعلُ بنصيحتـه، مناعةٌ مؤقّتة وعـودةٌ دائمة، كأنِّي أرسم منحنىً يرتفعُ كلّ صباح إلى الأعلى ويُكدِّسُ الأوجاع تحته بالشُّغل، ثمَّ ينزل في اللّيل مطأطئاً ومخذولاً. لربما كنتُ سيزيفيّاً.. أرفع صخرة الحياة عالياً لتصل إلى ذروتها، وتنفلتَ عن غير قصد إلى الأسفل، والسّاخر أنّني مجبولٌ على مُعاودة الكرّة نُزولاً نحوها لحملها نحو الأعلى مراراً وتكراراً. قد تكون عقوبة وحُكماً أزليّاً، لكنّي أعلم دون حدس، أنّي سأنتهي منّي دون شك، فالأشياء تنتهي

عندما لا تبقى أحلام نريد وصولها، وليست مُبتغياتي كأي إنسان عادي؛ أن يحيا حياةً طبيعيّة فيكبر ويحصل على عمل، وبعدها يَعقُد قرانه على امرأة أحبَّها فتزوَّجها.

قد تكون حياتي طبيعيّةً، ولكن.. ما نفعُ التشبّث بأحلام مُتشابهة، ألا يُمكنني أن أُخالف عقيدة هؤلاء. أليس للأبطال الخارقين أسباب خاصّة لوضع الأقنعة كما للأشرار الخارقين أسباب كذلك؟! فالاثنان حظيا بقليل من الحظ السيئ وكبوات نفسيّة جعلتهم كذلك، وهم يُناصرون من أجل ما أحدثَ لهم القدر. وأنا لستُ خارقاً، لا خيِّراً ولا شرِّيراً، بل أُشكِّلُ الحياد في ثنائيّة الخير والشَّر ككلِّ بشري وطأ هذه الأرض، لستُ أبيض بقليلٍ من السَّواد أو أسود بقليلٍ من البياض كما تُشكِّلُ دائرة الين يانغ، أحب خلط الاثنين معاً لكي لا ألتمس الإحسان والبُخل في نفسي، لا أُريد أن آخذ سمةً وأنسى أُخرى، فقط طبيعيٌّ على غير طبيعته، فقد كُنتُ منذ القدم محذوفاً من إلياذة السُّعداء، ولا يهمُّ إن كنتُ بياضاً نزقاً أو سواداً طائشاً، أوليس نبراس حريّتي ألمي، وسراج عِلَّتي يُتمي، وإضاءة جُرحي قلمي! فلا أشياء أملكها لتملكني، فأنا شخصٌ درَّب نفسه على الوحدة، وشخصٌ مُدرَّبٌ على الوحدة لا يُباح له أن يشتكي، فهو شخصٌ يخسر مرّةً واحدة، وأمّا أن يُعيد الكرَّة مرّةً أخرى.. فذلك مخجلٌ جدّاً.

وأكثر ما يُزعجني هو ذلك القول الصّادق في كلامه والمنافق في وقعه: «إن غيّرتَ نفسك، فالعالم سيتغيّر»؛ لم أكن أعلم أنّ العالم وصل إلى هذا المكر والخداع المُبين في إرهاق الذّات بكلمات إيجابية تُغني وتوجع. التّغيير شيءٌ بديهي، ويمكن فهمه

وحصـرهُ فـي أشـياء لا تخـصُّ بنيـةً مُعقَّـدةً كالنّفس البشـرية، تغيُّرُ الإنسان حقيقة، ولكن العالم لن يَتغيّر، كلُّ ما يحدث هو تبديلات طفيفة، يتبدَّلُ فيها النّظر من أسـوأ إلى أحسـن، وتتَّضح الأصوات بشكل مُفاجئ، لكنَّ تأثير العالم يبقى هو هو، إن لم يُكدرك بشكل، سيُكدرك بشكل آخر، لن يُعيدك من حيثُ بدأت، لكنّه سيُحاول أن يكون قاسـياً ليلعب معك بشـكلٍ أفضل، فكُلَّما ازداد المرء ذكاءً، صعُبـت الحيـاة بمعاييـر الإدراك والتَّغيير، فقـد جُنَّ كثيرون وانتحر كثيرون بسبب تغيُّرٍ خاطئ حقنَ معضلة سحقٍ فكري بذكاء مُصطنع، ومعظم هؤلاء ظنُّوا أنّ العالم سيتغيّر إن غيّر المرء نفسه.

وكـم تبقـى كلمات فرنسـية تلعبُ فـي ذهني كطفلةٍ صغيرة لا تمل:

«Comment je vais expliquer l'inexplicable?»

II

مرَّت السّاعات الثّلاث سريعاً بدون تفانٍ، شربتُ فيها قنينة ماء ونصف، غلبَةً لجفاف العادة من القهوة، ولم أتوانَ عن النقر على لوحة المفاتيح وضرب أرقام الهاتف الأرضي.

جاءت فترة الاستراحة، وفي لحظة نهوضي وتوجّهي نحو معصم الباب لفتحه، قفزت علامة استفهام الشخص الذي ملأ مكاني خلال مدّة غيابي، تستهوي فضولي. رجعت بخطوات إلى المكتب آخذاً أوراقي الثّبوتية. نزلتُ الدَّرج، رأيتُ سعداً أمام ماكينة القهوة، طلبَ كوبين، وبإشارةٍ من يده أشار إلى المطعم وأنّي يجب أن أُلاقيه هناك، كانت هذه من غير عاداته. أشرتُ إليه أنا الآخر من بعيد بإيماءة رأس أنّي سآتي.

ذهبتُ إلى دورة المياه. غسلتُ وجهي أمام المرآة الكبيرة، وفاجأني منظري حقّاً، بل لم ألحظ أنّي أنيقٌ شيئاً ما، بل أحمل وسامةً بائسة. انتعش وجهي بالماء البارد، انفتحت معه عيناي. كان الجو حارّاً قليلاً، فخلعتُ سُترتي وحملتها على ساعدي، ثمَّ توجَّهت إلى حيث سعد.

لم أجد سعداً في المطعم، فحصت المكان لعلّي أجده جالساً في مكانٍ غير مكاننا المعتاد. صعدتُ الدّرج الحلزوني الذي يُؤدِّي

إلى طابقٍ فوق المطعم، وجدته فارغاً من أيِّ شخص. رجعتُ وأنا في حيرةٍ من أمري. سألتُ النادل عن سعد، فأجابني بأنّه لم يره وأنّه لم يأتِ بعد. حاولتُ الاتِّصال به، لكنَّ رصيدي بالهاتف كان قد نفد. عُدتُ إلى النّادل وطلبتُ منه أن يُخبره إذا ما حضر أنّي قد عدتُ إلى المكتب وأن يتَّصل بي.

عدتُ إلى مكتبي، متسائلاً عن غرابة هذا اليوم التي يزيد بإخلاف مواعيده.

جاءني اتِّصاله بعد عشر دقائق، وطلب منّي القدوم. ذهبتُ أجرُّ الخطى. كان المطعم يبدو صغيراً من مكاني، بدا كنقطة تلاشٍ لتوسُّطه نقطة الفصل بين شارعين. أتعبني السَّراب الذي تُحدثه الشّمس على الأرض البعيدة المقابلة للمطعم. تبقَّت نصف المسافة لأصل. أخرجتُ منديلاً ورقيّاً أمسح وجهي، ثمّ أكملتُ مسيري.

وأنا أرى من بعيد، بدا لي كأن شخصاً ما يجلس مع سعد، وتبيّن لي فيما بعد أنّها كانت امرأة. لم أبالِ بالنَّظر كثيراً، أشحتُ نظري عنها، ورحتُ أتملّى في المبنى الذي يضم المطعم.

ما أمر سعد اليوم الذي أدار عليَّ الحصار بحضور امرأة!.. أخاف أن تقرأني، أو يُزعجهم حضوري.

ما بالك يا اثنين.. تُعاكسني أنت أيضاً!

اقتربتُ ولم يرني سعد بعد. بدت لي المرأة مألوفة. لم أَرَ وجهها، لكنّ بنية جسدها لم تكن تخفى على ذاكرتي. أدرتُ الفكرة في ذهني، أبحثُ عن امرأةٍ تُشابهها من زميلاتي في العمل، لكن لم أجد المواصفات نفسها. كانا يجلسان موازيين لخط قدومي، كرسيُّ سعد قبالتي وينظرُ نحوي، والمرأة العكس، فكرسيها يُقابل

كرسيَّ سعد. كانا يتحاوران، ويُحرِّكان أيديهما ويضحكان. رآني سعد فلوَّح لي بيده، ورددتُ التَّحية بتلويحة أيضاً. لم تلتفت المرأة، حَنتْ رأسها تبحثُ في حقيبتها الموضوعة فوق الطّاولة. دخلتُ من الباب الجانبي وكانا هما على يساري. اتَّجهتُ مباشرة إلى ثلاجة المطعم قبل أن أذهب إليهما. أخذتُ قنِّينة ماء صغيرة، شربتُ نصفها وحملتها في يدي اليسرى متوجّهاً نحو سعد. حدَّقتُ إلى لون شعر المرأة. التفَتتْ هي بعد أن رأت سعداً ينظر وراءها إلى أحد. لم أُصدِّق من كانت، وقفتْ وقالت: «وحيد! ماذا تفعل هنا؟». تفاجأتُ حقّاً، تبعتني التي أُصبتُ من أجلها بحمَّى الذاكرة حتّى إلى عملي. قلت: «ماذا تفعلين أنتِ هنا..؟». فكَّرتُ حينها سريعاً، ثمَّ قلت: «هل كان عملك الجديد في شركتنا؟». سعد لم يفهم شيئاً، فتدخَّل قائلاً: «كيف تعرفان بعضكما؟».

أكرهُ الأسئلة الكثيرة.

أخذتُ مقعدي. جلست هي أيضاً.

قال لي سعد:

- أفسدت المفاجأة، كنت أريد أن أعرّفك بالموظَّفة الجديدة.

ثم أردف موجّهاً كلامه لنجوى:

- نجوى، هذا صديقي الذي حدَّثتك عنه.

بدا كأنّها صُدمت، أعتقد أنّ سعداً حكى لها شيئاً عنّي. شربتُ ما تبقَّى من ماء في القنّينة حتّى آخر قطرة. تفاجأتُ قليلاً. كنتُ مرتاحاً بعض الشيء، فهي قرأت قبلاً جُزءاً منّي، ولن يُعدَّ هذا أمراً أقلق منه.

زفرتُ ووضعتُ مرفقي الأيسر على الطاولة، ووضعتُ يدي

على خـدي. رفعـتُ راحة يدي اليُمنى وأشـرت إلى نجوى. قلت بشيء من عدم الاهتمام:

- نجوى جارة لي، وتسـكن في العمارة نفسـها التي أسـكن بها.

غيّرتُ نظري إلى نجوى، قلتُ ممازحاً:

- على أيّ حال، لم يُقلقكِ هذا الشّقي؟
- لا، لا.
- حسناً، كيف حال جدَّتك إذاً، هل هي بخير؟
- الحمد لله، كيف حالك أنت؟ لا بل قل لي أولاً، لماذا لم أرك هنا من قبل؟
- أموري بخير الآن، لم تريني لأنّي أخذت بضعة أيّامٍ راحة لأسباب صحية..

بـدا كأنّهـا أدركـت الأمـر، وفهمت ما أعنيـه ومتى وقع ذلك. توسّعت عيناها، وأومأتُ أنا بإشارةٍ غير واضحة برأسي، ثمَّ رسمت على وجهي ابتسامة تعرف هي معناها.

لكنّي غطَّيتُ على الأمر بجملةٍ قصيرة وسكت:

- .. كنتُ تعباً فقط.

في حين كنت أنا وهي نتحدَّث، كان سـعد هو أيضاً يتحدَّثُ في الهاتف، وعندما انتهى واجهته بسؤال.

أخرجتُ الورقة من جيبي ومددتها أمامي، قلت:

- سـعد! قـل لـي، أتعـرف لمن هذه، يبدو أنَّ أحداً اسـتعمل مكتبي مؤقَّتاً.

قال لي:

- نعم أعرفه.
- من؟
- إنّها تجلس بجانبك.

دعكتُ جبيني:

- لقد قلتُ أنّ حاسّة شمِّي استشعرت بأنَّ العطر كان مألوفاً..

أُزعجتُ كثيراً صراحةً. أن يأخذ مكان عملي رجل أقبلها، لكن امرأة.. شيءٌ يقبل الرَّفض.

بعد لحظات قلت:

- أتُبلين جيداً؟ هل لاءمكِ المكان؟

قالت:

- بالطّبع، بالطّبع! الله يخلي لينا السّي سعد!

كنتُ آملا أن يُجيبني سعد ضدَّ ما أُفكِّر فيه.

قلت له:

- هل هي معنا في المجموعة؟!

تدخَّلت هي قائلة:

- وهل وجودي يضر؟!

قال لي سعد:

- أسيدي.. هنّينا..! اتركِ المرأة في شأنها.. لا تبدأ!

قلت:

- لا، تبدو جريئة، يبدو أنّها تنتمي إلينا، أسئلتها جيّدة بما يكفي لكي لا تكون عقبةً في الطريق.

ضحكت نجوى من قولي.

أردفتُ:

– علـى أي حـال، مرحبـاً بكِ معنا، إذا ما احتجت شـيئاً، أنا في الخدمة.

قلتُ كلامي ووقفتُ، ثمَّ أردفت:

– أترككم هنا، لديَّ أشغال يجب القيام بها.

قال سعد:

– ألن تتغدّى معنا؟

– لا يا صديقي، لستُ جائعاً.

قبـل أن أهُـمَّ بالرّحيـل، قالت نجوى بعد أن أمسـكت ذراعي وأوقفتني لأسمع منها شيئاً:

– آسفةٌ.. لم أكن أعلم.

ابتسمتُ كأنّي لا أعلم عن ماذا كانت تتحدّث، ثمّ نزعتْ يدها بعد أن أُشـبِعت بتخيُّل مرارتي وبأنّني رجل بائس لا يقبل الشّـفاء، ثم ابتلعتُ اعتذارها مُغادراً.

فـي الحقيقـة كنـتُ جائعـاً، لكـنَّ مواجهـة ذلـك الكـم مـن الاستجوابات التي لن تكُفّ من امرأةٍ أعرف جيّداً أنّها لحوحة في طلبهـا وفضوليـة بعـض الشّـيء، جعلتني أنفر هاربـاً. لكنّ ذلك لم يجعلني أنفر منها أو أكره وُجودها، كلّ ما في الأمر أنّه يجب عليّ أن أعتـاد وجودهـا بيننـا. لكنّـي في أعماقي، لم أكـن أريد مواصلة هـذا المجـيء والذهـاب إلى عريـن المتاعب الجديـد الذي يواجه الذّات بالأشخاص الجدد. ربّما سوف أقرّر وضع حظر لي لذهابي إلـى المطعـم ثانيـة، والظّاهر أن امرأة أتت اليوم، وفي الغد سـتأتي اثنتان أو أكثر معها. سـأحاول الانقطاع عنهم، فقد تفضحني آداب الحديث، فمن الممكن أن لا أردّ على سـؤال مُباشـر من أشـخاص

مستقبليين في أيّام مستقبليّة. وسأُهمل سعداً قليلاً، لأنّي متأكدٌ كل التّأكد أنه أينما يكون هو ستكون معه، فقد بدا بينهما نظرات ما، وشخصٌ مثلي يفهم العيون أكثر من أيِّ أحد آخر، شخص ظلَّ يراقب طوال حياته ظواهر الحياة وهي تمر؛ الفصول، الشمس، الليل، المارة، السّماء، عُمال البناء، أصحاب البقالة والباعة، وجوه النّاس، عباراتهم وملامحهم...

وأعتقد أنّها ستكون زيجة جيّدةً له هو الذي بحث ما بحث، لذا فلا بدَّ أن أحاول عدم الظهور لكي لا أنفق رصيد وقتهما وحديثهما بوجودي.

ابتعدتُ كثيراً حتّى اختفيتُ عن أنظارهما، ويبدو لأنهما هما أيضاً ارتاحا من وجودي، كما ارتحتُ أنا من غيابهما. لم يرفضاني، لكن أنا الذي أرفض حضوري الباهت، وليس هذا جديداً أيضاً، وليس هرباً أيضاً، وليس ضعفاً أو خوفاً، إنّما هو عفّة وحصانة لي من ورع الشّباب.

عدتُ إلى المكتب بمعدةٍ خاوية، وأخذتُ مِحفظتي من جيب السترة، والتي جعلتني أقطع كلّ هذه المسافة من أجل النقود لكي أشتري ما يسدُّ جوعي. عدتُ بخُطىً مُسرعة، ولم أمُرَّ من الشّارع نفسه الذي هما فيه. جلست في أحد المطاعم البعيدة عنهما، وحدي مع قنّينة ماءٍ تُطفئني، فلا بدّ من سائلٍ ما يُرَشُّ على روحي ويُبردها.

شيءٌ عجيبٌ ما تفعله الوحدة، رهيبٌ ومريحٌ معاً، تجعلك تهربُ من كلِّ شيء، فقط لتحظى بهدوءٍ ما يُعيدك إلى صوابك، أو بالأحرى ليس الوحدة وحدها، بل أنانيّة الذّات وعاداتها، فدائماً ما ألِفتُ الجلوس وحدي في المكان، أنا وسائلٌ ما وبضعة حروف

وأرقام، وأحياناً مع بضعة أفكار عصيّة.

طلبتُ صحن سلطةٍ كبيراً، وجلستُ أنتظر مدة تحضيرها. رُحتُ أعبثُ بهاتفي، أفكّ رموز أحجيات أشغل بها الانتظار حتّى تأتي الوجبة.

عندما كنت أفكِّرُ في حلّ لغزٍ لم أستطع الإجابة عنه، اهتزَّ هاتفي بيدي لوصول رسالة نصيّة. فتحتها، نظرتُ إلى رقمها. لم أتعرف لمن الرّقم. كان محتوى الرِّسالة: «هذا رقمي». هل كانت مصادفة؟ فقد أعطتني الرِّسالة النّصيّة جواب اللغز الذي يتكوّنُ من ثلاثة أحرف. أجبتُ على اللغز، ورُحتُ إلى لغز صاحب الرّسالة. أوَّل تخمينةٍ كانت في محلّها، فقد عرفت صاحب الرّقم أو صاحبته. أجبتُ برسالة رد: «OK! أبلغي سلامي لجدّي والأهل». كانت تلك ياسمين، لم أرها منذ عيد الأضحى الذي تركتها فيه في أبهتها. أتذكَّر أن لقاءاتنا لم تكن تدوم لوقت طويل، حديثنا يكون قصيراً وعابراً، تمرُّ رؤيتها سريعةً دائماً. ما زالت ياسمين بالطلة نفسها، لا أذكر أنّي حدّقتُ إلى وجهها كثيراً منذ لقائنا الفارط أو في لقاءاتنا الفارطة التي أُحصيت في مرّات قليلة بعد عودتي من الدراسة بالخارج، وكانت كلّها مناسبات فقط، أعيادٌ أحضرها وأخرى لا، لكنَّ حضوري يكون فيه دائماً لذّةٌ ما، بخفّةٍ ما، وأحياناً بثقلٍ ما، فقد هجرتُ تلك العائلة بذلك العقوق بعدم الاتصال، وهُجراني لهم لم يكن سوى هرب من عدوى الذّكرى التي أشتَمُّ فيها والدتي فيهم، أوليسَ عندهم وضعتُ أوزاري؟! وسيكون مؤلماً إن أنا عدتُ لأعيش الأمور بكلّ عُقدها وبساطتها، ولو وجدتُ مكاني هناك حقّاً للازمتهم لأوضاعهم الرّحيمة، فقدري أن أتبع نور الاتّكاء على

عضلـة نفسـي فقـط، فـلا أريد شـفقةً مـن أحد، ولا أريـدُ أن أتقيَّد بشروط أحد، ولا أريد أن أكون عبئاً على أحد. شقّة عجزي أحنُّ عليّ من رفاهيّةٍ أعلمُ أنّها ستزيدني عَلقماً لا غير.

جـاءت السّلَطة شـامخةً بأنـواع خضـرٍ كثيرة وصلصـة فوقها بالجبـن. أزلـتُ الطّماطـم التـي تُسـيءُ إلى معدتي، وبـدأت الأكل وأنا أتفسّـح بالمكان. بدا المكان خالياً بعض الشـيء، وكان ذلك أفضـل بكثيـر مـن المطعـم الآخر، صحيـحٌ أنَّ الآخر لـه الأفضلية في الإعداد والزّينة والمسـاحة، لكن لا بأس، أنا رجل بسـيط يقبل ببساطة الأشياء، وأعتقد أنني سأجعل من هذا المكان موقعاً للهرب في كلّ يوم عمل، والجميل أنّه قريبٌ من النّافورة، والرُّؤية أفضل من ذي قبل.

خطرت لي فكرةٌ بعد أن أنهيتُ نصف السّلطة. أعلمتُ النّادل بأنّني سأذهب إلى مكان ثم أعود لكي لا يأخذ سلطتي معتقداً أنني قـد فرغـتُ مـن الأكل. ذهبـتُ إلى حيث توجد النّافورة، اشـتريتُ كيس حبوب من بائع بالقرب منها يبيع السّـجائر والبالونات وكذا ألعاباً تجذب الصّغار فآباءهم. رُحتُ أرمي للحمام ليزدرد، شعرتُ بالعطـاء أكثـر، وأحببت هديله بقـدر ما أزعجني. عُدتُ إلى مكاني بعـد أن فـرغ الكيـس. جلسـتُ أُكمل غدائي مُسـتجمّاً بالظّلِ الذي تعكسـه شـجرة بالقـرب منّي. كان موقعاً مثاليـاً لراحة الذّهن، وقد قـرّرتُ فعـلاً أن تصبـح هذه المحطّة راحتي السّـرية التي تخلو من الضوضاء، والتي لا تخلو من إشراكي بالطّبيعة.

التهمت السّلطة إلى آخر حبّة أرز، وشبعتُ حتّى آخر صرخة بطن. لم يتبقّ سـوى نصف سـاعة كي أعود إلى المكتب كي أُعيد

ترتيب نفسـي، ولربّما هذه هي المرّة الأولى بعد أيّامي الأولى في العمـل أبقـى إلـى ما بعد الزوال أعمل، وكان شـيئاً جيّداً، فأنا أريد أن أعتاد الكرسـيَّ الذي نسـيني، ونبتتي التي شـعرتُ بضيق تنفسها اشتياقاً لي، كما أقلامي وأزرار الهاتف ولوحة المفاتيح التي اشتاقت كلّها بشكلٍ مُلِحٍّ إلى بصمات أصابعي، وكما لأعيد درس التّفاضل بيـن وجهـي ووجـه والدي الذي كنـتُ أقرأ فيه كلّ يومٍ لغة ملامح الصّبى، وبجانبه وجه أمي الذي كنتُ أقرأ فيه لغة الأمومة والحنان والعطـف الـذي ولّـى، ولأضفـي رائحتي على رائحـة المكان، فهو من يرحِّبُ بي في كلّ صباحِ دخول، بكلمات متناقضة أضحك لها كل مرّةٍ لتناقض اللغة الفرنسية التي تستفز العربية بشكل متواطئ.

لم أُرد اختزال الجو الذي أنا فيه، فتركتُ نفسي جالساً أراقبُ الماء الذي يصعد من وسط النافورة.

عندما كنت هائماً في فوارة الماء وسـيله من جنبات النافورة، رنَّ هاتفـي رنّتـه المعتادة لوصول رسـالة نصيّة أخرى من ياسـمين، تقول الرّسالة ساخرةً: «من نهار دفنوه.. مجاو زاروه». أبسمتني تلك الرّسـالة النّصيّة التي تأتي دائماً كسـابقاتها منها للعقوق الذي أفتعله بها وبهم. أردتُ أن أرسل لها، لكنّ رصيدي من الرسائل قد نفد، وكانت الرّسالة السابقة التي أرسلتها هي الأخيرة، لكنّي كنتُ نوعاً ما مبتهجاً لأنّها لم تُرسل، لأنّي طبعتُ بالأزرار على الهاتف: «وهل يمكن للموتى أن يزوروا الأحياء. سآتي قريباً.. اشتقتُ إليكِ». هل كان عشقاً، حُبّاً، لا أدري، لكنّي فقط انجرفتُ وراء ما يحدُث بين سعد وجارتي. أدري أنّي كتومٌ جدّاً ولا أفصح عن نواياي، لكن في ياسمين شيءٌ ما يجرفني إلى طفولتي وإلى أيّام سعادتي الأولى، ولا

أعلم كيف أفسّر الشعور الذي يعتريني كلّما أراها، أشعر أمامها كأنّي أمام قدّيسة ما، امرأة لبست ثوب الأمومة. أكره ذلك الشعور، لا أريد أن أشاهد شريط فيديو محروقاً يوجعني بدقائقه الفائقة السرعة عائداً بي إلى حاضر عاجزٌ أنا عن رسمه، وأن أدخل أنا وهي في دائرة زواج، شيء بالنسبة إليّ أقرب من الخيال، وكلّ ما في الأمر أنّي أخاف التّكرار.. أصبحتُ أرهب مما تفعله الأقدار بي. أريد أن أواجه هذا المصير وحدي، ألم أُخلق لهذه المهمة فقط؟ أن أواجه عرين الألم بمسدّس واحد، وبسيفٍ واحد، وببندقيّة واحدة، وبقلم رصاص واحد.. ورموزٍ كثيرة ذات معنى واحد؟. لا يزال الوقت لأفكر في غسل نفسي من بقايا الحزن، فحاجتي إليه تفوق حاجاتي الذّكورية إلى أنثى، وأدري أنّ اتّخاذي لمنحى الفردية الذي يقتلني ليس الطّريقة الصحيحة للعيش، لكن هكذا جُبلت، ولا يمكنني تغيير ذلك. زيادةً على مرضي الفتّاك والذي سيُرديني عمّا قريب ربما كما قال لي الطبيب يوماً، كما لا يمكن أن أخالف هويّتي وأطوي بقايا الماضي، وما يمنعني هو ذلك الانتظار الذي سمحتُ له بمُعاينتي، ذلك التّرقب الذي لا أتحمّس له في منحي شارةً ما توقد فيَّ ضرورة أن أربط نفسي بامرأة، فلا يُمكنني أن أغدر بإلحادي بعاطفة الحب، سأؤمن به يوماً ما إذا ما قدّر لي أن أعيش أكثر. ولستُ ساذجاً كفاية لأخدع بنداءاته لفؤادي، ذلك النّداء الخفي الذي يمر عبري في كل مرّة أعود فيها إلى المنزل عندما أرى من سيارتي امرأة ورجلاً يتشابكان الأيدي. لكن هناك منطقاً في عدم النّسخ في التّلألؤ بشيءٍ من العظمة في كوني جبّاراً كالدّببة التي لا تخاف أن تعيش وحدها، ذلك الكبرياء في خلق عالم من خطوط

جسدك وحده ولا يُشركك أحدٌ في حكمه إلّا بإرادتك. وأعلم جيّداً لماذا يكون منطق تفكيري هذا رزيناً ومراً هكذا بحضوره الغائب الذي لا يريد أن ينتظر أو يتوقّع هذا وذاك، فعندما كان بعضهم يبحثون عن الحب، كنتُ أنا حينها أبحث عن الهدوء، وعن نفسي التي تاهت في غمرة الأشياء التي لا تكادُ تصطفي معنى.. فما أمسَّ لوجائي للهدوء في هذا العمر الذي يكاد أن يكون حائراً بين العجز والمواصلة، وبين المُضيِّ والوقوف.. كما أنّ قطار الحب مضى دون أن ينتظرني، فلن ينتظر من لديه تذكرة موت.

دفعتُ ثمن وجبتي، وخرجت نحو مخدع هاتفيٍّ مقابلٍ للمطعم. عبّأتُ رصيد هاتفي وبعدها غادرت مولّياً ظهري لمحطّة جديدة بمعدةٍ ممتلئة، وبجسدٍ شُحنَ بطاقة سرعان ما ستُستنزف في ساعات زمنيّة أخرى بالعمل.

وأمام مرآي من بعيد، أخرجتُ يداً واحدةً من جيبي، ألوِّحُ بها للاثنين اللذين ينتظران عودتي أمام الباب الزجاجي.

حادثتهما قليلاً، ثم صعدتُ دَرج النّسيان بتروٍّ لأستعيد جوَّ المكان.

* * *

كانت الطّرقات مزدحمة عندما عدت إلى مضجعي، فأضيفت عشر دقائق إلى العشرين دقيقة التي كنت أستغرقها عادةً في الوصول إلى شقّتي.

دخلتُ الشقّة. كانت آذاني منزعجة جدّاً من جلبة الأبواق، وتراكم التّوتر عليَّ من مخلّفات تلك الأصوات العنيفة للسّائقين؛ حناجرهم الصّارخة وأصواتُ أبواقهم المتنوِّعة افتعلت بي ألماً

وعكَّرت مزاجي، زيادةً على الحرِّ الدّخيل في شهر فبراير، وتلاحم السيارات المصطفّة بدخانها. فضَّلتُ حالة الحمّى على الموقف المُزري الذي كنتُ فيه.

رميتُ بجسدي على السّرير مخذولاً بمُعاكسة الأشياء لي اليوم، فلم يكن شيء جيّد اليوم غير المطعم الجديد ورسالة ياسمين وساعات العمل، أمّا البقيّة، فكانت تغريدات مُزعجةً آلمت منطقة الرّاحة لدي.

تمدّدتُ لدقائق. كانت حبّات العرق تنضح من جسدي، شعرتُ بقليلٍ من التّقزُّز في فمي ومن الإرهاق النّفسي الذي يعبأ بي. غيّرتُ ملابسي المتعرِّقة، ورميتُ الأخرى في سلّة الغسيل. جفّ وجهي من العرق فغسلته بالماء، لكن سُرعان ما جفَّ وعاد ليتعكَّر من نار الجسد، وكلّ حركةٍ كنتُ أقوم بها كانت تحُكُّ العرق.

تغلغلت في عروقي عفونة الكراهية التي لا أحبُّ أن أبادل بها نزق الزّمان، فلم أستطع أن أهدأ. أصبحتُ غاضباً بحق، وانتابتني لهفة في ضرب شيءٍ ما، وبالفعل فعلت، فقد صككتُ أسناني، وجمعتُ كامل قوَّتي في قبضة يد وضربتُ باب المطبخ الخشبي. سمعتُ صوت كسر، وكان فعلاً شِقّاً في الباب وصمَتهُ ضربتي. شعرتُ بحرارة قاتلةٍ توغَّلت بشكلٍ فوراني في أنحاء أعضائي، وأصبح وجهي أحمر. قبضتي لم تُجرح ولم يظهر عليها أيُّ أثر لكدمةٍ ما أو قطرة دم، غضبي كله حملتهُ ضربتي تلك.

وضعتُ يديّ على ركبتيّ راكعاً، تغييراً للهيئة لأجعل قواي خائرةً من قواي العصبيّة. بعد لحظات من التّنفس المستمر، استعدت شيئاً من الهدوء، وانتفضت عنِّي لغة الغضب واستشرتُ

لعقلانيتي.

كنتُ لا أزال على وضوء، فذهبت لأصلي، كنتُ أحتاج أن أهدأ.

صلّيتُ فريضتي، ثمَّ جلستُ على الأرض خائباً ككُلّ مرّة.

فهل كنتُ أدعو؟

لا لم أكن!

كنت أفكّر في الحركة القادمة التي تستوجب منّي في كلِّ لحظة رحيلٍ عن فعلٍ ما، أفكّر في ما يُمكن أن ينسجه تواطؤُ الحياة مع الوقت لتسليتي من جديد، وعما يمكن أن تخلقه رياح الزّمان في إجباري على التّنفس الطّويل وفي جعل أشرعتي متينةً كي أساير شجنها المتواصل يُمنةً ويُسرة، مشاهداً الطوفان العلني لسيماء التَّقهقر الذي تفعله بي الأيام الجليلة التي اكتست عُسرةً، فباشرَتْ بسحقي كما فعلت عناصر هذا اليوم في معاكسة عاداتها.

لم أصل إلى حلٍّ سوى أن أنهض لأنفُض عنّي الحرارة التي استقطبتني، وأن أبقى بعيداً قدر المستطاع عن أيِّ شيءٍ يُعيد حالة الغضب، فذاك يزيد من تدفُّق المرض.

أخذتُ كأس ماء، ووضعتُ فيه البرشمة الدَّوائية، شربته وأنا أتوجّه إلى سلّة الغسيل، فقد نسيتُ هاتفي في بنطالي في حالة الهيجان تلك.

ذهبتُ أطلّ من النوافذ المشرّعة، كي أزهو بالنّسيم العالي الذي يصل آخر شخصٍ بالعمارة وحده لِقربه من السّماء. راقبتُ منبع الهدوء وهو يهيم في السّحب وفي زُرقة السّماء. طلبت أرقام ياسمين لأَنتشي بصوتها عطراً آخر.. غير عطر الأحداث الوغدة.

III

ها هو ذا اللّيل قد جن، والتقت جُزيئات السّكون مع المساء الـذي يُصبـح بارداً لا يلوي على شـيء سـوى الانطفـاء والجمود، وكلّ شـيءٍ قد تحرَّك قبل حلوله، والآن هو إمّا في نثراته الأخيرة ليستقي راحةً، وإما أنّه بالفعل قد تجاوز مرحلة الرُّكود. وأنا أيضاً انتهى بي الأمر مُغترباً بحالةٍ شعوريّةٍ لم تسبق أن دارت بي، انتهى بـي الحديـث مـع نفسـي فقط، وكانت هذه هي المـرّة الأولى التي أشـعر فيهـا بأنّـي فـي حاجـة إلى أحدٍ مـا أتبادل معه لغـو الكلام، فياسـمين لـم تلبِّ مطلبي، فهاتفها كان مشـغولاً، أو ربّما هي فقط لم تُرد أن تتحدَّثَ معي وعاقبتني برنّات انتظار، وبأملٍ في الإجابة والضَّغط على زرِّها الأخضر، وكنتُ خير فاعل، تركتُ لها الصّمت إجابـة أو هـي التـي تركتـهُ لي أيضاً، وكنت قد أرسـلتُ لها رسـالةً وحيدة بعد أن غابت الشّمس: «سأزوركم قريباً». ولم أتلقّ أي رسالة منها بعد رسالتي.

حاولتُ أن أرتاح من الإنصات للحديث الذي يدور بين عقلي وفـؤادي، فرُحـتُ أحـاول تحريك القلم قليلاً بإضافة أشـياء لما قد كتبت، لكنّي خُذِلتُ بقلم الرّصاص، فهو من النّوع الذي يُعبَّأ، وقد فرغت العبوّة الصغيرة من الرصاصات.

حتّى صديقي اليوم عاجزٌ عن مواساتي، أصبحنا خاليين من كلِّ شيء، سوى من حثالة الهم.

ماذا يمكن أن أفعل في حالة الانشطار هذه التي تقصم جبيني يأساً حتّى في الكتابة، وعجزاً حتّى في رغبة صرف همّي على الورق، وما هذه الرّغبة التي اجتاحتني بإفراغ لساني بالحديث على غير عادتي؟ ماذا تُراكِ ياسمين فعلتِ بمشاكستك لي اليوم؟ أتُراك أنتِ أيضاً تشعرين بكدري فزادكِ بُعدي تجاهلاً لي فقط؟

لا يُهمّني الأمر سيّدتي، فماذا يُهمُّ امْرَأً لا ينتظر شيئاً غير الزّوال، غير حملِ ضرّه معه إلى غيابات القبور وتعجيل سنوات عجزه إلى نهايتها مُبكّراً.

أدرك أنّي سأموتُ حتماً، لربّما عن قريبٍ أيضاً، ولستُ خائفاً أن أفنى، ولست أنوي البقاء أيضاً، والدّربُ نحوهما ما زال حُلماً. لكنّي أخاف أن أموت وجعاً وقهراً، أخاف سيدتي أن أغادر بسبب المرض. أريد ميتةً هانئة وطبيعية كما يموت كلّ شيخٍ طاعنٍ في السن. لكنّي فقط أجهل من السّابق واللّاحق، أكُهولتي أم بنوّةُ الخلايا الخبيثة.

تكون الأفلام دائماً ملجأً للهرب. بحثتُ في الخزانة عن عُلبة متوسّطة الحجم أضع فيها بعض الأقراص المُدمجة لأفلام وثائقيّة، وأكثرها عن هتلر وعن الحرب العالميّة الأولى والثّانية، فلعلّ مآسي الدّول وتغيُّرات العالم بأراضيه تُفلحُ في جعل التّحالف قائماً في صدري. لم أجد العلبة، بحثتُ تحت سريري وفي الأدراج ولم أجدها. بحثتُ في الخزانة مرّةً أخرى. كنت أبحث متجاهلاً الصندوق الخشبيَّ المستطيل، كنت أحاول البحث بعيداً عن مرماه،

بعيداً عن خلساته التي تُربكني من قُفله الصّغير الذي يلمع، أحاول أن أشيح بنظري عنه كي لا تجرفني فكرة تشتهي رؤية ما بداخله من نور ذكرى مجتمعةً محبّةً وكُرهاً هناك.

تعبتُ من الذهول الذي استشاطني في البحث، فلا العلبةُ عرّفت عن مكان وجودها ولا لمعان القفل توقّف من ربوضه على يقظتي منه.

زاد السّهوم توتّراً وعصبيّة بفعل ذلك، واستسلمتُ أخيراً لأن أترك الحروب التلفزيونية وأنير صندوق حربي بفتحه. حملتُ الصندوق، كان ثقيلاً بعض الشّيء، وضعته أرضاً، وجلبتُ مفتاحه الصَّغير المعلّق بجوار مفاتيح المنزل والسيّارة، فالواجب أن أحتفظ به قريباً منّي، والأشياء التي توجعنا يجب أن تكون الرّموز التي تُعلّلها قريبة منّا لنألفها، فمجرّد نسيانها ومواجهتها عن غير قصد قد يأخذ منّا الكثير مستقبلاً عند مواجهتها. وهذا ما أخاف منه!

جلستُ ناحية التابوت الفاخر الذي يُشبه الصَّناديق والعُلب التي توضع بها الجواهر والحُلي، شكلهُ فقط يوحي بأنّه يحوي كهوف أوجاعٍ وشروخ ذكرياتٍ من الزّمن. كان هديّة من جدّي الذي اعتاد هو الآخر على وضع ماضيه في صندوقٍ يُشبه الذي أمتلكه. كانت حيلةً خبيثةً حقّاً في الغفران لنفسي، فقد دفنتُ به كلّ الماضي المتعثر، إلّا صورتين لوالدي، وعبثاً كنتُ قصصتُ الصّورة التي تجمعها في واحدة بتفريقهما ووضع كلّ واحدٍ منها في إطار، فلِكلّ زمنٍ ذكراه، ولكلّ واحد منهما أثره، وهما الصّورتان اللتان أضعهما على مكتبي في العمل، لأنّي آخذ بركتهما وهما يُشاهدانني أقوم بعملي، ليرضيا في السّماء عليّ بأنّي لم أكسّر حاجز التّقوى

والبرِّ بيني وبينهم.

فتحتُ الأعجوبة. أعماني الضوء المرتد لخاتم والدي الفِضِّي وخاتـم والدتـي الذّهبـي. كان فـي الصنـدوق أحجار كريمـة، مرآةٌ صغيرة إطارها نحاسي، وألبوم الصّور الذي أعجزني حين البأس، وخلخـالان ذهبيـان كانت تضعهما والدتي بمعصمها، سـاعةٌ رقميّة تعود لوالدي، أقراصٌ مُدمجة لـ«ناس الغيوان» مكتوب على أحدها «اِيمْتَا يْصْفَا الْحَال»، ومفكّرة طبخ والدتي التي حفظتُ كلّ وصفاتها عـن ظهـر قلـب، ومفاتيـح سـيّارة والدي المخدوشـة التـي تحمل معهـا خطـوط أصابـع والدي المخفيّة في ثنيات معدنها المصقولة، وهاتـفُ والدتـي الصّغيـر الفضّي الذي أصبـح يُباع بثمنٍ بخس في زماني هذا، وسترة الطّبخ الأرجوانية التي كانت تضعها والدتي في المطبخ، والتي كانت تنسـى بسـحابها الأمامي النّقود فكنتُ آخذها خلسـةً منها، وأزرار اقتلعتها وحدها من بعض أثواب والدتي، فلم أحتفظ بملابسـها، لأن رائحة أمومتها سـتعود بي إلى وجع الصّغر والانجلاء في غمرة سعادتي التي كانت بوجودها، كما أنّي لا أريد أن أبعثر نظري في المزقة التي كنتُ سَببها في أحد أثوابها عندما شددتها منه في حفل مدرسي التجاء وخوفاً من أحد المهرّجين.

انكفأتُ أراقبُ الصّور الجميلة التي حفظتها والدتي في أعياد ميلادي، أرتدي في إحداها زياً عسـكرياً، وفي أخرى زيَّ شـرطي بقبَّعةٍ سوداء، وأخرى بذلةً زرقاء، وصورةً لي وأنا عابسٌ فيها بجوار الخالة هدى، وصورةً أخرى ألبسُ فيها لباساً تقليدياً وأضع طربوشاً أحمر وأبكي، وكان ذلك بمناسبة حفل عقيقتي.

كم أنت أسود وأبيض أيُّها الماضي!

هِمتُ في أشياء عدَّة، وقع نظري على قرصٍ مُدمج مكتوبٍ على غلافه تاريخ «02/ 10/ 1986». أفظع حالتي ذلك التّاريخ، كان تاريخ زواج والديّ، فيه أصبحتُ أكره الثّاني من أكتوبر، تؤلمني أوجاعهما أكثر ممّا خلّفاه لي من أسى متوارث. ومذ أعطتني الخالة القرص بعد أنْ حوّلت الشّريط الأصلي إلى قرصٍ مُدمج، لم أشاهده، عققتُ النّداء. فتحتُ الصندوق اليوم على أي حال، وأقراص هتلر والحروب ضاعت في مكانٍ ما، إضافةً إلى أنّ القنوات التّلفزيونية والأنترنيت سيزيدانني مللاً فقط. ولا أريد أن أصاب بالغباء من حمق القنوات، وسهل أن ترى الانحطاط في العالم، فكلّ ما عليك هو أن تُنشئ حساباً في مواقع كـ«فيسبوك»، بعدها سترى الحمقى هناك.. لا يُحصون. أعفيتُ نفسي من تلك المواقع السّاذجة، كنتُ أملكُ حساباً، لكنّي حذفته لفرطِ ما قزّزني عديمو اللّون، كما هرباً من ذلك التّفقه في التّفقر ثقافياً.. فماذا ستنفع تلك السّخافات في خلق بهجة ما لرجل بائس موته حتمي.

أدخلت القرص بحاسوبي، ثمّ اتّخذت موضعاً وتسريحةً على السرير، وانتظرت قليلاً حتّى يُقرأ..

بعدها رُحتُ أشاهد سعادتهما وأقيسها ببهجتي.

* * *

لم أكمل الشّريط بأكمله، شاهدت لمدّةٍ وصلت إلى العشرين دقيقة فقط، فقد غلبني النُّعاس فنِمتُ فجأةً. تركت الشّريط يعمل، ورغم تلك البنادير والزَّغاريد والطّبول والتَّهليلات النّسائيّة، لم أستيقظ، فقد تجاهلتها مسامعي ويقظتي بالنّوم. ولم يوقظني سوى

جلبة بعض الجيران، فقد كانت هناك حفلة في الطّابق الذي تحتي.

عندما فتحتُ عيني، وجدتني أنظر إلى شاشة الكمبيوتر، وكانت الرُّؤية غير واضحة كفايةً ليفهمها النسيان المؤقّت من صحوي، حتّى الألوان بدت لي كلّها بيضاء، وأشعّة الشّاشة أعمتني من أول فتحة عين. أغمضتُ عينيّ ورمشت جيّداً كي تَعِي رؤيتي ما يُحيط بها بشكلٍ جيّد. رفعتُ رأسي نحو سقف الغرفة إلى أن يصفى ذهني. أعدتُ نظري إلى الشّاشة، والصّورة الأخيرة التي انتهت بها السّاعة والربع للشريط كانت ضحكةً لوالدي، متفرِّدةً بالحجم الكبير للشّاشة آخذةً معالمها ببياض سنّه وشاربه وأهدابه المنثنية الضّاحكة، الضِّحكة التي تُشبه التي لدي، إلا أنَّ خاصّتي وافتها منيّة الحضور والتّكرار.

كان النوم أفضل علاجٍ لي من ذلك الزّخم، رغم أنّي نِمْتُ لأكثر من ساعة ونصف تقريباً، إلّا أنّ ذلك كان كافياً، فقد انتعشت ذاكرتي وألقت برواسب الزّمان الفائت بصبحه وزواله وتعبه في سلّة الذّكريات الدّفينة. نهضتُ متوجّهاً لأغسل وجهي وأفتح ليلاً جديداً بدون أخطاء. عدتُ إلى حيث يوجد الحاسوب، انحنيتُ إليه من جانبه الأيسر لأنظر إلى السّاعة، كانت الساعة العاشرة وثماني وعشرين دقيقة. أطفأتُ الجهاز بعد أن أخرجتُ بلاء الذّكرى، وأعدتُ الشّريط إلى جحره. أقفلتُ على الصندوق، وأرجعته بكلّ رحمته وعُسرته إلى حيث يجب أن يكون، إلى حيثُ يرتكن بعيداً عنّي بوجوده الثّقيل.

حضّرتُ كأس شاي، شربتها وأنا أتجوّل في حلقات بالصالون، تارةً أمشي في خطٍّ متّصل بإيابٍ وذهابٍ من الصّالون إلى المطبخ،

وتارةً عودةً من المطبخ إلى الصّالون. والموسيقى التي كانت تصدُر من تحتي، بدا كأنّها هدأت قليلاً، والظاهر أنّ الحفلة قد شارفت على الانتهاء.

انتعلت حذائي. غسلتُ وجهي مرّة أخرى. لبست معطفي. عزمت على الذهاب للمشي قليلاً ليسري معي تفتُّحُ اللّيل بهوائه المنعش، فالخارج أرحم بفُسحته الباردة على شقّتي التي اكتست حرارةً، وهواء الشرفة لا يكفي لجسدي بأكمله، كما أنّ حاجتي للمشي ضرورية، لا بدَّ لدمي أن يجري في جميع مآقي.

نزلت السلالم، وعندما تجاوزتُ باب الشقة التي تصدُر منها الموسيقى، وجدتُ على العتبات البعيدة عن الشقة بطاقة تعريف، حملتها، كانت لشاب في العشرين من عمره تقريباً. الظاهر أنها تخصّ أحداً من الشقة الحافلة بصوت الموسيقى. رجعتُ بخطواتي إلى الوراء، وقفت أمام الباب، طرقته مرتين ولم يفتح أحد. فكّرت أن أضعها تحت ثقب الباب المستطيل التّحتي وأدفعها واقياً نفسي من الموسيقى التي ستصفعني عند فتح الباب، لكنّي تنازلتُ عندما رأيت الزّر الذي يرن، فلم أره في البداية، فلم يكُن مضيئاً بلونه البرتقالي، كما أنّ المكان شبه مظلم هناك للإنارة الضّعيفة بالطّابق. ضغطتُ الزّر مرّتين ولم يفتحوا، تليت ضغطة ثالثة، بعدها فتح شاب الباب. ألقيتُ السّلام، فقلتُ له إني وجدتُ بطاقة تعريف، وأنها يمكن أن تكون لأحد الحاضرين. أخذها منّي، تعرّف إلى مالكها من نظرته الأولى، شكرني، ثمَّ قبل أن أذهب، طلب منّي أن أدخل لأحتفل بعيد ميلاده وأصرّ عليَّ كذلك، ورفضتُ بحسن نيّة وغادرتُ مودّعاً إيّاه بـ: «عيد ميلاد سعيد».

خرجتُ على بساط الأرض، ووجهتي كلّ الوجهات، رغبةً في أن أتيه وأبحثَ عن طريق العودة. أوَّل حافلةٍ رأيتها صعدت إليها، لم أر رقمها، قطعتُ تذكرةً ولم أسأل عن وِجهتها. المسافة التي قطعَتهَا الحافلة إلى محطّتها الأخيرة، كانت كافية لتجعلني سائحاً لأوّل مرة في مدينتي. توقّفت الحافلة، وكنتُ الرّاكب الوحيد، أنا والسّائق فقط، بقيتُ جالساً إلى أن نبّهني السّائق: «إنّها المحطّة الأخيرة!».

نزلتُ مُغترباً إلى مكاني المجهول، موقع لا أظنُّ أنّ قدميّ قد وطئتا تربته من قبل. تحسّستُ جيوب بنطالي بيدي، لم أكن أحمل هاتفي. نظرتُ إلى الدُّنيا حولي، وجدتُ نفسي مُحاطاً بالعراء؛ أشجارٌ عملاقة، ومصابيح الشّارع الذي أنا فيه منها اثنان مضاءان من أصل خمسة، بدا المشهدُ كفلم رعب.

تحرّكت بخطوات أرجع أدراجي من الطّريق الذي أتت منه الحافلة، وكانت نظرات السّائق تتبعني من مرآته الجانبيّة التي تنظر إلى الخلف. كان نسيمُ اللّيل مُنعشاً حدَّ أنّي ملأتُ صدري بالهواء أستسيغ رائحته برئتيّ. كان الطّريق موحشاً بعض الشّيء، وقد شعرتُ بالألفة، فأنا عائد من آخر الطّريق مُعيداً زمان العثرة إلى أوّله.

تلك العزلة التي تخدش المكان لم تُخفني، فقد عِشتُ بين براثنها سنوات. كان الصّوتُ الذي تُسمعه أوراق الأشجار يُغنّيني وأترنّم به معه، وصوتُ خطواتي على الحصى والعيدان الصّغيرة هو الآخر أشعرني بالسّكون الذي تنتسبُ إليه ضوضائي وحدها. كان كل شيء ساكناً وهادئاً، وتنفّسي هو وحده من يصدر ذبذبة حياة.

نزعتُ نظّارتي وتركتها في يدي مترجّلاً نحو المجهول الذي سيوصلني إلى شقّتي. لم أبالِ بالوقت المتأخّر، ولم أكن أضع ساعة يدي، توقيتي هو اللّحظة التي أنا فيها فقط.

كانت المنازل مطفأة، والأحياء نائمة، والسّيارات مركونةً تأخذ السّبات استعداداً لحرق بنزين الغد. رُحتُ أشاهد الأشياء ببهجة طفل صغير، شعرتُ أنّي خفيف بوجودي بينهم، فقد كنت المتحرّك الوحيد وسط الجمادات، والشّاهد الوحيد على هدنة الصفاء بين الليل والسماء. وكان القمر المرصّع في سمائي يبتسم لي من وراء الغيم، والطّريق المعبّد والمتلاشي أمامي بعيداً يلتحم مع لون السّماء.

مشيت في وسطِ الطريق الخالي والمستقيم الذي يمشي نحو ما لا أعلم، أتتبّع الأشرطة البيضاء في الوسط، أسير كحدٍّ فاصلٍ بين الجانب المنير والجانب المظلم. يميناً توجد المنازل، ويساراً يوجد سراب الأشجار والعتمة. كلّما كنت أقترب أكثر من الضّوء الأحمر لشارة الوقوف، كانت حدّة الأضواء تخف.

كنت أمشي وكأنّي المتحكّم في زوال الجمادات؛ كلّما تقدّمتُ ظلُم ما ورائي، كنت كمن يخرّب النّور بالظّلام، أمحي تلابيبه بتقدّمي.

أخرجت تذكرة الحافلة لأتنبأ بالسّاعة التي أنا فيها، والتّوقيت الذي صعدتُ فيه الحافلة كما تُشير التّذكرة هو ((22:53)) إضافةً إلى أربعين دقيقة تقريباً التي استغرقتها الحافلة مع مسيري هذا، ربّما هي الآن ((23:47))، لكن لا يهم.

أخطو وشريط اليوم يمرُّ على ذاكرتي، أحاول أن أخرّبه كلّما

اقتربت من الشّارة الحمراء، أترك ورائي حثالة الوجع وأكتفي أمامي بوجه الحقيقة، وأراقب مكر كلّ لحظة عسيرة مرّت، وأنتقي منها سبباً لسوء القدر، وأُرَشِّحُ كلّ تعبٍ خَطا عليّ وأترك بقاياه خالصةً ورائي. ما كِدتُ أصل إلى الشّارة، حتّى أمسى جسدي خفيفاً، وتعفّفت روحي، وانقشعت درجة من غمامة نظري.

تُهتُ فعلاً!

لا أدري أين قادتني قدماي في هذا الليل الموحش. لوّحتُ إلى سيّارة أجرة تقلّني، ذكرت له اسم المكان دون زيادة: «فندق شيراتون»، فشغّل عدّاده ليوصلني.

نقّدتُ سائق الأجرة، ومشيتُ بحذر أراقب حوالي، فقد كان المكان خالياً وزفير الليل ينشط به، وفي هذا الوقت وما بعده تكثر السّرقة، ويستيقظ الجانب الأسود للمنطقة. لم أكن خائفاً، ولا أعتقد أنّ أحداً سيُدركني. لن يمسّني أحد، فهالات اقتراب الموت تحيط بي، قد يفكرون بإيذائي، لكنّ تفكيرهم سيزول بعد أن تصلهم نظرة تشاؤمٍ منّي. دخلتُ من زقاق مظلم، مررتُ بالقرب من مدرسة ابتدائية بائسة. أكملتُ مسيري، ولم يقف في طريقي أيّ لص. تناهت إلى مسامعي جملٌ تجذب إلى الرّذيلة، والتي أبرزها: «الجو بارد، باغي تسخن الليلة!!»، وعبارات أخرى لا تقلّ عنها غوايةً وتحريضاً وتنشيطاً لإقامة ما يُقام. وللأسف، خيّبتُ ظنّ اللاتي أرَدْنَ ما أردن، لم ألتفت حتّى، ولم أعدّل في سرعة مشيي، إلى أنِ اختفيت دون حفيف يذكر.

مسافة طويلة أخرى لكي أصل من حيث جئت. أخذتُ الرّصيف الأيمن، أمشي بمحاذاة شجر منزليّ يوجد على كلّ باب

منزل. تعطّرتُ برائحة الخزامى وبعض الأنواع التي لم أعرف مصدر فوحانها من الأزهار. سـرتُ وسـرت، إلى أن اقتربت من المنعرج الذي أمرُّ على يمينه نحو الحي الذي أقطن فيه.

انجلت لي لافتة تشير إلى اليمين، بها كلمة واضحة والأخرى شبه ممحية، ولم يبقَ بيني وبين اللّافتة سوى ثوانٍ لأقربها. رفعتُ عينيّ من بعيدٍ إلى شقّتي المطفأة. همستُ في الهواء:

((أحيّيك يا قصر الوجع!))

الأشـياء حـول العمـارة كلّها نامت إلّا مخـدع الهاتف اليقظ، والذي لا يُغلق حتّى يفترق يومٌ بآخر. حيّيتُ من بعيد صاحبه الذي رآني أمرُّ أمامه، وأكملتُ طريقي نحو العمارة.

عندما دخلتُ الشقة، شعرتُ بأنّ ثقلاً زال عني، وأن أتون الدّنيا قـد جـفّ، وغـدا نـوءاً أتمتّع به بعد زواله. لن أقول أنّي أحسسـت بسعادةٍ ما، ولكن بهجةً ما استذقتها في فسخ التّملّق الذي فعلته مع الصّباح على غير عادتي.

ربضتُ على الكنبة أُطفِئُ الجهد الذي قمت به مشـياً ومتعةً. نظرت إلى الساعة، كانت الثانية عشرة والنّصف. لبست لباس نومي ونفضت بطّانيتي، وبعدها أرخيت عظامي على السّرير.

لم تأتني سِنة نوم. عيناي كانتا ساهدتين، وذهني كذلك. مرّت دقائق كثيرة وأنا بالحالة نفسـها، وكلّ شـيءٍ اتّخذ منحى العكس، فلم أعهد أن أنشط ليلاً، حتّى أنّي لم أتثاءب.

حملتُ جسدي واتّجهتُ إلى شرفة الغرفة لعلَّ عينيّ تُرهقان بالأضـواء الصّفـراء لأعمـدة الكهربـاء. في كلّ مـرّة كنت أطلّ من الشّـرفة فـي وقـت متأخّـرٍ من اللّيـل، دائماً مـا أرى الحارس الذي

يبقى ساهراً ونحن نيام، وحده مع هدوء اللّيل بجانب كلبه ذو الفرو الأصفر، وحده يتجوّل في الأزقة ينظّف بمكنسته جوانب الرّصيف. لا أعرف كيف يتحمّل رجل تجاوز الخمسين برد اللّيل هو وكلبه العجوز الذي طاردني أوّل مرّة سكنت في الحي، فلو لم يكن صاحبه آنذاك، لأخذ قطعة مهترئةً منّي. ما يُثيرني في الرجل هو إرادته تلك في تحمُّل وحشة الليل، وعالمه اللّيلي بأضوائه الوحيدة التي تُنير العالم الخالي من البشر، والعامر بالنّباح النّادر لكلبه العجوز وجمود السيّارات. لا أنكر أنّي كم مرّة خالجتني فكرة أن أهبط لأفعل مثله فأساعده في شطب الشّوارع، فلعلّ الوحدة يمكنها أن تجمعنا نحن الغرباء.

ماذا أقول! الوحدة لا تُقتسم، المشاركة محرّمة في قوانينها. كما أحترم حدود وحدتي، فهو الآخر لن يرضى أن يشاركني عزلته.

سمعتُ اهتزاز الطّاولة بسبب وصول رسالة إلى هاتفي. ابتعدتُ عن الشّرفة وذهبتُ إلى حيثُ يومض. كانت رسالةً متأخّرة من ياسمين. ترى ماذا تريد منّي في هذا اللّيل؟ تراها عرفت أنّي يقظ ولم يأتني النّوم؟

((حقّاً! متى ستأتي؟)).

أجبتها بأخرى: ((أتركيها مفاجأةً.. كسابقاتها)).

وردتني أخرى منها:

«سأتّصل بك الآن لتشرح لي مفاجآتك هذه!».

لم أكن في مزاجٍ جيّدٍ للحديث، فأرسلتُ فوراً قبل أن تتّصل:

«من فضلك ياسمين إنّي متعب، غداً أتّصل بكِ».

أرسلتْ من فورها:

«عنيدٌ كعادتك! لكنّك لن تنام قبل أن تقول لي».

أزعجني إصرارها الذي أعرف أنّه لن ينتهي حتّى تصل إلى مبتغاها، فأجبت فضولها:

«وأنت لحوحةٌ كعادتك، في الشّهر القادم».

أجابت:

«تُخدع بالخدعة نفسها دائماً، فلتكن زيارتك ثقيلةً على غير عادتها، إلى حينٍ إذاً».

كنتُ واقفاً، تسرّحتُ على السّرير وألحفتُ نفسي بغطائي، طبعت على الهاتف:

«إلى حين».

أرسلت رسالتها التّالية بعد دقائق:

«هيه وحيد، قل لي.. أتسعد بأن أُخْطَب؟».

هضمتُ رسالتها تلك، وأرسلت عن غير إرادة:

«سأحاول أن أبتهج من أجلك».

أجابت بأخرى كأنّها غاضبة شيئاً ما:

«إذاً لا تحاول، تصبح على خير».

جاءتني رغبة في أن أردَّ عليها بـ: «سأصبح على مضض»، لكنّي حجمتُ عن الطّبع المستحيل ولخّصتُ كلّ شيءٍ في كلمتين «وأنتِ أيضاً».

تجاهلتُ غضبها، وأزلت عنّي تمثيليّة اليوم، وحاولتُ جاهداً أن أقرأ شيئاً ريثما يُرهق ذهني بالأفكار، وتُتعب عيناي باختلاط الحروف واختلاف المعاني ومواضع النقط والفواصل.

ثمّ استكنتُ في سريري وأنا أراهن على صبحٍ جديدٍ أقلَّ

وجعاً، وأعرف كل المعرفة بأنّي سأصبح على مضض..

* * *

أسبوعٌ آخر انتهى، بجُمعته وخطبة الإمام التي دائماً تغيّر التّرتيب الرّاكن في نفسي، والتي تُعيد شحن أيّامي بأعدادها الفائقة التّضاعف، تعيدها صفراً بسبتٍ يكون مشمساً ومعتدل الحرارة كما يعهده جسدي في كلّ مراقبة لجوّه. ومرور الأحد الوازن هو الآخر مرَّ شبه عسير، شغلته في التّسكّع بسيّارتي، رغم أنّي لست من هواة التسكع، لكن الأحد ينفي كلّ التّناقضات بتأثيره، وقد أثَرتُ به جلبة أخرس بها صمته المخيف، فقد جِئتُ بنجّارٍ يُصلح باب المطبخ الخشبي، غيّره بأكمله، وكرهتُ أنا تلك الرّائحة الجديدة للخشب. وما أفاق حساسيتي ضدَّ الرّوائح القويّة، هو ذلك الدِّهان الذي طُلي به خشب الباب، رائحة الكحول المنبعثة منه آلمتني في أنفي وبعثرت قوّتُها مناعتي ضدَّ الروائح، شعرتُ منها بدوخة، وقد أشعلتُ أعواد بخور، لكنَّ رائحة الدّهان القويّة أبطلت رائحة البخور، فانتهيتُ بفتح جميع النّوافذ مُكرهاً لتُزال بتنقِية طبيعية، ثمَّ خرجتُ مطروداً من شقّتي بفعل الأحد وعطره النّتن، ثمَّ عُدتُ ليلاً، واشتريتُ فرشاة أسنان جديدة فالأخرى مرّ عليها ست أسابيع، واشتريتُ أيضاً عبوّة شامبو لنفاد الأخرى.

وطوال الأسبوع لم تأتني رسالةٌ أخرى من ياسمين. لم يغيّر ذلك شيئاً، فأن تأتي أو لا تأتي.. لا فرق، حلولها في هاتفي أو عدمه لن يزيد أو ينقص شيئاً، تجاهلها أو غضبها أو حتّى نسيانها لا يُفسّر شيئاً في رغبتي لعدم الرّد، وعقوقي أو بُعدي لها وجلاؤه لا يُغني من العادة شيئاً. ولستُ أمثّل بشكلٍ سيئ لأنّي لم أحاول

الاتّصـال بهـا، فلضـرورة غيابـي عدم نبش وتـر الحديث، والمرور في أحداث عابرة وغابرة بانقطاع، فقط ذلك الحضور الباهت لكي أواصل الغياب على طريقتي، ولن يُهمَّني عتابها القادم عند اللّقاء، ولكن ما توقّف عند حلقي غُصّة علقت به هو خطبتها الصّادقة أو الكاذبـة والتـي أعربـت عنها ذات اثنين، لا أعرف التّفاصيل، ولكن إذا كانت كذبةً أو مزحةً فلا بأس، وإذا كانت حقيقة.. سأتركُ عجلة الزّمـان تـدور إلـى أن أنتهي وأبتهج كما قلت لها، ليس صبراً.. بل تعوُّداً على الحرمان الذي أخذته خطيئةً من أوّل نفس.

IV

كان بحر أغنياتٍ ذلك الأسبوع، غادرته بكلِّ راحته وإزعاجه نحو الذي يليه.

يوم الخميس، يومٌ من أيّام الله، معتدلٌ ورطبٌ بشمسه وهوائه وفجره. أرتع فيه في مكتبي بين ملفّاتٍ وسجِلّات، وطلبات واتصالات، ولا ألقي بالاً لما تفتعله بي الدّنيا، أداهمها وأراوغها بالعمل، وأواصل الكدح العقيم في زجٍّ رغبات الحديث في طي الامتناع. وتجنّب حشد نفسي في خانة المناصرين للتّهميش في ثقافة الغير وفي ذلك التّفاعل في اجتماعات الشّركة، ووقاية لنفسي من الحرج بحشر نفسي وسط ذينك الاثنين اللذين على ما أعتقد أنّهما سيحصلان على مكافأة الخطوبة أخيراً. كم كانت نجوى نافعةً حينما تأخذ سعداً في مهبِّ حديثٍ فينسيا وجودي فأغادر أحياناً دون كلمة، وكم أشكرها سرّاً على جذب سعد نحوها عندما أكون واقفاً أنا وهو نتحدَّث في أشياء تُعاد وتتكرر، وكم لها الفضل في أخذ مقعدي بجانبه في المطعم، وكان خيراً لسعد هو أيضاً أن يُقابل امرأةً مثلها، لن أقول أنّه كان قدراً، لكن كان شيئاً يشبه الصدفة، والتي كنتُ أنا جامعها في حضرة وجودي بينهما.

أبهجني اختلائي برقعتي الجديدة في ذلك المطعم. ففي كلّ

مرّة أدخل أبوابه، أدخلهُ ثقيلاً، وفي كلِّ مرّة آكل سلطته يرجعُ لوني للونه ومعِدَتي لشبعتها، وفي كلّ مرّة أخرج من أبوابه، أخرج خفيفاً وظلّاً وبمزاجٍ لربّما أفضل من سابقه، ويصفو جوّي العكر، وتُمحى من ذاكرتي شوائب الأرقام والأصفار، ولغة العَدِّ والجمع، واللّصق والنّقر، وتُصنعُ صفحةٌ جديدة تصلُح للملْء، ولإعادة كتابة اللّغات نفسها بالرّموز نفسها بطرائق أخرى.

مرّت فترة الظّهيرة، ولا يعملُ قسمي بعدها في يوم الخميس. عندما بدت لي الشّمس غائبة، ونسيم الهواء يهَبه فصل الشّتاء إراحة للرّئة، قرّرتُ أن أخرج لأتنزّه. أردت الانسجام مع شهر فبراير الذي يُكسي نفسه معاطف، والذي يُنعشني ببرده اللّاذع، والذي تلعب بي رياحه الباردة نافضةً عنّي بقايا الحزن. أفضّل هذا الشهر كثيراً، فلياليه الطويلة تشبعني نوماً، ونهاره القصير يقيني أزمة اليقظة كثيراً. يُعرف فبراير بالفنلنديّة بـ: ((هيلميكو))، والتي تعني شهر اللؤلؤ، هو شهر لؤلؤ بحق.

رُحتُ أتجوّل بين النّاس متخفّياً في معطفي البنّي، وكانت ريحٌ تأتي بين حين وآخر لتحرّك الإيشارب المُنسدل على عنقي، وتحرك شعري لتجعله غير مرتّب بشكلٍ أنيق.

جذبني بائع الفشار، اشتريت كيساً، وأعطيتُ إشارةً عصبيّة لقدميّ وعييّ أن تذهبا أينما شاءتا، على هواهما. وكلُّ ثلاث خطوات أو أربع آكل الفشار من الكيس الكبير والمعدِّ للمسافات الطويلة من المشي، وكم مرّةً جاءت ريحٌ لتطيّر حبة فشار كانت تتّجه نحو فمي، كان شيئاً من المعاكسة اللّطيفة.

جلستُ على أحد الكراسي بساحة الأمم المتّحدة، أشاهد

النّـاس يركبـون سـيّارات الأجـرة البيضـاء، صفٌّ طويـل ووِجهاتٌ مختلفـة، وحافـلات كثيـرة لـكلٍّ منهـا وجهـة، تبدو كحيتـان كبيرة مصطفّـة وتعـوم في الشّـوارع، تلبّي نداء العودة فـي اللّيل باجتماع كلّ قطيعٍ إلى مرآبه الضّخم استراحةً للعودة باكراً مع طلوع الفجر.

نهضتُ لأعيد التّجوال بعد أن نفد الفشـار. مررتُ على باعة أرصفة، كانت هناك ساعات يدويّة مفروشة على الأرض، وهواتف نقّالة، وأحذية، ونظّارات شمسية، وبعض الكتب. وقفتُ قرب محلٍّ للملابـس. توقّفـتُ خلـف زجاجه للحظات، أنظر إلى حذاء أسـود لامع أعجبني. فكّرتُ في العروج عليه غداً لاقتنائه. أكملتُ مسيري ووجوه النّاس بأشكالها وأجناسها أصابتني بنوع من الدّوخة.

يبدو غريباً عندما تجد محلَّ مثلّجات في فصل الشّتاء، والّذي يُصبح نافعاً جدّاً ومغرياً لأولئك الذين احتفلوا بشـيءٍ سـاذج قبل سـبعة أيّام. كان المكان مكتظّاً قليلاً، ومعظمهم شـباب يصغرونني سـنّاً. ظللـتُ متّكئاً على باب سـيّارة ورائي، أضـع في ذهني نكهة تُعجبني أختارها، تردّدتُ بين الفانيلا والشوكولاتة السّوداء. ارتأيت أن أجعـل اليـوم أبيـض، فالأبيـض لـونٌ ثـانٍ لأناقة الحـزن. ذهب الشّباب، وطلبتُ أنا واحداً بالفانيلا. نقّدتُ العامل وعدتُ أدراجي إلى مكان جلوسي لأكمل ما تبقّى من البوظة.

أنـاسٌ يمشـون، وآخـرون يجيئون، مشـاغل يجـب أن تُضبط، وأعمـال يجـب أن تُنجـز، معظمهـم فـي بذلات رسـميّة، يحملون حقائـب يدويّـة وهواتـف بيـدٍ على أذن. كانت خُطاهم تتسـارع، لا وقـت للرّاحـة أو لتعديل سـرعة المشـي. لم أر أحـداً فيهم يلتفت. لا يختلف الأمر بالنّسـبة إلى شـركتنا نحن أيضاً، قد أشـبههم في

إدارة العمل والقيام به، لكنّي لست مهووساً بمثاليّة كلِّ الأشياء. أكره ربطات العنق، فهي تشدُّ عليَّ الخناق بمعانقةٍ تُرضي بضيقها الرّؤساء والزملاء، لا أحب تلك المظاهر الزّائفة. أتذكّر أنّ أوّل أيّام عملي كانت مستفزّة للبعض، كنتُ آتي كشخصٍ عادي خارجٍ للجلوس في المقهى أو كشخص يريد أن يبتاع، بل مرّةً صرتُ محور حديثٍ لدى بعضهم عندما جئتُ مرتدياً بنطال جينز وقميصاً قطنياً وقلنسوة كنتُ أضعها على رأسي، حينها جاء سعد يُعاتبني ويطلبُ منّي أن ألتزم. قال لي إن العمل شيء والتّصرُّف على راحةٍ شيءٌ آخر، بعدها غيّرتُ ملابسي بملابس رسميّة، وأذكر أوّل مرّةٍ وضعتُ فيها ربطة عنق، لم أرتح لها، شعرت بهوسها المزيّف فور وضعها، أزلتها وقصصتها بمقص أربعة أجزاء، ثمَّ رميتها في حاوية بعيدة عن الحي. لكن الآن الكفاءة تنفي تلك الأشياء البخيسة، واكتفيت اتّفاقاً مع سعد بالبذلة فقط، أمّا ربطة العنق فرفضتها، ورضي بقراري، فهو أفضل من حالتي إن أصبحتُ صعب المراس.

أكملتُ البوظة بجزئها المقرمش الأخير. أخرجتُ من جيب معطفي منديلاً ورقياً، مسحتُ بقايا البياض عن فمي. عدّلتُ نظّارتي التي انزلقت، ووضعتُ يديّ على فخذيّ. رُحتُ أراقب صخب البشر؛ سياراتهم، ضوضاء أبواقهم، أصوات الكُعوب العالية للنّساء تطرق الأرض، أصوات الباعة وهم يُحاولون التّملّق للمارين للشراء، ملل المقاهي، ونُقط السّجائر الملتهبة ودخان أفواهها، والعِلْمُ المُلقى على الأرض والذي يُباع بين دفّات كتب، وصوت الدّراهم التي تنتقل من جيبٍ إلى جيب، وقهقهة بعض المارّين من أمامي. الكلّ يتجمعون في مكانٍ واحد كاستعراضٍ ما للحركة،

والكلّ يختلفون في أفعالهم ويتفقون في ثقل الملابس، وجلّ الناس يحملون مظلّة، لا مخافةً.. بل ترقّباً لمطرٍ يُبخِّرُ عنهم توتُّر اليوم.

اتّحدَ أزيزُ الأصوات في طبلتي أذني، فأدرتُ عينيّ كرادار أبحثُ عن وجهة للسّكينة. حدّدتُ وجهتي. ترجّلتُ مُحاولاً ألّا أحاذي أحداً من الجموع التي تمشي مسرعةً. وطفلٌ مع والدته يأكلُ المثلّجات، تعثّر فألصق بوظته ببنطالي، اعتذرت الوالدة، وابتسمتُ في وجهها دون كلمة. مسحتُ على شعر الصّغير ثم مضيت. أخرجتُ منديلاً ورقياً آخر، مسحتُ أجزاء بوظة الفراولة عن بنطالي، أزلتها ورميت المنديل في حاويةٍ صغيرة معلّقة بعمود كهرباء.

المكتبات أفضل الأماكن للابتعاد عن الصّخب، كم تساءلتُ لماذا هي كذلك، لم يَكفِنِي تفسير بأنّ من يرتادها بغية شراء كتاب قليل، السّرُّ أنَّ صمتها ذاك ورائحة الكتب يحوطهما حقل ما يعزِلك عن الخارج، والسّبب وراء كلّ هذا، أنّ فيها أمواتاً، أصحاب قبور موضوعةٌ أسماؤهم على أرفف كتب، وآخرين أحياء لكن قليلون مهما كبُر عددهم. وكان في اعتقادي دائماً أن أولئك الذين يأتون لاقتناء كتاب، يُعزى فعلهم إلى زيارة فقط، كأنّهم يزورون ميتاً في قبره، أو بالأحرى يعتقون رقبة كتاب بدفع ثمنه.

دخلتُ المكتبة مُسرعاً. اختفيت وراء رَفٍّ كبير، رحت أتنقل بين أقسام الكتب، ولم يُثرني سوى رسم على روايةٍ لفكتور هيغو، رجلٍ جاثٍ على ركبتيه ويداه مقيّدتان وراء ظهره، وأمامه مقصلة، وكانت ملامح وجهه مخدوشة، موصومةً بأسى القدر والعقم الذي تُنبعه في وجهه تلك الأرملة «المقصلة» كما عبّر عنها كاتبها في روايته، تلك الأرملة التي تُدمي آخذة كلّ ما يملكه المحكوم بقرانها. أشحت

نظري مبعداً إيّاه عن التّحديق في اسم الرّواية، سأزدادُ حِنقاً من حكم الأقدار عليّ، ومن التّشريد الذي أُرديتُ به. رُحتُ أترجّلُ بموازاة الرّفّ العامر بالكتب، أُمتّع نظري بالأشكال والحجوم المختلفة للكتب، أشتمُّ الرّائحة التي تنبعثُ منها. قد تكون متشابهةً في الرائحة، لكن حينما يُفتح أحدها تتغيّر الرّائحة على شكل كلمات، كشأن عيدان البخور، كلها في مواجهة أوّل شُعلة على رأسها، تُعطي رائحة تتشابه فيها جميع نكهات الرّوائح المخزونة، لكن عند اشتعالها جمراً، تستسيغ حاسّة الشّم جمالها وتُفرِّدها عن البقيّة.

مددتُ يدي عشوائياً إلى كتاب دون أن أرى ما نوع الكتاب. ولّيتُ ظهري لحائط مقابل لرف أسندتُ عليه ظهري، فتحتُ الكتاب أقرأ بعيني لا بعقلي، فلا أريد أن أدرك أو أعي أو أفهم ما لُغة التّواصل التي يريد بها الكاتب إيصال أفكاره، وكان كتاب صحّة. مدَّدْتُ به عشر دقائق أهدِّئ فيها جوّ الخارج الذي التصقت بي بقاياه. أرجعتُ الكتاب إلى مكانه، وأكملتُ دورةً كاملةً وبطيئةً أشتّتُ فيها نظري بالمكان. كنتُ الزّائر الثّاني الموجود بالمكتبة، فقد سبقتني للزّيارة سيّدة اشترت كتب أطفال. دفعتْ ثمنها ثمَّ خرجت. خرجتُ بعدها، وأفكار تخسيس الوزن الذي خلّفه كتاب الصّحة، كانت تُكمل دورتها في ذهني حتّى اضمحلت إلى آخر كلمةٍ منها في سلّة اللّاوعي.

فكّرت أن أذهب إلى مقهى، أجلسُ وراء زجاجه الذي يفصل بين الواقفين والمترجّلين وبين الجالسين والمتحاورين. ابتعدتُ عن المكتبة أمتاراً قليلة، ووقفتُ على حاشية الرّصيف بجوار نخلة. نفختُ في يدي لتدفئتهما، ثمَّ وضعتهما في جيبي معطفي، ورحتُ

أبحث بعيني عن مقهى قريب وخالٍ بعض الشّيء. ولكثرة المقاهي لا أذكر أيّ اسم لأي مقهى، فما نفع الأسماء في قواميسي!. رأيتُ واحداً قرب زاوية حيث توجد الحافلات، انتقلتُ إلى الرّصيف على يميني، والمؤدّي إليه مباشرة. أسرعت في سيري كي أُبطل أزيز عجلات السّيارات التي تمشي وتجيء بالقرب من الرّصيف الذي أنا عليه. دخلتُ المقهى، كان خالياً كما أردتُ لي سوى من شخصين. جلستُ على مقعدٍ إلى اليمين قرب الزجاج الذي يُطلّ على الخارج. كانت جريدة موضوعة فوق الطّاولة، حملتها ووضعتها على الطّاولةِ المجاورة لي. حملت منفضة السّجائر ووضعتها على الطّاولة التي وضعتُ عليها الجريدة. عدتُ إلى مكاني بعد أن أشرت إلى النّادل أن يأتي ليأخذ طلبيّتي. قاومتُ رغبتي في حبّات البن، فانتهيتُ بطلب إبريق شايٍ صغير.

رحتُ أشاهد الأفلام الصّامتة والمتحركة من وراء الزّجاج؛ التّْرام وأشخاص بقمصان برتقاليّة يستوقفون النّاس لخدمة ما تتعلّق بأرقام الهواتف وعروض مُقامة. كانت مقابلة كرة قدم مُعادة، منقولة بتلفاز من الحجم الكبير موجود بالمقهى. لم أتعرّف إلى البلد الذي كان منه الفريقان. خلال الدقائق السّبع التي هِمتُ فيها في المباراة انتظاراً لإبريق الشّاي، سجّل أحد الفريقين الذي هو الفريق الأزرق هدفه الثّاني بضربة جزاء، حيثُ أُخرج حارس الفريق الأصفر ببطاقة حمراء لعرقلة مهاجم خصمه، والتي على إثرها جاءت ضربة الجزاء، والفريق الأصفر كان دون أهداف.

عندما تحسّستُ شفتيّ بأصابعي، كانتا جافتين، حاولتُ أن أرطّبهما بلساني، لكنَّ لعابي كان جافّاً هو الآخر. حملت كأس

ماء كانت على الطّاولة، جرعتُ جرعتين، ومضمضتُ كي تستعيد الغدد اللّعابيّة نشاطها. سكبتُ في كأس صغيرة الشّاي، ارتشفت من الكأس، أحرقَت لثّتي، لكنّ لا بأس بها ما دام الجوّ بارداً. وكان البخار المتصاعد منها ومن فوهة الإبريق الصّغير يُضفيان دفئاً على الهدوء القائم، المتداخل مع صوت الجماهير المُعلّق على المباراة، وأيضاً مع صوت الرجلين اللذين يتحاوران وطقطقة حذاء النادل وهو يخدُم جماعة أتت وجلست على الكراسي الخارجيّة دون أن تدخل.

أنفاسي الباردة جعلت الزّجاج الذي بقربي ضبابياً، مسحتُ الزّجاج بيدي، وعلّقتُ نظري على مباراة كرة القدم.

أنهيتُ الكأس الثّانية من الإبريق، شعرتُ بالحرارة تطلعُ مع جسدي. نزعتُ معطفي، رتّبتُ قميصي الذي انكمش، ونزعتُ نظّارتي التي تغمغمت هي الأخرى ببخار الكأس التي نفختُ على سطحها لتبرد، مسحتُ زجاج النظارة بمنديل ورقي آخر ثمَّ أعدتُ وضعها. انتهت المباراة بفوز الفريق الأزرق بهدفين لهدف، وبدأ المقهى بالامتلاء، فقد دخل ثمانية زبائن آخرين، ثلاثةٌ منهم اجتمعوا على طاولة بقربي، وكان أحدهم يدخّن، لم يُزعجني دخان سيجارته، فقد اعتدتُ على رائحة التّبغ مع سعد، أدري أنّ حالتي الصّحية لا تسمح لي، ولكن لم أرد أن أزعجه، فقد بدا متوتِّراً، لذا بكلّ بساطة حملتُ معطفي وغيّرت مجلسي إلى الجهة اليسرى دون أن أثير قلقهم أو أظهر أيّ انزعاج.

بعد دقائق، وبعد أن غيّر عامل المقهى القناة الرّياضيّة إلى قناة ناشيونال جيوغرافي، قزّزتني بعض الحشرات، فأخرجتُ هاتفي الذّكي، وفتحتُ بريدي الإلكتروني لأرى إذا ما ولجتني

أيُّ رسائل. كانت علبة الواردات كما هي، لا شيء جديد. أقفلتُ الهاتف وعدتُ إلى إكمال الكأس الثّالثة من الشّاي، والتي لم يتبقَّ فيها إلّا قليل. احتسيتها بأكملها. ما إن صببت ما تبقّى من الإبريق الصّغير حتى دخل الشّخصان الصُّدفة! سعد ونجوى كانا يتجوَّلان هما أيضاً. لم أجد ملجأً للهروب أو الاختباء سوى اللجوء إلى التزام الصّمت. لكن بلا جدوى، فسرعان ما دخلا والتفت سعد إلى يساره يبحثُ عن طاولة، فلَمحني. توجّها نحوي. جلست نجوى على الكرسيِّ الذي بجانبي، ونقل سعد كرسيّاً من الطّاولة المجاورة وجلس مقابلاً لنجوى التي على يميني.

كنت دائماً الحدَّ الفاصل بين الأشياء، حياديّةٌ هي طبيعتي بكلّ قصديّتها وغير قصديّتها.

قال سعد:

- ماذا تفعل هنا أوّل مرّة أراك في مقهى؟

- ليست المرّة الأولى يا صديقي، إنّها عادة الخميس.

بقيت نجوى صامتة. كانت تحمل هاتفها الذّكي تتصفّح. وقد لاحظت فيها شيئاً منذ أن دخلت، غيّرت هيئتها قليلاً، وأصبحت تضع غطاء رأس.

قلتُ لها:

- نجوى..

رفعت رأسها نحوي وقالت:

- نعم!

ابتسمت وأشرتُ بعينيّ إلى ما تضعه على رأسها. قلت:

- راقني شكلكِ الجديد.

رمقـتْ نجـوى سـعداً بنظـرات، ورمقها هو الآخـر بالنّظرات نفسـها. أبعـدتُ الصّينيّـة الصّغيـرة التي عليها الإبريق وكأسـي التي قرُبـت أن تفـرغ من شـايها، أفسـحتُ مسـاحةً كافية علـى الطّاولة. وضعتُ مرفقيّ عليها ثمَّ شبكتُ أصابعي، وقلتُ مع تنهيدة خفيفة:

- .. ما قصّتكما؟

قبل أن يقول سعد شيئاً، جاء النّادل يقطع كلماته التي كانت تريد أن تخرج. طلب سـعد قهوةً بالحليب، وطلبت نجوى عصير ليمون.

ذهب النّادل، وأُفرِجَ عن سعد وعن ما كان يريد قوله.

مدَّ سعد يدهُ إلى يد نجوى وأمسكها وأحكم قبضته، قال لي والفرحة تعلو وجهه:

- أُعرّفك إلى خطيبتي.

لم تبدُ عليَّ المفاجأة، كنت أعرف أنّ الأمور سـتؤول إلى ما حدث.

قلت:

- مبروك.. مبروك..

قال سعد وتلته الكلمات نفسها من نجوى:

- الله يبارك فيك.

بعد دقائق من الحديث، نهضتُ من مقعدي، وذهبتُ إلى دورة المياه. عدتُ وطلبت من النّادل أن يأتيني بإبريق شاي آخر. أغرتني رائحة البن الصاعدة من قهوة سـعد، رغم إبطال الحليب شـيئاً من منـاداة الرّائحـة، إلّا أن قليـلاً منهـا كان كافيـاً ليوقـظ رغبتي، لكنّي قاومت بالشّاي وبكثيرٍ من الإرادة.

بعد أن جلستُ، قالت لي نجوى:

- وأنت؟

قلت:

- أنا ماذا؟
- ألا تفكّر في خطبة إحداهن، أو الزّواج عامّة؟

لم أتردّد في أن أقول مباشرة في ما كان يجب أن أفكّر فيه. قلت:

- لا أريد الآن.
- وهل هناك سبب؟

ارتشفتُ رشفة شاي من كأسي، قلت بعد أنِ اعتدلتُ في جلستي:

- وهل للإرادة سبب؟

تدخّل سعد قائلاً:

- اتركيه يفعل ما يشاء، إنّه لا يستمع لأحد، حتّى أنا لا يُمكنني أن أغيّر رأيه إذا ما عزم على شيء، وثقي بأنَّ أجوبته مطلقة.. لا تُقلقي نفسك.

قالت لي نجوى:

- هل أفعل بنصيحته؟
- افعلي ما تشائين.

كان يجب أن أنهي النّقاش الذي يدور في ملعبي، قلتُ لها:

- هناك بعض الأشياء، أحبُّ تركها إلى أن تأتي، والزّواج شيءٌ قد يعود إلى منطق تلك الأشياء التي تأتي مشيئةً لا رغبةً أو تفكيراً.

قالت:

- أرى أنّـك متشـكّكٌ بعـض الشّـيء في ما تقـول، فقد قلت «الزواج قد يعود إلى..».

قال سعد:

- لـن يُجيبـكِ صدّقينـي، قلـت لـك أنّ أجوبتـه مطلقـة، لا تشكّكي.

قلتُ حينها:

- تريدين جواباً، إذن دعيني أقول لكِ إنَّ الاحتمال وجهٌ آخر لليقين.

ضحك سعد وقال لنجوى:

- قلـتُ لـكِ، اتركيـه يفعل ما يشـاء، لا يُمكنكِ فهم ما يُفكّر فيه، هكذا هو، لا تُتعبي نفسـكِ عناء توقّع الإجابات كما تفعلين معي.

لم أعلم إن كان سعد حينها يجاملني أم يتملّقني.

هزّت نجوى كتفيها وقالت لي:

- افعل ما يحلو لك، حظّاً سعيداً!

وقفتُ حينها، وقلت:

- حظّاً سعيداً لكما أنتما أيضاً، اعتنيا ببعضكما.

أَلحّـا علـيَّ بالبقـاء، إلّا أنّي رفضت بعد أن كان صوت الأذان حليفي مُعلناً عن صلاة العصر.

مـددتُ يـدي لأحمل معطفي الذي علّقته على ظهر الكرسـيِّ الذي كنت جالساً عليه، ارتديته، وتوجّهت نحو النّادل دون أن أنبس بكلمةٍ لهما، وتركتهما خلف ظهري يراقبانني كأنّي أقوم بأفعال غير

عاقلـة. دفعـتُ ثمـن إبريـق الشّـاي وثمن ما طلبـا، وقبل أن أخرج لوّحـتُ لهمـا بيـدي، وكانت نظراتهما تخترقان الزّجاج تتبعاني إلى أنِ اختفيتُ وراء التْرام الذي كان مارّاً.

لم آتِ بسيارتي، فالمكان قريب من العمارة حيثُ أقطن، قد تستغرق المسافة عشرين دقيقة. رَجِعتُ من الطّريق الذي أتيتُ منه، ومرّت أربع دقائق منذ خرجتُ من المقهى تاركاً الاثنين في راحة ليتحدّثا كما شاءا كما يحدث دائماً، لكنّهما أتيا في الوقت المناسب لرحيلي عن المقهى، فقد فكّرتُ أنني إذا ما زاد اكتظاظه سأغادر، وقـد كان حضورهمـا إشـارة إلـى مغادرتـي. قد يظنّـان أنّي أهرب منهما، لكنّي لا أفعل، فقط أخاف لوم نفسي إذا ما خرجت أنانيتها في حديث، أو تخرج كلمات باردة وقاسـية، فقد لا أشـعر بصدى الكلمات الجارحة التي تخرج من فمي، لذا أفضّل ترك أثري يلمسُ جـزءاً مـن العتـاب، إضافـةً إلى أنّي لا أحبّـذ فعلهما بجعلي محور الحديث دائماً فينسـيا سـبب وجودهما معاً فيّ، وسـعد يُجيد خلق الحوار بيني وبينه، كما أنه يعرف كيف يُثير لغة تواصلي، وقد اختار شريكةً تشبه فضوله وتنتقي أسئلتها بعناية، وضغطهما المشترك لم أعُد أحبّذه، يُخرجانني في كلّ مرّة من منطقة الرّاحة التي أنا فيها.

تعبـت قدماي من المشـي، فلم أعتـد الحركة كثيراً، ولا أدري كيف أواصل العمل في الشّركة بدون تعب، لربما هي إرادة ما تتولّد عنـدي هنـاك ضـدَّ العياء الذي يُخلّفه مرضـي. الأمر الآن مختلف، فالأمر عائدٌ إلى جسدي لا إلى عقلي. شعرتُ بأنَّ قدميَّ قد سخنتا والحـذاء أيضـاً زاد الحـرارة بالتصاقـه بقدمـي. وقفتُ قـرب محطّةٍ صغيرة لانتظار الحافلات. جلسـتُ على مقعد، ولحسـن الحظِّ لم

يكـن أحـدٌ ينتظـر قـدوم الحافلة. حرّرت رباط حذائـي وخلعته. مرَّ أمامـي صبـي، كِـدتُ أن أطلُـب منـه أن يأتيني بقنّينة مـاء من محلٍّ بقالة في الضّفة الأخرى من الشّارع، لكنّي لجمتُ لساني، فكبريائي الأحمـق فـي عـدم طلـب المسـاعدة لا يسـمحُ لي. ارتحـتُ قليلاً، أعدتُ ارتداء الحذاء دون أن أعقد رباطه، ولكي لا يُرى الرّباط أو أتعثّـر بـه، دسسـته داخل الحذاء في الجانبيـن قرب كعبي، أزعجني قليلاً، إلّا أنّه أفضل من السّـابق. ذهبتُ ببُطءٍ أصبر على التّورُّمات غير الظّاهرة في قدميّ، أمشي مشية البطريق وأحاول أن أخفي ألمي. توقّفتُ في الوسط، فقد كان طريقاً سيّاراً ذا اتّجاهين. ومرّةً أخرى أجدني الحدَّ الفاصل بين القادمين والرّاجعين. بدت لي فسحة كبيرة لكي أمرَّ بألمي، ووصلتُ بسـلام دون إهانةٍ أحد السّـائقين أو بوق سيّارة. اشتريتُ قنّينتين صغيرتين، وعدتُ حيث كنت قاعداً بعد أن أعدت المشهد نفسه، وقوفاً وتقلّباً في مشيتي وتألّماً.

شـربتُ القنّينـة الأولـى دُفعـةً واحـدة، وكان مشـهدٌ من عصر السّـرعة يمرُّ أمامي، واختلاط ألوان السّـيّارات عبث بنظري، وأكثر الألـوان كان لـون سـيّارات الأجـرة، أحمر وأبيـض. خنقتني رائحة البنزين التي خلّفتها شـاحنة مرّت بمحاذاتي، وذاك الضّجيج القائم زاد من الألم في قدميّ، فأصبحتُ في حالة ميلودراما كدرية.

لا بدَّ أن يحدث شـيءٌ في كلِّ يوم أعيشـه يُكدر حياتي هذه. أحياناً أفكّر في أنّي وُلدتُ لأشقى بشكلٍ جيّد، ولأتألّم بشكل جيّد، ولأتعب بشكلٍ جيّد.. لكنّي فقط لا أعيش بشكلٍ جيّد.

بقيتُ جالساً قرابة الثّماني دقائق، ثم جاء شخصٌ ينتظر حافلةً سـتأتي. وقفـتُ حينهـا وأكملتُ سـيري. فكّرت في أن آخذ سـيّارة

أجرة توصلني، لكن دون جدوى، فلم تتوقّف أيّ واحدة رأت إشارة يدي، ورفضتُ بالمرّة ركوب واحدة وإن كانت فارغةً من الرُّكاب. أكملتُ سيري الذي ستتضاعف مدّته التي كان يمكن أن تكون خمس عشرة دقيقة، إلى ضعفها أو ربّما أقلَّ من ضعفها بدقائق.

وصلتُ أمام باب العمارة. حاولتُ ما أمكن أن أُصلح من مشيتي. عندما دخلت نزعت حذائي، خفَّ عناقه العاصر لقدمي بعد ذلك. شعرتُ ببرودةٍ وراحة عندما لامسَتْ قدماي الأرضيّة الباردة. جلستُ على الدّرجات الأولى. كنت مجهداً إلى أقصى درجة. استجمعت نفَسي المتبقّي لأصعد السّلالم. الدرجات الخمس الأولى صعدتُها بصعوبة، وتبقّت ثماني درجات لأصل الطّابق الأول. رحتُ أفكّر من أين يُمكن أن آتي بصبرٍ يحملني إلى هناك. صعدتُ الدرجات الثّماني مستعملاً يديّ ورجليّ.. حبواً. لم أستطع المواصلة، ولم يُرَ لي حلٌّ غير المصعد. عدّلتُ نظّارتي التي انعوت، وشددتُ عزيمة قدميّ بألمهما نحو المصعد، كي أضغط على زرِّه ليأتي ليُقلّني. صعدته بعد أنِ انفتح.

أزعجني ضوء المصعد، وزاد حرارة فروة رأسي. انفتح الباب أخيراً يُعلنُ عن وصولي. خرجتُ مهزوماً. تركت الحذاء من يدي ليرتطم بالأرض. تحسّستُ بيديّ قميصي، وكنتُ أنُزُّ عرقاً، وكان العرق أيضاً يسيل من مسام جبهتي. مسحته بيدي المتعرِّقة أيضاً، وواصلتُ واقفاً التنفُّس البطيء والمتّزن. ثمّ حملت، بكلّ الأسف على نفسي، حذائي، ودخلتُ شقّتي وفي حلقي آلاف الغصص.

نزعت الجوربين، وانتعلتُ خفّي. لم أفكّر بعدها في شيء. وبفعل لم أعِه وجدتُ نفسي عن تصرُّف غريزيٍّ تحت الماء داخل

الحمام. سرعان ما خرجت، استعدتُ عافيتي النّفسيّة تدريجياً، لكنَّ قدميّ جعلتاني أبقى رابضاً تارةً على الأريكة وتارةً على السّرير، فقد وضعتُ الثّلج على بعض الجهات المتورّمة، ووضعت فوق الثّلج ضمادات بيضاء. وصلّيتُ جالساً على كرسي بكلّ ما أوتيتُ من ضعف.

كان الجوُّ البارد حليفاً لي، فبوجود حفيفه الذي يروي مضجعي برودةً، حاولتُ معه أن أنسى حرارة ألم قدميّ، وأن أُهَوِّي ذهني من حرارة الأضواء التي سلّطها عليَّ المصعد، والتي جعلتني حينها أفقد طعم الصّباح الذي عشته رفاهيّة، وطعم بردِ الجولة التي قمتُ بها.

عندما كنت جالساً على الأريكة أشاهد التّلفاز، شعرت بجوربيّ قد تبلّلا بفعل ذوبان الثلج، وكانت لذّة ما جعلت بدني يقشعرُّ تجمُّداً. نزعتُ الجوربين والضّمادات، واكتفيتُ بترك قدميّ عاريتين كي تلتمسا برودةً طبيعيّة، وشعرتُ أيضاً بالتَّعب يأخذ عضلات كتفي ورقبتي، وكان جزئي الأسفل كلّه متعب، فقد أُجهِدَ بالمشي. لم أُرد النّوم على الأريكة، فهي تؤلم ظهري. نهضتُ وأنا أحمل ريموت التّلفاز في يدي، ضغطتُ الزّر الأحمر لأطفئه، ثمَّ رميت الريموت على الأريكة. مررتُ من الرّدهة وأنا أضع يدي على الحائط مستعيناً به في المشي، دخلتُ غرفتي، فتحتُ دفّة النافذة لتدخل أشعّة الشمس الباهتة إليّ، أشعلت المصباح الصّغير قرب سريري، ورميتُ بجسدي على السّرير آخذاً قسطاً من الرّاحة، أُطفئ فيها عينيّ وأريح فيها أليافي العضليّة التي أُرهِقَت اليوم بطريقٍ طويل، كما لأُخرسَ كدمات قدمي. قبل أن أغمض،

حملتُ الهاتف لأُوقّته على السّادسة. وبضغطة خاطئة فُتحت قائمة الهواتف، وظهر لي رقم ياسمين واسمها. أنهيت توقيت الهاتف، ووضعتُه بعد أن نزعت نظّارتي ووضعتها على طاولة صغيرة قرب سريري. أعدتُ استلقائي، ثمَّ أغمضتُ عينيّ، وشعرتُ بأنّي يجب أن أقول شيئاً. غيّرت موضع جنبي الذي نمت عليه من الأيسر إلى الأيمن. رمَّشتُ نحو الزّرقة الفاتحة من النّافذة وأغمضت عيني:

«تصبحين على خيرٍ ياسمين».

V

ضوء النّهار بدأ يختفي تدريجياً، والشّـمس سـرعان ما بدأت تدخل في مرحلة السّبات تاركةً وراءها أشعّةً ضئيلة تضيء الأجزاء العلوية للمدينة، وهنِئتِ الدّنيا من مشاغلها، وثياب الصّباح ستُستبدل بعد قليل بثياب اللّيل، وستُشعل الأضواء منيرة جمال الأحياء ليلاً، وسيُسمع جمال أصوات المآذن التي تُعلن عن صلاة المغرب، كما هي بداية ترتيل الآيات جهراً.

اهتزّ رنين السّادسة مساءً بهاتفي، سمعته ولم أستطع تحريك يـدي لأوقـف رنينـه، فأنـا أستسـلم فـي كلّ مـرّة لصـوت الآلتيـن الضّاربتيـن فـي صميـم الأوتار. مرّت دقيقتا المقطوعة، ولم أحاول حتّى النّهوض، دماغي يقظ، لكنّ جسـدي خائر القوة. استسـلمتُ لغفوةٍ أخرى أداهم بها الدقائق العشر التي ستُعاد بعدها المقطوعة. رنّت ولم أستطع تمالك نفسي لأحرّك يدي، تركتُ لمسامعي لحن الكمان والبيانو، وتركتُ لجسدي عجز الحركة، وانتهت المقطوعة للمـرّة الثانيـة، ولـم أبـارح مكاني. فتحتُ عينيّ بعـد الرّنة الأولى، وفـي الثّانيـة فتحتهمـا. كان ضـوءٌ خافـت يُطلُّ من ثقـوب النّافذة، ويُسـلّط شـعاعه علـى مكتبي، أعجبني التّلألؤ الـذي يُحدثه الضّوء المشـترك مـع مـاء قنّينةٍ فوق مكتبـي، بدا لامعاً ويدعوني إلى بداية

سفرةٍ جديدةٍ بالاستيقاظ، شعرت أنَّ هذه هي المرّة الأولى التي أفتح فيها عينيّ على شيءٍ جميل، شيء به ضوءٌ جميل غير مؤلم وغير أصفر يُعمي كما تُعمي مصابيح المنزل، ولأوّل مرّة أحسستُ أنّ الشّمس قد فعلت بي خيراً برسمها ما أبهجني في فعل استيقاظ. أطلتُ النّظر إلى الشّيء المتوهِّج كجوهرة، وأعجبتُ أكثر بالظّل الممتد من قِبله، والذي يشكِّل ظلّاً للقنّينة الذي يبدو أكبر منها حجماً، حيث أنّ قعرها وحده يُضيء.

رنَّ الهاتف للمرّة الثّالثة، حينها افتتحت ملكةُ وعيي جيّداً، أصبحتْ حواسي توظّف كما ينبغي بدون تيه. مددتُ يدي إلى الطّاولة مُغمض العينين، تحسّستُ مكان الهاتف، وأطفأته دون أن أرى. نقّبت بأصابعي عن نظّارتي جانبه، لمستها وأخذتها مُرجعاً يدي إلى مكانها، وضعتُ النظّارة وما زلت مُغمض العينين، فتحتهما، مسحتُ ما تبقّى من عمشٍ من تحت إطار النّظارة. نهضتُ وفي ذهني فكرة عادةٍ قديمة قد وُضعت في خانة الأشياء المؤجّلة، أن أعدَّ القهوة، حتّى أنّي نسيت ألم قدمي عندما توجّهت إلى المطبخ، لكن سرعان ما فتحتُ الدُّرج الذي أضع فيه عبوة القهوة التي لم تُفتح منذ زمن، تذكّرتُ أنّ شعوري في الحاجة إليها ليس هو هذا الذي شعرتُ به، فقد كانت مجرّد غريزة وسِمةً من سمات عاداتي، كأنّي صائمٌ كاد أن يفطر عن غير قصد. أغلقتُ الدُّرج وانسحبت. غسلتُ وجهي، وأعدتُ وضع نظّارتي، ثمَّ عدتُ إلى غرفتي أزيل ريق النّوم بجرعات من قنّينة الماء التي أزالت عنّي عبوس الاستيقاظ. أشعلتُ مصباح المكتب، وأطفأت نور الغرفة، ثمَّ فتحتُ النّافذة، لتزال رائحة المدّة التي نِمتُ خلالها. نظرتُ من

خلالها، بدا لي ضوء الشّمس في بداية اختفائه، حينها خطر ببالي شيء، ولم أستطع منع نفسي من فعله. حملتُ هاتفي، وضعت في قدميّ جوربين، وقد شعرت برشاقةٍ فيهما مع قليلٍ من الألم، وبأنَّ حالتهما الآن أفضل من السّابق. ارتديت سترتي الخضراء فوق ما كنت ألبس، مُتضاعِفةً لوقايتي من البرد وحيطةً من دخوله إلى باطن صدري.

وضعتُ مفاتيح الشقة في جيبي، وحملتُ قنّينة الماء الصّغيرة في يدي اليُسرى، ثمَّ أطفأتُ جميع الأنوار وخرجت، ثمَّ صعدت إلى السّطح..

لم أستطع منع نفسي من مشاهدة غروب الشّمس، خاصّةً وأنا أسكن أعلى عمارةٍ في حيّي، كما تتوافق مسافة اللاتعب بين شقّتي وبين مكان الرّؤية.

صعدتُ وأنا أتخيّل ما الذي سأشاهده، هل سأشاهد غروباً فقط، أم لحظة وداعٍ لخيوط الشّمس، أم انتهاء يومٍ آخر واستلال خيوط يومٍ آخر من ثوب عمري المهترئ. تركتُ كل التّخيُّلات جانباً، وأخذتُ نفساً عميقاً في الدّرجات الأخيرة. نسيم الهواء استقبلني من فتحة الباب الموارب، أغدق لذّة في تنفّسي وحرّر عرقلات فتْحتَي أنفي ومسالك حنجرتي. امتلأت رئتاي بالنّسيم العليل عندما شرَّعتُ مواربة الباب ودخلت. كان الذي رأيته سحراً، لم أمنع نفسي من الابتسام، ولم أمنع أسناني من الظّهور حتّى آخر ضرسٍ أبيض، ولم أمنع انكماش أهدابي وصغر عيوني وعُلُوِّ حواجبي. كنتُ في حالة هيجان عاطفي لما تُريه لي الحياة من جانب طيّبٍ فيها، كان شيئاً يُشبه السّعادة والمتعة قد سار في

جوارحـي، موقظـةً معها العضلة الخاملة في صدري لتنبض لما قد سـرى في أوردتي من بهجةٍ عارمة لم تصل ذروتها إلى ما يُسـمّى بالفرح.

لم يكن الحائط الذي يطوّق السّطح عالياً، فقد كان يصل إلى نحري تقريباً. وضعتُ يديّ على حافّته، لأشاهد السّماء الأرجوانية بفعل حُمرة الشّمس، فقد كانت الشّمس بدأت تختفي بفعل الغيوم التي محت جزءاً من قوسـها السّـفلي لتُصبح دائرة ناقصة. رجَعت إلى الوراء مسـافة قصيرة، ووضعت يديّ في جيبي سـروال نومي. هبّت ريحٌ قويّة بجسـدي وملابسـي، طيرّت معها تلابيب سـترتي المفتوحة، ودخلت إلى مسـام جسـدي، فاقشـعرّت كلُّ شـعرةٍ في بدني. لم أصدِّق ما يحدثُ حينها. أخرجتُ يديّ، ووضعتهما على رأسـي ومسـحتُ شـعري أرجعه إلى الوراء. كانت بهجة لم يسبق لها أن داعبتني وُجدت لحظتها، وارتسمت سيماؤها على وجهي. لـم أعـرف إن كنتُ أبتسـم أم أضحك. بـدت كلّ الألوان واضحةً وراقية على غير عادتها، بل توهَّجت في مرمى عيني، وبعثت زرقة السـماء الباهتـة فـي عينـي ملامح مـن الصّفاء والغِنـى عن ما رأته عيني من مشـاهِدَ تدقُّ باب وجعي. رعشـات من البرد آثرت كلّها المرور من خلالي، مشهدٌ لم تستطع حاسّة الكاتب المجبرة لديّ التّعبيـر عنهـا بالكلمـات، كانـت صورةً قد عجـزت روح الوصف عـن تـدارك الاختـلاط المتبايـن بين ما يوجد ومـا لا يوجد، الكل مأخـوذٌ فـي حيـن لحظة نـادرة تريح وتدهش وتجعل من السّـؤال شـيئاً لا يُضاهـى فـي دهشـة الجواب: طيورٌ تحلّـق في دوائر، تارةً يميناً وبسـرعة وتارةً يسـاراً، تتماهى مع الرّياح التي تهبُّ، تتحرَّك

كيفمـا شـاءت فـي مجموعـات، خلقت عندي رغبـةً في أن أصبح واحداً منها، حرّاً في الطيران والهبوط، وفي تحريك جسدي كيفما شئت بدون شروط.

رحت أجول بعينيّ اللتين اتّجهتا صوب البحر البعيد، صوب الشّـمس التـي تضـع بينهـا وبينه في السّـماء غيوم تـلاقٍ من بياضٍ وزرقةٍ تربك العين. اختلط الكل في صورةٍ جماعية مع ما يصدره البحر البعيد؛ بواخر أشـعلت أنوارها عليها، واحدةٌ بإضاءةٍ حمراء وأخرى خضراء، أسـطُح الأحياء المحيطة أمام العمارة تعطي غنىً لشعبيّة المدينة، الصُّحون الهوائية الكثيرة والموجودة على كلّ سطح بقعة سـكن، أضواء الشّـوارع التي بدأت تسـتعدّ بأول تيّارٍ كهربائي يمـرُّ مـن الأسـلاك عبرها. وأناسٌ من بعيد أراهـم، يبدون كالنّمل. ومجسّـمات تتحرّك كأشـكال اللعب الصّغيرة، سيّارات وحافلات. وأضـواء معامـل أنـارت الواجهـات. والملابـس التـي ترفرف على الحبال على كلّ سطح.

وصلـتْ بالشّـمس لحظة الوداع والوعـد إلى نصفها الدّائري، مخفيّةً تحت سحابتها، أُدهِشَتْ عيني بالعمى الذي افتعله بي لونها الأصفـر البرتقالـيُّ اللّامع. مرّت طائـرةٌ على يميني، وكان دائماً ما يحيِّرنـي ذلـك الدّخـان الأبيـض الـذي يُخلّف وراءها راسـماً خطّاً طويـل المـدى مـن حيث جـاءت متوجهة، وقد سـألت عنه وقمت بأبحـاث، يُقـال إنَّ حـرارة المحرِّكات تلتقـي مع البرودة في الجو، الشّيء الذي ينتج عنه تكثُّف الماء فيُعطي دخاناً أبيض، وقيل أيضاً إنّه علامة على أنّ الطائرة التي تصدره طائرةٌ أجنبيّة، تنفثُ دخانها لتُعلم رادار البلاد الذي تمرّ من فوقه بأنّها أجنبية.

تنفست الصّعداء، ونفخت صدري. أطلقت زفرةً طويلةً لتخرج حرارة السبعٍ وثلاثين درجة متلاحمة مع جزيئات الهواء، فتُنير السّماء أمامي بياض دخان. ذلك الضوء الأخضر الصّادر من منارة مسجد الحسن الثّاني، بدأ لونه يتوهّج مع إبطال السّماء بضوئها الذي كان يُخفيه.

وضعت الشمس آخر نورٍ لها على رأسها واختفت جلُّ معالمها المضيئة. بعد لحظات غابت الشّمس وراء غيمٍ كساها رماديةً، ولم يعد يظهر منها سوى شعاع خافت في الوسط. غابت هي واشتدّت السّماء زرقة داكنة. لم أكن محظوظاً لأرى الشّمس تختفي وراء البحر، منتقلةً إلى بلدان أخرى تزيل عن سكانها وطأة اللّيل وتفتح لهم صباحاً آخر. اختفت الشّمس عن مرآي وراء منازل بعيدة عالية هي الأخرى، وددتُ لو أزيلها لأكمل فصل النّهاية والمغيب الذي يَعِدُ بإعادة دورة أيّام البشر.

جلستُ على طوب موجود بالأرجاء، أراقب زرقة العالم الخالي من شائبة البشر. رنّمني صوت الأذان، ولم أشعر حتّى تجمّعت كل رؤى البهجة دموعاً خفيفة على عينيّ، وشعرتُ بأنّي خائر أمام ما تُحدثه بي رحمة الله، ضعيفاً أمام ما ارتقت له نفسي واضعةً جزء الأحلام السيّئة جانباً. فكّرت أن أصوّر المشهد، لكنّي ناقضت رغبتي، فلا أحبُّ التقاط الصّور، لأنّها تجعل الأشياء الجميلة بخيسة وموضوعةً في ذاكرة هاتف، وأنا أمقتُ هذا التشييء، لذا آثرت أن أرشّحها في ذاكرة النّسيان، حتّى إذا عادت صدفة وفجأةً، تُعيد معها البهجة التي عشتها.

انتهى الأذان. نهضت بعده تاركاً ورائي أضواء صفراً توهّجت

علـى طـول مسـاحة رؤيتي. ودّعت الجـزء البائن للقمر بتلويحة يد قصيـرة، رجَعـت إلـى مضجعـي مليئاً بمـا أحدثته بـي الطّبيعة التي تجعل المشاهدة عبادةً، والسّكون محلّاً، واللحظات أعماراً.

توضّـأت وصلّيـتُ فريضتي. داهمني الجوع عندما كنت أجهر بصلاتـي، ولـم تكـن بـي رغبة لأعدّ أي طبق، أردت أن آكل ما هو جاهز دون أن أضع فيه جزءاً من وصفة ما أو لمسة يد.

بحثـتُ عـن معطفـي البنـي. وجدته على المشـجب الموجود بالحمّـام هـو والملابـس الأخـرى التـي كنـت ألبسـها. بحثـتُ في جيوبه عن محفظتي السّوداء الصّغيرة، وجدتها في الجيب الدّاخلي الأيسر، فتّشت داخلها عن بطاقة قديمةٍ تخصُّ مطعم جدّي. أدري جيّداً أنّهم يقدّمون أطباقاً ووجبات منظرها وحده يشـبعك. أخذتُ البطاقـة، وأعـدتُ المحفظة في جيب السـترة، ثمّ جمعت المعطف والملابـس الأخـرى المعلّقـة، ووضعتهـا بيـن ذراعي، ثـمَّ أخذتها لأضعها في سلّة الغسيل بجوار آلة التّصبين الأتوماتيكية.

ضربـتُ أرقـام المطعم، تعرّف إلـى صوتي من حمل هاتف الطّلبيّـات والخدمـات، تحدّثنا قليلاً، سـألته عـن صحّته وأحوال العمـل، وكنـت بمـزاج جيّـدٍ يسـمح بإطالـة الحديـث عن جدّي وبعـض الأمـور المتعلّقـة بإصلاحـات المطعـم. أعربـتُ لـه عن طلبيّتـي، التـي كانت سـلطة مـن الحجم الكبير وصحن متوسّـط مـن الأسـماك المقليـة. قبل أن أنهي المكالمـة، حدّثني عن طبق جديد أصبحوا يقدّمونه، وقال أنّه سيُرسله على حساب المطعم. أنهيتُ الاتّصال منتظراً طلبيّتي والإضافة، التي ستأتي محمولة إلى عنوان شقّتي.

مـرّت نصـف سـاعة وأنا صابـرٌ على تأوُّهـات معدتي، ولأنّي أكـره التّرقّـب، فلـم أترقّـب جرس الباب أن يرن. فتحت حاسـوبي المحمـول، أهملـت فيـه الوقت إلى أن يأتي ما يسـد جوع معدتي. تداولت بمشاهدة فيديوهات، وفي لعب الشطرنج في موقعٍ أجنبي مع أجانب من كل الدول، فُزتُ في مباراة وخسرت أخرى، وبعد الخسـارة أغلقت الجهاز تعباً ممّا خلّفته أشـعّتهُ على شـبكة عيني، رغم أنّ زجاج نظّارتي يعكس الأشعّة.

نفِـدت نصـف سـاعة أخـرى دون أن أسـمع رنيـن الجـرس، فكّـرت فـي أن أتّصـل مـرّةً ثانية، لكنّي أحجمت عـن ذلك، فحالة الجـوع لـديّ تُفقدنـي صوابي أحياناً، وقد أقول أشـياء غير عقلانيّة سأندم عليها. ذهبت إلى المطبخ بعدما نفد صبري، لم أكن عازماً على أن أعدَّ شـيئاً، ما سـأجده في الثّلاجة سـيفي بالغرض. بدا لي الجزر حلّاً أنسب. أخذت واحدة أقرضها، وأصبحتُ أرنباً بعدها، وصلتُ إلى أربع جزرات نجرتها بأسناني جالساً على كرسيٍّ قرب طاولة المطبخ. خفَّ جوعي بعض الشّـيء، بعدها واصلتُ شـرب الماء إلى أن يأتي من سيأتي.

اسـتغرق العامـل مـا يزيـد عن السّـاعة والنّصف قبـل أن يرنّ الجـرس. اعتـذر لـي، فقـد كانـت زحمـة فـي الطّريـق عطّلتـه هو ودرّاجته النّارية في الوصول بسرعة. نقدته ثمن الطّبقين، وقلت له بأن يحتفظ بما تبقّى من الثمن. غادر وهو يودّعني قائلاً: «بالصّحة والرّاحـة»، ابتسـمتُ فـي وجهـه وأغلقـتُ الباب، ثـم توجهت إلى مجلسي بالمطبخ ألتهم الأطباق الثّلاثة.

انتهـى يومـي بقليـلٍ مـن الكـدر والمـرارة، وشـعرتُ كأنّه قد

تولّدت في قلبي خصلة ما تشبه الأمل، فقد شعرتُ بسكونٍ في صدري قبل أن أضع رأسي على الوسادة، وفي كلّ الأحوال كان يوماً جيّداً بلحظات هديّة من الله إليّ.

لكن.. أكان نوع تلك اللّحظات هي ما يجب أن أبحث عنه؟ وأن أنقب عن ما يُجاورها لأخلق بهجةً أكبر؟

أدرك أنّ الحياة لن تبتسم لي ولن أراهن أنا على العبث في التّنقيب عنها.. وكلّ ما في الأمر، أنّي لستُ مستعدّاً لاستقبال الغفران بعد، سيأتي الغفران بعد أن أتجرّد من كلّ شيءٍ ورائي، بعد أن تُحذف عادة الهزيمة لدي، فما زلتُ أشعر بلهيب المرارة، وما زلت أحس بأن فتيل الخسارة لم ينطفئ بعد.

تُراك يا قدر، ماذا تعدُّ لي من خيبات؟

VI

في الصّباح التّالي، استيقظت متأخِّراً، ذهبت إلى العمل متأخّراً ساعة، كدتُ ألّا أذهب اختلاقاً لعذرٍ ما لسعد، إلّا أنّي فكّرتُ أنّي سأكون الخاسر في الصفقة، وسأزداد قلقاً من مراقبتي حيطان الشقة.

نظرتُ إلى ساعة يدي. قاربت الحادية عشرة أن تدق. أزلت أصابعي عن لوحة المفاتيح، وفتحت قنّينة الماء أشرب ما بقي. رششت آخر القطرات على نبتتي من بعيد. شعرتُ بالإعياء فنهضتُ من كرسيّي، فتحتُ السّتائر، وبدا الجوُّ غائماً بعض الشّيء، وكان الشّارع الأمامي خالياً على غير عادته، وقليلٌ من النّاس يحملون سجّادتهم بأيديهم وعلى أكتافهم. كان هناك من يلبس «الجلابة» وهناك من يلبس ملابس عاديّة، وامرأتان هما أيضاً كانت وِجهتهما المسجد البعيد عنّي في العمل والقريب لي حيث أسكن. كنت أضعُ في ذهني أنّه لم تتبقَّ لي سوى ساعة وأنتهي، كي أذهب إلى المطعم، هكذا قد سوّلت لي نفسي خُطوتي التّالية. لكن بعد المشهد الذي رأيته من النّافذة، تذكّرتُ أنَّ اليوم هو يوم الجمعة، وأنّنا نخرج يوم الجمعة في الحادية عشرة، وما أكّد لي ذلك أيضاً هو أنّي رأيت بعض الموظّفين وهم يُغادرون بسيّاراتهم. حينها رجعت بخطواتي للوراء بعد أن أعدتُ السّتائر إلى وضعها الأصلي.

أوقفت حاسوبي عن الاشتغال بعد أن حفظت الملفَّ الذي كنت أعمل عليه، ثمَّ خرجتُ مسرعاً بعد إقفالي باب المكتب.

عدتُ إلى المنزل، أخذت دشّاً سريعاً، وتوضّأت، ثمَّ صلّيتُ صلاة الصبح، فلم أصلّها لتأخري في الاستيقاظ. أنهيت الصّلاة، وحملتُ سجّادتي وذهبتُ إلى المسجد مهيَّأً لإعادة تدوير ما أعيشه إلى نقطة الصّفر كيفما اتّفق.

أنهى الخطيب خطبته، صلّينا الرّكعتين، وعدت بدعاءٍ إلى الرّحمان كي ينظر إلى حالي، ويرأف بي كي لا أهلك نفسي وجعاً.

لا أذكر أنّي أكلت «الكسكس» بعد صلاة الجمعة منذ وفاة والدتي أو عند تلك الخالة، فقد رنَّ هاتفي وأنا أدخل شقّتي وكان المتّصل سعداً. أخبرني بأنّنا سنتغدى عند نجوى رغبةً من والديها، لم أرفض، لكنّي تضايقتُ قليلاً، فلم آلف منذ زمن على الجوِّ العائلي، لكنّها كانت فرصةً مثاليّة لأقي يديّ من تحضير شيء.

رنّ جرس الباب. وجدت سعداً ينتظرني. أغلقت شقّتي. دخلنا الشّقة المجاورة. جلسنا في الصّالون، ثم جاءت والدتها بـ«القصرية»، بعد أن وضعتها قالت لنا: «مرحباً.. مرحباً»، سعد بدأ يُجاملها وكذا أدب منه.. وقد قلتُ بضع كلماتٍ أنا أيضاً.

جُلتُ بنظري في الصّالون قبل أن تجتمع العائلة، أثار انتباهي لوحة تُقابلني معلّقة على الحائط، صورة رجل أسمر ويلبس جلباباً أبيض، يضع فوق رأسه طربوشاً أحمر، وبالأسفل أمامه صينيّة عليها كؤوس، ورافعاً يده حاملاً إبريق الشّاي نحو الأعلى يَصُبُّ من الأعلى في إحدى الكؤوس.

اكتمل العدد، والجدّة وحدها من لم تأتِ بعد، والظّاهر أنّها

ستجلس بجانبي، فأنا في أقصى اليمين، والكلّ اصطفَّ يساراً، ولم تبقَ مساحة إلا بجانبي. جاءت الجدّة تطقطق بمنسأتها التي أرهبتني يوماً، دخلتْ وجلست بجانبي. قال الأب: «على بركة الله»، الكلّ بدأ بالأكل، حملتُ الملعقة، وهممتُ أتذوّق طعم الذّكريات الميتة. العجوز جانبي لم تُعر لي اهتماماً حتّى أنّها لم تعرف ولم تسأل من هو الشّخص الذي يجلس جانبها، حدَّ أنّها اكتفت بالحديث إلى طفلة صغيرة موجودة بين الأم وابنتها.

تحدّثتُ قليلاً بعدما انتهت الوليمة، سعد من جرَّ بي للحديث عن شيءٍ مرتبط بمشكلٍ بنكي وقع مع والد نجوى. شرحتُ له ما يجب فعله والوثائق المتطلّبة التي يجب عليه الإدلاء بها. وبعد مدّة، دخل سعد ونسيبه في حديثٍ يتعلّق بالسّياسة، ضجرت من الاستماع لهما، فوقفتُ واعتذرت بأنّه يجب عليَّ الذّهاب. خرجتُ بعد أن سلّمت على أهل المنزل وقبّلت الطفلة الصّغيرة والجدّة على جبينهما، ثمَّ عدتُ إلى ركني أستشفي بعض الهدوء وراحة البال من الجوِّ العائلي الذي لم يعد يليق بي.

عدتُ إلى طوري بعد أن غلبني جوُّ الجمعة الذي يعيد كلَّ أحوال التّناقض في جرّة عمري إلى الصِّفر، فالجمعة دائماً ما كانت النُّقطة التي أنطلق منها وإليها أنتهي، ومنها أغيّر نشاطي وأنهي النّشاطات السّابقة.

جاء المساء كعادته محمّلاً بنوع من الطّمأنينة، قضيته كما أقضي كلّ يوم جمعة، أكمل روتين مساء الجمعة بوضع الملابس في آلة التّصبين للغسل، والقيام بأعمال منزليّة، لأستقبل الغد بحلّةٍ جديدة، وكي أستعدّ ككُلّ مرّة لمقاومة الكدر.

الفَصْلُ الرَّابع

I

خلّفت الهيلميكو بأسبوعين، وها أنذا في شهر مارس، ما زلت أعيش على الطريقة القديمة التي عشت بها، شخصاً معاباً بجينة اليتم، وعامراً بتجاعيد البؤس مما تخلّفه الأيام من حزن على وجهي، وشريداً في هفوات القدر وزلّات النفس.

عندما أفكر أحياناً في قضيّتي الحياتية التي لا تعرف أين تمضي، أجد نفسي كعالمٍ مبنيٍّ وموجّه بالعدم، لا اتجاه أصبو إليه، ولا هدف أحاول أن أبلغه، تائه فقط، ولا أملك ما أعالج به ما يجب أن يُرمَّمَ داخلي، كلّي فراغٌ محض، وكأنَّ وجودي على هذه الأرض خطيئة ما، أو عبء ما.

كلّما رنوتُ إلى خرابي الجميل ودماري النّفسي والجسدي، أجد كلمتي «الإعراض» و«الصبر» كلمتين ثقيلتين، وُضعتا بكميات كبيرة أخفّف بهما وطأة الكروب، وأطفئ بهما النيران التي تنخر وتحُمُّ جدران ما تبقّى من حفناتٍ ضئيلةٍ من حياتي السّابقة، ومن ماضيَّ السّائغ بمرارته.

تراي أصبحتُ يائساً كما لا أدّعي؟

دائماً ما أجد نفسي ساذجاً في الإجابة عن أسئلة كهذه، ربّما كنت عاجزاً فقط عن الإجابة عن أشياء لا يمكنني لمس معناها،

أو ربّما كنت يائساً دون أن أعي ذلك، أو أنا حقّاً كذلك، فضياع الآمال هي من خصال اليأس، والامتناع عن الترقب في تغيُّر الأشياء هو أيضاً كذلك.

قد أتغيّرُ كلَّ يوم، ولكن للنّسخة نفسها، فقط إضافات جديدة لا تقلّ عن سابقاتها غضباً، ووجعاً، وخَواءً، وتَكراراً لانقسام خلايا وراثيّة ميتة تجول في كبدي.

ما زلت أذكر طعم الألم، الذي ذقته يومي الخميس والجمعة الماضيين. ذلك الخميس الذي تجرّعت فيه مأساة العلاج الكيميائي. كان ألماً هزلتُ منه كثيراً، وفقدتُ إزاءه وزناً غير مستبين من طاقة حياتي المنقضية والرّخوة خيوطها.

أتذكّر أنّي عندما استيقظت، وجدت الطّبيب يجلس بقربي، تحدّث إليّ بكلمات، لكنّي لم أفهم ما قاله إثر ما فعله بي المخدِّر أثناء فترة العلاج، وضايقتني حينها حركات شفاهه التي كانت تشي بكلام لم تقدر قدرتي على مسايرة الحروف أن تتلقّاها. كما أذكر، متشكّكاً، في ما قد رأيتُ بعد ذلك، فقد رأيت والدتي تجلس على سريري قرب قدمي، وتقوّس شفتيها بابتسامة فهمتُ منها أنّها تحمد الله على سلامتي، ابتسامتها تلك التي على إثرها أغمضت عينيّ، أَرجعُ بهما إلى خبايا شريحتي في حلم.

كان حلماً دون الحلم، كنت فيه معافىً في صحّتي، لا أذكر ما كنت ألبس، لكنّي أتذكر شخصين كانا يجلسان بقربي أمام عتبة منزلنا القديم، شابٌّ يكبرني بقليل، وطفل يبلغ عمره حوالي السّادسة أو السّابعة. لم أر وجهيهما، وحاولت أن أدير رأسي إليهما، لكنَّ قوةً خفيَّةً أحكمت قوّتها على رقبتي كي لا أستدير.

كنّا نجلس نراقب الشارع الذي أمامنا في رهبة الليل وسكونه، ولم يكن أحد يمر منه، ولا سيارة مركونة، وكانت الأضواء وحدها تنير جزءاً من الشارع، والمساحة التي كانت أمامنا وحدها المُنارة، أما بعدها بأمتار فلا يُرى سوى الظلام. لم أُطق ذلك الصمت، فأردت قول شيء لأخرج نفسي من حرج الجلوس والضيق دون موضوع. قبل أن أقول شيئاً، بل حتّى قبل أن أحرّك شفتيّ، سمعتُ صوت الرجل يقول: «أعرف ما تودّ قوله»، ساعتها لجمت لساني، ولم أفه بكلمة، خُدّرت بالكامل، فلم أسمع صوته في أذني، بل سمعته في عقلي. ساعتها بتُّ مشوّشاً مما قد حدث، ورحتُ حينها أبحلق إلى الظلام الدامس الذي تخلفه وحشة الشّارع المظلم ما وراء النور الذي يضيء مقتبلي، عبثاً لأعي ما حدث. أكننت في نفسي بأنّي أتخيّل فقط، فعزمت أن أحاول الحديث مرة أخرى، وقبل أن أفعل، سمعت الصوت في رأسي مرّة أخرى في عقلي يقول لي: «لم يحن دورك لتنهض يا صديقي»، فزعتُ مرّة أخرى، وحاولت أن أجيب بصوتي الدّاخلي دون أن أتفوّه بكلمة. قلت في نفسي موجّهاً ومركّزاً كلامي إليه لعلَّ المحاولة تفلح: «أيُّ دور؟». انتظرت الإجابة منه، لكن لا شيء حدث. بعد لحظات، وقف الرجل، ولم أتحرّك كي ألمح ملامحه. ترجّل أمامي، خطا كثيراً، حتى اقترب حيث يوجد الظلام، وقف وقد ولّى ظهره لي، وفجأةً أدار نصف وجهه الأيسر خلفه نحوي دون أن يدير جسده، لم أرَ نصف وجهه جيّداً، فقد كانت ملامحه مبهمة بفعل الظّلام والمسافة البعيدة، لكن كما أظن، رأيت لمعاناً يتقوّس بين شفتيه، وكانت ابتسامة كبيرةً موجّهة إليّ، سمعت حينها في عقلي: «ليس الآن يا صديقي»، ثم

أدار وجهه وأكمل مسيره، ومرّة أخرى قبل أن تخفيه دوّامة الظلام، قال: «اعتني به بدلي»، ثم اختفى.

«اعتنِ به بدلي!». من هذا الذي سأعتني به بدله؟!

أدرت ما قاله لي في ذهني، ثم تذكّرت الطفل الذي كان يجلس معنا، حيث كان الرجل على يميني هو والطفل. ظننت أنه عندما سأحاول إدارة عنقي سأفشل ثانية، لكن لم يحدث ذلك. نظرت على يميني حيث كان يجلس الذي ذهب، فلم يكن أحد. نظرت يساراً، وأيضاً لم أجد أحداً. لحظتها وأنا حيران البال بين الحقيقة والخيال، وقفت ثمَّ نفخت صدري بالهواء، وزفرت بقوّة ثمّ عاودت الجلوس، ورحتُ أبحلق في الأرض لعلَّ طنين الأفكار الذي يثقل رأسي يجد حلّاً كي يخفَّ وزنه. فجأةً سمعت صوت بكاء يتصاعد تدريجياً، اغتربت مرة أخرى، فالصّوت كان يصعد من صدري. رفعت رأسي حينها، ولم أرَ أحداً بالجوار، نظرت خلفي، لا أحد، والبكاء لم يتوقّف. أدركت حينها أنّه صادر من ذلك الطفل الصغير، ولم أعرف أين هو، رحتُ أتساءل إن كان، هو أيضاً، يلعب معي لعبة التّخاطر. جلتُ بعينيّ قدر المستطاع لكن لم أجد له أثراً. دعكت جبيني مغمض العينين، وفتحت عينيّ. لحظة إرجاع يدي، شعرت بشيء دافئ يقطر عليها. نظرت إلى يدي، بدت لي غير يدي التي أعرفها بخدوش القلم الذي محا بعض بصماتي، ولا الانكماشات الذكورية التي تشي بالأعمال التي قامت بها يدي طوال اعتمادي عليها. فَردتُ يديّ أرنو إليهما بحرص، وجدتهما غير يديّ، إلّا أني كنت أشعر بحركتي فيهما. بدت لي أصابعي قصيرة شيئاً ما، يديّ تبدوان ناعمتين، وحينها قطرت بضع قطرات

عليهما، اعتقدت أنّ السماء بدأت تمطر، لكن المصدر كان عينيّ، إلّا أنّي لم أكن أشعر أني أبكي. نظرت إلى ذراعيّ، كانتا نحيلتين وقصيرتين، ولا تنمو عليهما شعيرات الرجولة. نظرت إلى قدميّ، حذائي ليس هو الذي كنت أنتعله، مقاسه صغير جدّاً. ثمّ أغمضتُ عينيّ بعد أن أدركت الأمر، جاءتني رغبة بالبكاء.. وبكيت مغمض العينين أحترق بالوداع.

عندما فتحت عينيّ ونظرت حولي، وجدت البياض وحده يحيط بمرآي، وكان الضّوء الأبيض المنعكس على جدران الحجرة يبرق في عينيّ. سمعت ضجيجاً يصدر من ما حولي. حدّقت إلى السقف أحاول أن أعي ازدواجية أحلام اليقظة تلك وواقعيتها. أنزلت نظري وحده إلى الأسفل، ثم نحو اليمين، وأحسست بذرفات الدموع التي غمرت عينيّ تسيل عبر خدّيّ، فقد كنت أبكي نائماً. فجأةً ظهرت لي يد الطّبيب تلوِّح أمام وجهي. كان جهاز الأوكسجين يزعجني، حاولت رفع ذراعي لأزيله، لكن قُمعت رغبتي وإرادتي بالفراغ الطّاقي بجسدي، وبالعياء الذي لم يسمح لأوتاري وأليافي بالحركة. كنتُ في عجز تام لم يسمح لي حتى بحكّ خدي أو تجفيف دموعي.

نزع عنّي الطبيب جهاز الأوكسجين، ورشّ ماءً على وجهي، نضحت تلك القطرات على وجهي تنزل نحو عنقي. صفع خدّي بصفعة خفيفة لأستفيق، ثم وضع يده اليسرى بحذر تحت رقبتي يرفعني، ووضعت مساعدته الممرضة وسادةً رطبة عالية، ثم أعاد وضع رقبتي التي شعرت أنّها ستنكسر، رأسي هو الآخر والذي رُجَّ من إثر الرّفع الخفيف قد تألّم أيضاً. رمّشت كثيراً محاولاً

إزالـة الدمـوع التي سـكنت جفوني. شـعرت بوخـزةٍ في معصمي، وأحسسـتُ أنّ الممرضـة حقنـت مـا يهدّئنـي، وهدأت بعـد دقائق بالفعـل. توضّحـت رؤيتـي بعـد ذلك، وشـعرت باحتكام جسـدي لإشـارات المـخ، وبالـكاد حرّكت يدي لأحـكّ خدّي. تنهّدتُ وأنا أنظر إلى أقصى اليمين حيث يوجد الزّجاج. رأيت سـعداً ونجوى بجانبه، كانت نجوى تبكي، وسـعد كان يُلصق يديه بالزجاج، وقد بـدا الهلـع علـى وجهه. ما إن حـدّق إلى عينيّ جيّداً، نزع يديه من الزُّجاج وأمسك نجوى ليجلسها على الكرسي، ثمّ جلس هو أيضاً. أخرج من جيب سترته منديلاً ورقياً، وبدا لي كأنه يكتب شيئاً عليه. ألصـق المنديـل المفـرود بكل أبعاده وزواياه على الزجاج، أمسـكه بكلتا يديه حتّى التصق بأكمله على الزجاج.

لم تعنني الكلمات التي كتب بقدر ما عنتني حالة سعد، كانت تلك أوّل مرّة أرى الضعف في سعد، كان قريب البكاء أو أنّه بكا. قرأتُ الكلمات المعوجّة بخطٍّ أسود كبير على المنديل: «كدت أن تقتلنا».

لـم أفهـم مـا الذي كان يريـد قوله جيّداً، ولكنـي أدركت أني كنـتُ فـي حالـة خطـر، فضربات قلبي التي كانـت تهزّ صدري هزّاً وشت لي، فلا أذكر أنّي شعرت بخفقانه كما حدث وقتها.

لم أُبدِ أيَّ تعبيرٍ على وجهي لهما. نظرت للحظة إلى نجوى التي كانت حانيةً رأسها، فتذكّرت ياسمين بغيابها الحاضر بدعواتها مـن المنـزل، ففـي المرّة السـابقة التي كانت قبل عيد الأضحى، لم تتحمّل الوضع الذي كنت فيه رغم قلّة حدّة خطره عليّ هذه المرة، ومنـذ المرّة السـابقة لم تحـبَّ المجيء لمعاينتي، وكان أفضل لي،

لم أُرد أن يراقبني الياسمين وأنا أنسل احتضاري المؤقّت، وأحترق وأُعاد رماداً بالخيبات نفسها، هزيلاً كفرخ فقس من بيضة.

ما لم أفهمه وقتها، هو أنَّ عمليتي قد تمّت بنجاح، وأنّي نُقلت إلى غرفةٍ أخرى غير التي تمّت فيها العملية، إذاً فما الذي جعل الاثنين يهلعان؟

بعد أن ضايقتني وشوشة الطّبيب والممرضة، قلت بصوتٍ مبحوح لا يكاد يُسمع للطّبيب: «من فضلك.. أريد أن أرتاح، أريد أن أبقى وحدي، وأطفئ الأنوار». لم يرُدَّ الطبيب بشيء، قام طائعاً ولبّى طلبي عن طيب خاطر. خرج هو والممرضة، وأطفأ الأنوار، ثمّ طلب من سعد أن يتركني بعد أن فتح الباب.

احتجت أربع ساعات نمتها لأستعيد طاقتي وأشحن عقلي بإرجاع ذاكرة الحاضر. أذكر أنّه عندما جاء الطّبيب ليتفقّد حالتي، تحدثتُ معه بعض الوقت، ثم قاطعته وسط الحديث أني أريد أن أتوضّأ لأصلي، فعندما أفقتُ سمعت صوت المئذنة وهي تعلن عن دخول صلاة المغرب. ساعدني على الوقوف والتوجه نحو دورة مياه بالمستشفى، توضّأت، وشعرت بماء الوضوء الذي غسل أعضاء جسمي يسري بشفائه نحو إيقاظ روحي النّائمة. صلّيت في الحجرة جالساً، وبعد الصّلاة، شعرتُ بأنّي عدتُ مُكرهاً ومرغماً من جديد. عدت بعد ذلك إلى الفراش، أنتظر الصلاة القادمة بعد ولوجها بنومٍ طفيف. وحين أتى الطبيب ليحدّثني، وجدني نائماً، ونمت فعلاً، ولم أسيقظ حتّى صباح الجمعة، مخلفاً فريضة العشاء.

الجمعة كانت محطّة الزيارات الكئيبة، جاءت العائلة المنسية دون جدي وياسمين، أتوا ليطمئنّوا على شيخوختي البارزة بكلمات

العـزاء، فرُحـت أكمل مسـرحية الامتثال للنقاهـة. بعدهم جاء دور ياسـمين التـي أخـذت كلّ طاقتـي في حديث طويـل على الهاتف، كانـت تطمئـنُّ علـيَّ بهلعهـا المكابـر، ولم أعتب فـي حديثي على غيابهـا، فقـد أعجبنـي عـدم حضورهـا، ورغـم ذلك، فلغـة التلعثم والخـوف علـى حالتـي كان بادياً على حبـال حنجرتها. بعدها جاء سـعد ونجوى في المسـاء، وهما أيضاً مارسـت معهما بحدّة أخف السيناريو نفسه الذي مرَّ بكلماتٍ تكرّرت.

بعد أن غادر سعد ونجوى، دخل الطبيب. اعتدلت في جلستي أستمع إليه. جلس على كرسي على يميني، قال:

– هل تشعر بتحسن؟

– الحمد لله، بخير، الآن أفضل.

– نسعد بذلك.

ثم أردف والحرص في كلامه، كأنّه لا يريد الإعراب عمّا يريد أن يقول:

– أتعلم..

صمت للحظة، ثم أكمل.

– .. كدنا أن نفقدك..!

قلت مستفسراً:

– ماذا تعني ألم يمرَّ العلاج بخير؟ هل وقع خلل ما؟

– لا لا، كل شيء مرَّ على ما يرام، كل ما في الأمر أنّ..

صمت مرّة أخرى، ثم أردف:

– أعني بعد العملية..

– هل حدث شيء.

- ربّما.
- إذاً!؟

.. دخلت في حالة إغماء، واضطرب قلبك، وكاد أن يتوقف.

لم تحرّك كلماته شيئاً ساكناً فيّ، فلو اضطرب قلبي في شيء آخر غير المرض لذعرت.

قال:

- صدّقني، وربما ما سأقوله لك الآن صعب التصديق، ولكنك كنت ما بين الحياة والموت.
- ما بين الحياة والموت؟
- ثق بي، هذه أول مرّة أرى فيها شيئاً كهذا، ظننت لوهلة أنّي سوف أحضّر يدي لأمضي على وفاتك!

وجدت ما يقوله مستحيلاً للتصديق، فقلت:

- أحقّاً ما تقول؟
- أَوجعتَ كلّ معتقداتي عن الحياة والموت، عن التصديق وعدمه، عن الرجوع والعودة.

ثم أردف بعد أن صمت للحظات.

- .. أتصدّق! عشرون دقيقة ومنحنى التذبذب يمشي مستقيماً بالشاشة، عشرون دقيقة ونحن نحاول إفاقتك بصاعق الصّدر، حتى فقدنا الأمل، وحينها لم أفكّر في شيء غير الكيفية التي سأخبر بها جدّك والعائلة. صدِّقني يا ابني، طوال الثلاثين سنة التي عملتها، لم أُصب بهذا الارتباك من قبل.

لم أفه بشيء، كنت أنصت فقط، وأنتظر منه أن ينتهي.

اقترب بكرسيه قليلاً نحوي، ثم فاجأني بسؤال.

- قل لي، هل حلمت البارحة بشيء؟
- ربما..
- هل تذكر شيئاً؟

الحق أني كنت أتذكر الكثير منذ أمس، فعادةُ الأحلام أن تُعاش وسط الحلم، لكن أن تخرج لتعيد مجرياتها في الواقع شيءٌ مستحيل. قد أكون تذكّرت صوت بكاء الطفل وكلمات الرجل، أما الباقي فلم أكن متأكداً من صحة تذكري له.

دعكت جبيني محاولاً تذكّر الصورة والأصوات، ثم أجبته:

- لست متأكداً، لا أتذكّر الكثير.
- لا بأس، عندما تتذكر لا تنسَ أن تخبرني، لكن قل لي، هل القليل الذي تذكره به والدك؟

كرهتُ لعبة الطبيب والمريض، يسألني فأجيبه، ثم يعاود الكرة ثانية.

قلت:

- لا أظن ذلك، لماذا؟
- على كلّ، صدق أو لا تصدق، فقد كان منقذك..
- هه!!

مطَّ شفتيه، وأصدرت أسنانه صوت اصطكاك ثم رفع نظارته الطبية، وقال:

- بعد الدقائق العشرين التي ظننا فيها أن مالك الرّوح أخذ ما يملك، صعد صوت بكاء طفيف من صدرك، ثم تصاعد، وبدأ جسدك يهتز، ثم بدأت تصرخ بكلمات إنجليزية لم

أفهمها جيداً، ولكن أعتقد أنها كانت «..Why father?
Why» أو شيئاً من هذا القبيل.

عندما سمعت ما قاله، جمد بؤبؤا حدقتيّ، سَهُم وجهي، وبدا التجهّم بائناً على وجهي، فقد اكتملت حلقة فهمي عندما انقطعت عن الحلم بعد أن استفقت. لم أتحدّث بحرف، وشددت قبضتَي يدي تحت الغطاء، حتّى طُبعت أظافري على راحتي يدي.

شعر الطبيب بضيق خاطري، وفهم أني اكتشفت شيئاً. وقف ثم ربّت على كتفي قائلاً:

– المهم أنّك بخير الآن..

كانت تربيتته تلك كإفاقة لي، وإخراجاً لي من دوّامة الذهول الذي وصَل الحلم بالنجاة، والإدراك الشامل لما عناه الرجل في الحلم، والذي كان والدي بلا شك.

قال لي قبل أن يخرج:

– إلى أن تهدأ الأمور، وتستعيد عافيتك، أريد الحديث معك في شيء آخر متعلّق بـ... لا.. انسَ الأمر، ارتح الآن، إلى وقت آخر. يوم طيّب، أراك فيما بعد.

ظللت في صمتي دون الإجابة، وعندما خرج، ألقيت برأسي على الوسادة، أحاول وقف مزيج الأسئلة التي ما فتئت تشيِّبُ ما تبقّى من شعري، وتعصر زيت قلقي في رحاها، ولأوّل مرّة، كنت غاضباً على الأموات، كنت غاضباً على والدي الذي لم يتركني أغادر معه.

كنتُ غاضباً فقد تعذّبت كفاية. ألم يكفِ إرث والدي لي، بكيته في الحياة وفي الأحلام، بكيته فراقاً ولوعة وعذاباً، نحرتُ

عيناي دموعاً على صعوبة الوصول إليه ما بين الأرض والسماء، لكنه أرجعني إلى مرحلة الصفر والفتور.. وأنا أكره البدايات، فالبداية أشد أنواع الغصص التي ما أن وُجدت قهرت نسياني وتذكّري. ألم يكفِ يتمه لي؟ ألم يكفِ غيابه جرحاً؟ ألم يأن له أن يمسك بيدي حقيقة ويفصلني عن عذاب قبر الحياة هذه حينها؟ وابتسامته تلك، أهي أيضاً كانت تعبرها رسالة والدتي عندما بكيتُها يوماً؟

اللعنة! لماذا يجب أن أصبر على نزق هذه الحياة بالسخرية؟! كان يجب على أحدهما أن يأخذني معه، فإنّي أموت هنا وأتجرّع أشد سموم الدّنيا إغاظة وفتكاً.. ولا أُعالج جراحي الغائرة سوى حزناً..

لكن لا بأس، أنا قادم.. فهكذا هي المصائر.. لكلّ قضيّته.

مرّت بعد الجمعة ثلاثة أيام واريتُ بها ما مضى، أهلتُ التراب على عياء المرض، وعدت إلى العمل بحالة صحية شبه معافاة. بدّدت رصيد نزق ذلك الغضب في الأيام الثلاثة المتبقية من الأسبوع، وفي العمل بإفراغ بطارية الذكرى المؤذية التي أعادتني إلى بكاء الصغر.. كبتاً مُخرجاً، وحاولتُ أن أمشي بضعفي قدر المستطاع نحو طريق يؤدّي صوب المعافاة التي تؤدي إلى شيءٍ ما.

II

مسـحت نظارتي، وفي حركة وضعِها على وجهي، انعكسـت صـورة زجـاج النافـذة عليهـا بصورة خضراء من أثـر الزجاج الذي يعكس الأشعة البنفسجية. وضعتها على وجهي، عدّلت اعوجاجها بأصابعي، ومسحت بها جبهتي. اعتدلت في جلستي على الكرسي، وانكفـأت نحـو المكتـب. كان ضوء الشـمس الذي تصدره قبل أن تضرب المآذن معلنة عن صلاة المغرب بساعة، يُضفي إنارة جميلة علـى ورقـي المكـدّس أمامـي. حملتُ قلمي أضيف لمسـاتٍ على مـا كتبـت. أزلـت بضع كلمات وجملاً، وصحّحـت تعابير في غير محلّها.

قطعتُ ورقةً بيضاء من كتاب رسـم صغير، كتبت في وسـطها بقلم أسـود: «شـيء ما»، عنواناً محتملاً أوّل خطر ببالي لأوراقي، فقد كانت آخر كلمات كتبتها. ثمّ وضعت الورقة أعلى الأوراق.

خفّت حدّة أشـعّة الشـمس الرطبة، وأصبح نورها خافتاً يزيّن سـطح مكتبـي البنـي بلـون جميلٍ وبـاردٍ يدعو للنّوم والاسـترخاء. نهضـت حامـلاً الأوراق، رتّبتهـا ثمّ وضعتها بملفٍّ أخضر، وتركت الملف فوق المكتب.

كنت ملزماً أن أحلق لحيتي، فقد أصبحت كثّة. أكرهُ الأشياء

بالنّسبة إليّ هي الحلاقة، ليس طعناً في الحلاقة نفسها، ولكن لما تفعله بي المرايا التي تغدر بي بالآلام المرتسـمة على وجهي. لم أكره المشي ولم أكره المسافات الطّويلة التي أخطوها كلّ خميس للتجـوال، لكـنّ المسـافة القصيرة التـي تبعث بي نحو محلّ حلاقة الحـي تكبّدنـي الكثيـر. كـم مرّة جلسـت تلك الخمس والعشـرين دقيقة الطويلة، على ذلك الكرسي الأسود الكبير، مكرهاً أنتظر أن ينتهي الحلاق من عمله. كنت أجلس دائماً حانياً رأسي صابراً على تلك المرآة الهائلة، وعلى تلك الاختلاسات التي ترمقني بها عيناي بالمـرآة، فقـد كانت تُهلعني نحولة معصمي وبرودة بشـرتي. عندما كان الحلاق ينتهي، أنقده بسرعة وأغادر سريعاً دون النظر إلى قصّة الشـعر إذا هـي أعجبتنـي أم لا، حـدَّ أنّـي كنت أختلـس النّظر إلى زجاج أحد أبواب سـيارة ما في طريق عودتي، ففي كلِّ الأحوال، لا يُظهر زجاج السيارات الأشياء واضحة كما تبدو عليه، وفي كلِّ الأحوال أيضاً، تكون قصّة الشـعر عادية، وأبدو بها كعسـكري في الواجهة.

حلقـتُ ذقنـي وشـاربي بماكينـة الحلاقـة الكهربائيـة. مـرّت الدقائق التي استغرقتها طويلة وعسيرة، حتّى أنّي ركزت على شفتي الباهتتيـن وأنـا أحلـق، كان لا بـد أن أصبر كـي لا أُزعجَ بأيِّ حكّة تُزعـجُ ذقنـي، ولأتجنّب لمس وجهي كثيراً. حلقتُ ثم غسـلت ثم مسحت بمنشفة وجهي بأكمله.

جلسـت على سـريري أفكّر في شـيء أقتلُ به الدقائق المتبقّية قبل أن تغيب الشـمس ويُفتح ليلي. اسـتلقيت على جنبي الأيمن.. فالأيسـر، ثم اعتدلت جالسـاً مرّة أخرى، لم أجد شـيئاً سـوى أن

أذهب إلى مكتبتي الصغيرة برفوفها الكبيرة.

لم تُثرني أيّ الأسماء الموجودة لأحمل بضاعتها، بقيت واقفاً بدون حيرة من دون أن أحمل كتاباً.

كانت صورة رأسي تنعكس على زجاج النّافذة، ولون رفوفي الرّمادية بقربي يُضفي مع هزالي ورأسـي المنحني بالتّفكير، صورةً مثاليـة ذكّرتنـي بلوحـة فنيـة كنـت قـد رأيتهـا في موقع مـن مواقع الإنترنيـت فحفظتهـا علـى الحاسـوب، بـدا لـي ملائمـاً أن أشـغل حاسـوبي وأتفقّدهـا مـا دمـت مثّلت جـزءاً منها. نسـختُ الصورة، وسرى في جسدي نوع من الألفة لما فعلته بي معانيها التي أيقظت حزني وأشبعت ظمأه.

ألصقتُها بالحائط المقابل لسريري، ثم استلقيتُ على السرير، ورفعت رأسي نحوه معدّلاً إيّاه بوسادتين، واحدةً فوق الأخرى.

اسـتلقيت أتأمّل شـكل اللّوحة، صبغة اللّوحة، خطوطها، وما ترمي إليه، وسـطو الشّـحوب والألوان التي اكتسـت بنسل الغياب، وكنت أفكّر في كيف خطرت على الإسباني اسم اللّوحة، في كيف ابتدأها «بيكاسو» يا ترى وأعطاها عنوانها الشخصي فاردةً كلّ ذلك العجز. هل الاسـم ابتدأ كيانها وأعطى يد راسـمها شـكل إتيانها أم أنَّ انتهاءها أفشى وأظهر معالمها لعيني راسمها؟

«عـازف القيثـارة العجـوز»، هـذا هـو اسـمها الـذي أثـار علّة الشـيخوخة التي تسـكنني، بدا لي كأنّ حياتي موقّعة على قماشـها الأصلي، حالتي مرسـومة على القماش موشّـاة بفقر شـبابي؛ تلك الملامح المكتومة، والشعر الأشيب، ورقعة الكتف، والثّوب البالي، ولون الجسد الشّاحب، ورأسه المطأطئ، والقيثارة بين الأيدي التي

تظهر أنّها تعزف لحن السجن صمتاً وسكوناً. الكلّ يشي أنّي كنت، وما زلت، أحمل حظِّي المريض كقيثارة على شكل قلم، أتربَّع كالعجوز، أعزف في وحدةٍ بقلمي في اللّيالي الباردة رافضاً شفقة الحياة بسعادة ما أملكُ من أملٍ نافد وحزنٍ فائض.

عشر دقائق وأنا أحدّق بكل أبعاد مقلتيّ إلى وجه العجوز، لم يلعب حياد الملل في عيني. آثرت أن أتوقّف لكي لا أنزع عنها غطاء الوقار الذي تمثّله. انتزعتها من الحائط، رغبتُ في تمزيقها وحذفها من حاسوبي. قدرتُ على الثّانية، أمّا الأولى فلم أقدر عليها. طويتُ الورقة ووضعتها في درجٍ منسيٍّ هو الآخر، درجٍ يختزل كلّ الحبّ والأمل. ها هي ذي تحفةٌ مؤلمة تُحيل عن نفاد الشّباب فيّ ستُجمع مع باقي التّحف من دون رؤية.

كلّ ما في ذلك الدّرج مجرّد مآسٍ تشكّل خوائي، منفىً آخر كمنفى الصّندوق الخشبي؛ صورتان لحيوانين، واحدة لدبٍّ نائم، وأخرى لأسدٍ ثائر، وصورة لي، وأخرى تتوسّطها ابتسامة ياسمين معي يوم جاءت للمرة الأولى والأخيرة إلى المستشفى.

رغم أنّهما منفيان، فهما ليسا المنفى الرئيسي بالنّسبة إليّ، ولعلّ شاعراً سبقني:

كلُّ المنافي لا تبدّد وحشتي ما دام منفاي الكبير بداخلي

غابت الشّمس، ووضعت السّماء لحافها ظلمةً، وقد آن للمآذن أن تحيّي على الصّلاة والفلاح.

حسب ما رأيته زوالاً في النشرة الجويّة، أظنّ أن الليلة ستكون ماطرة، وأرجو أن تكون السّماء عاقّة للأنباء اليوم، أريد الذّهاب

للتسوّق بعد صلاة المغرب.

أشـعلتُ بعض الأنوار لتُنار الشّـقّة من جوّها المظلم، غيّرتُ ملابسي، ووضعتُ معطفي على جسدي، وانتعلت حذائي المطري. حملـتُ المظلـة، وقبـل أن أخرج، راقبتُ مرّةً أخيرة إذا ما كان كلّ شيءٍ في موضعه.. وكان كذلك.

صلّيـتُ في المسـجد، وعندما خرجـت كانت الآيات الأخيرة مـن سـورة الفجـر لا تـزال عالقـةً فـي صـدري: ﴿**يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّـةُ ۞ ارْجِعِـي إِلَـى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾.

كنايـةً عنّـي بـدأتُ أعي الآيات، لا عن الأنفس التي سـبقتني: فأين أنتِ يا نفسـي المطمئنّة؟ هل أنتِ مطمئنّة حقّاً؟ هل أُزعجك بقساوة الحجر الرابض على قلبي؟ هل خُنتُ الأمانة يا ربّي بتعذيب نفسـي بسـبب وبلا سـبب؟. اغفر لي يا ربي، فما لي غيرك أتّكل عليه، لا أطلب شيئاً غير أن تفعل بي خيراً، وإذ كان مزيد من الألم خيـراً.. فـلا بـأس بـه، حِكَمُـكَ لا تنتهي، أطلبُ عفـوك من عقوق نفسـي، ومـن ذنـوب الحرمان الـذي أُذيقه لذاتي كلّ يـوم، وإذا ما كان هناك أملٌ أتمسّك به، فلتكن أنت يا من فطرني على هذا، أن تكون أنت وحدك أملي، فالآمال المتعلّقة بالأشياء تزول، والآمال المُنفلتـة مـع الأنام غيـر رصينة وغير ثابتة وكاذبة، ربّي أغدق عليّ أملك، وسكون وحدانيتك، لم أطلب يوماً الرّاحة، فلا أريدها بقدر ما أريد عفوك وقضاء حاجتي، فقد تأخّر الوقت كثيراً على أمثالي كـي يُواصلـوا كدح العمر هـذا، لا أريد التّدخّل في مصيري، افعل بي قبل أن أفعل بنفسي شيئاً.

قطعتُ مسافةً شبه طويلة نحو السّوق لأجلب ما يملأ ثلّاجتي التي فرغت، فقد اقتصرتُ بعد الأيّام التي تلت العملية على الأكل في الخارج أو عبر طلب يأتيني من مطعم جدّي. فكّرتُ أنّ اللائحة التي وضعتها في ذهني عن ما سأشتريه طويلة بعض الشيء، والأكياس البلاستيكية التي ستُوضع بها ستُؤلم عضلات ساعديّ الرّخوة، وخلصت إلى أن أقسم اللائحة نصفين بين اليوم والغد.

رُحتُ أتجوّل وسط صفّين من الباعة الذين يضعون الخضر في عربةٍ خشبية تجرّها عجلات: "الكروسة". أنظر يميناً وشمالاً، تصفّحتُ لائحتي الذّهنية بما هو واجب اقتناؤه وضروري. رُحتُ إلى جهة اليمين، تنقّلتُ بين أربعة باعة. ملأت كيساً بلاستيكياً بالخضر. ثمّ رُحتُ شمالاً أتبضّع الحامض والفلفل والبهارات.. امتلأ كيسٌ آخر. لم يتبقّ سوى أن أشتري لحم البقر أو الدّجاج، أيّهما سيفي بالغرض. سمعتُ بائعاً يصيح بتخفيض ثمن بعض الفواكه، وكان بعض النّاس يُحيطون به. لم يُغرني العرض، فأنا أكره الفواكه إلا القليل، والحلاوة يجتمع عليها البشر كثيراً، كما يجتمع الذّباب على قطعة حلوى.. وأنا أكره الذّباب.

هممتُ بالخروج بعد أنِ اكتظّ المكان، كما لم أعد أطيق نبرة البائع التي تصيح وتكرّر نفس الجملة: ((يَلّاهْ مَبْقَاشْ مَبْقَاشْ!!))، والتي تُعاد بالحدة نفسها، الشّيء الذي آلم طبلتي أذني وأخرجهما من طيب صوت الإمام الذي قرأ القرآن.

نظرتُ إلى ساعة يدي، لحظات وأنا أراقب عقربيها انتظاراً أمام الجزّار. رفعتُ رأسي عندما سمعتُ صوت الكيس البلاستيكي فوق منضدة الجزّار، نقدته، أرجع لي صرف المئة درهم، وحملتُ

الكيس الصغير أكدّسه في الكيس البلاستيكي مع باقي المجموعة. وقفتُ لوهلة أمام الجزّار، أفكّر في إن كلّ شيء ابتعته سيكفي، وبدا لي الأمر كذلك. كنتُ أخشى من شيءٍ واحد، أن يتمزّق أحد الأكياس فأُحرِجَ نفسي مع المارة. أخذت كيساً آخر كبيراً من المحلّ نفسه. نقلتُ بعضاً من الكيس الأوّل إليه، وبعضاً من الكيس الثّاني أيضاً إليه. وأنا أفعل ذلك، تخلّل إلى أذني صوتٌ كرهت أن أمشي على حدّة وقعه أحمل أثقالاً، كان صوت قطرات المطر وهي تنضحُ فوق الغطاء البلاستيكي لمحلّ الجزارة. صككتُ أسناني وزفرتُ من أنفي حنقاً. أخذتُ نفساً، فتحتُ مظلّتي، ثمّ هززتُ كيسين بعد أن جمعتُ قبضتيهما في ذراعي اليُمنى القويّة مقارنةً باليُسرى، وانحنيتُ بمظلّتي بيدي اليُسرى لأحمل الكيس الآخر، فقد كان خفيفاً بعض الشّيء. استعددتُ للمطر الغزير، وخطوتُ مُتجاوزاً عتبة المحل أسير في دربي. كان اختياري صحيحاً عندما انتعلت الحذاء المطري، فأرض السّوق كانت موحلة بقطرات المطر، فلو كنتُ انتعلت صندالاً لكانت كارثةً سأصاب بها بالكدر في الطّريق، كلّ الامتنان للنّشرة الجويّة.

لم أعتب على زخّات المطر التي صفعت وجهي مع الرّيح التي هبّت، ولم أعتب على الوحل الذي علق ببنطالي، وحاولت ألّا أغضب حينما مرّت سيارة بالقرب من بركة صغيرة، فنثرت وحلها ومياهها على الجزء السّفلي من ثيابي حيث دخل بعضها إلى الأكياس. فلماذا الغضب والعتب؟ تعاكسني الأشياء كلّ يوم، تهرب منّي الرّاحة في لحظات عديدة، ويأخذني التّعب وقت ما شاء، وتقلّبني المصائب متى أرادت، ويتهافت شقائي وعدم ارتياحي

على الإزعاج في قرعة الحظ! فماذا لديّ غير الصّبر على مقلّبَاتِ المزاج هذه؟ فليس بإمكاني تغيير شيء، فهذا قدري، وقرعة حظّي ونصيبي المخصي. وهل لي في أن أعترض؟!. وإن كنتُ أريد.. فلن يُجاز لي ولن يُباح استئناف حكمي، ولا شيء أحول به بيني وبينه سوى أن أرضى بكراهية الأشياء الكثيرة وضآلة الأشياء المريحة التي تُطيب خاطري، فعلى كل حال، لو كان انعدام راحتي موجوداً، لجُننت من شقاء الدّنيا، فعلى ربّي أعتزم وأُنذره ضعفي من جموح قافلة الخور الذي يحتلّني، فما زلت في دربي هذا أسير، ضعيفاً أدري، وصابراً بلا أمل من عثرات دنيا القدر وصدفة المنتظر.

ذراعاي خدّرتا بالحِمل، ورجلاي ملّتا من تلك الأرض، وعيناي تألّمتا من أنوار الشوارع المضاءة التي تعكس شرارتها على الأرض المبلّلة للشّارع المؤدّي إلى عمارتي، وآلمني بصري من رتابة الضّوء البُرتقالي الذي يلمع على نظّارتي، وانعكاس الأنوار على أسقف السّيارات المبلّلة هو أيضاً أصابني بتشنّجٍ مزاجي.

خفَّ هطول المطر، وانخفضت سرعة الرّياح التي كادت أن تطيّر مظلّتي سابقاً. توقّفتُ، وضعتُ الأكياس على الأرض من يميني ويُسراي. نفضتُ ذراعي اليُمنى من عيائها، ثمّ أسدلت المظلّة، وحملتها بيدي اليُمنى لأنفض عياء اليسرى. لم يُضايقني المطر الخفيف، وحتّى إن فعل، فما هي إلّا أمتارٌ وأصل.

عندما اقتربت لمحتُ الحارس وهو يُشير بسبّابته نحوي، ويُدير وجهه متحدّثاً لشخصٍ واقف أمام باب العمارة على يمينه. ظننتُ أنّه يشير إلى شيءٍ ما خلفي، إلّا أنّه كان يعنيني. وقد لمحتُ المشهد من بعيد. عندما اقتربت، توضّح لي شكل الشخص الواقف

أمـام بـاب العمـارة، فقد كان الظّلام المحيط بزوايا باب العمارة لا يُبين شـيئاً من خلقته من بعيد، وكانت امرأة. اقتربتُ أكثر، وعيني متحسّـرة جـدّاً علـى مـا ترى. تحرّكـت المرأة نحـوي، تمعّنتُ في مشيتها وقصر قامتها.. ثمّ صُحتُ بصوت بدا هادئاً: "ياسمين!!".

بـدت ياسـمين شـاحبة، لـم تقـل كلمـة، اقتربـت منّـي أكثـر وسارعتْ في خطاها، ثم ألقت نفسها على صدري تحضنني وتعصر جسدي بعناقها لي. لم تنظر لي حتّى، بل غمست وجهها بصدري فقط. سمعتُ صوت غصّاتها وأنفاسها المتقطّعة تسري من صدري إلى أذناي. لم أفهم ما بالها، ولا أذكر أنّ جسدها التصق بي مرّة. أحرجتنـي بالتصـاق جسـدها بجسـدي. تركـت كلّ مـا كان بيدي، ووضعـتُ يـديّ على كتفيها أحاول برفق خلق مسـاحة ضئيلة بيني وبينها. رحتُ أسـأل في لحظة دهشـة وحيرة: "ياسـمين ما الأمر؟ قولـي.. لمـاذا تبكين؟". لم تقل شـيئاً، وواصلـت بكاءها الذي زاد طنيناً في أذني. أعدتُ الكلمات نفسها ولم تُجبني. قلت لها: "هيه! ارفعي رأسكِ! ما الذي وقع؟". رفعت رأسها نحوي، كانت دموعها السّـوداء تسـقط على خدّيها بفعل كحل عيونها، وخرجت كلماتها متقطّعةً وواهية من بركة دموعها السّـوداء: "لـ.. لـ. ماذا.. لـماذا.. لا تـردُّ علـى هاتفـ...ـك؟؟!". قلتُ لها: "لم أكن أحمله". شـعرتُ بجسدها يتهاوى بين ذراعي، فأمسكتها وقلت: "توقّفي عن البكاء، وقولي ما حدث..". لم تتحدّث بشـيء وواصلت البكاء. أزعجني الوضـع، فقلـت لهـا: "ياسـمين، افعلي مـا أقوله، حسـناً!". أومأت برأسـها فقـط. قلـت: "حاولـي أن تحملـي معي الأكيـاس، وعندما نصعد إلى الشقة نتحدّث.". لم تفه بكلمة، وطوّقت ذراعي. حملتُ

أنـا كيسـين، وهـي حملت المظلّـة والكيس الآخر. طوال المسـافة الفاصلة بين مكاني وباب العمارة سؤال واحد كان يجول في رأسي:

"ماذا تنبّئني يا مطر؟ ماذا تنبّئني؟".

ما أن أغلقتُ باب العمارة، تركتْ ياسمين الأكياس وأمسكت ذراعي بشدّة، ولم تستطع وقف بكائها. كانت تريد قول شيء، لكنّ شفتيها كانتا مرتبكتين. قلت حينها:

- قولي، ما الأمر، قولي!! أنتِ تفزعينني، ما الأمر!!

قالت في غمرة غصّة:

- سامحني وحيد، سامحني..
- أسـامحك علـى مـاذا! حدّثيني أرجـوكِ، الله يخليك قولي شيئاً فأنا لا أفهم!
- مات.. مات..
- مات؟! من الذي مات؟

تـردّدتْ قبـل أن تخبرنـي، لكنّي أمسـكتُ ذراعهـا، ورجَجتُ جسدها كأنّي أصعقه بكهرباء سؤالي.

وضعـت جبهتهـا على صدري، وقالـت بصوتٍ مزمومٍ يُختزنُ من ورائه الحرقة:

- مات جدّي.. مات..

شـعرتُ بسـكون يتوسّـط صدري، لم يخفق قلبي حتّى، وما فتئت ياسمين تقول أشياء لم ألقِ لها أذناً تُصغي إليها. شعرتُ بأنّي فـي قعـر محيط ما، كلّ شـيءٍ سـاكن وميّت، أغـوص أعماقاً تليها أعماق، تاركاً كل شيءٍ فوق السّطح.

تراي هل كنتُ أبكي؟

لا لم أكن أبكي، كنت أشعر بكثير من الجمود احتلّني فقط.

تراه أصبح الموت أمراً عاديّاً بالنّسبة إليّ حتّى لم أشعر كما يشعر باقي النّاس! تراه ماذا فعل بي هذا البرود؟

إنّه فعل اللامبالاة ليس إلّا.

كرهتُ نفسي. كنتُ اتّخذتُ قراراً بأن لا أفيض مشاعري ولا أتوقّع أو أنتظر شيئاً، وأن أتعامل مع الأمور بشكلٍ من البرود. إذاً! فها هي خططي تنجح، تحققت رغباتي غير الرّاغبة، فلماذا لا أشعر بالرّضا؟ لماذا لا أستشعر لذّة الفوز المريرة؟ هل لأنّ المرارة نفسها لم تستطع مواصلة ما تحكيه هالتي التي فاقت غصص الجفاف؟ هل أصبحتُ قاحلاً، عديم الإحساس.. حتّى بموت الأصدقاء؟

إنّه الموتُ الفيزيائيُّ لا غير.

لم تذرف عيني أي دمعة، وكنتُ أعلم كلّ الأسباب التي تركت غدد البكاء عندي جافة، وأحدها أنّي أعلم أنّ النحيب اكتفى منّي، وأنّ البكاء أصبح موضةً قديمة لا تستحقّ منّي وضع زينتها، لأنّ أنواع الألم عندما تُذاق أشدّها ضراوةً، يبقى الصّمتُ حينها سيّد الموقف، والقلب لا يُحرّك ساكناً، وكلّ ما يُواري الوجع.. هو خطّةٌ محكمة ما يفتعلها العقل كلّ مرّة للحدّ من شظايا الألم، وإشعال شرارة ما تبدأ في حرق وحذف وعزل جرعات الألم.. تمرّد عقلي عليّ!

لم أشعر بتغيير مطلق لما حدث، سوى أن الحزن وضع إسمنته الطّفيف على وجهي وجعله صلباً وقاسياً. أحسست أنّ معطفي أصبح ثقيلاً، ودموع ياسمين التي تهطل على قميصي تحرقني، وضربات قبضتها على صدري كأنّها تريد إرجاعي إلى الحياة لم

تحـرّك فـيّ شـيئاً. لـم أجد الكلمات المناسـبة لأتحـدّث بها إليها، وأحسسـتُ أنّ إطار نظّارتي يُثقل وجهي، والماء الذي سـقط على بنطالي أزعجني التصاقه اللزج بي.. كلّ شـيءٍ غدا جارحاً وخشـناً يفتعـل حركـةً وانفعـالاً للصّدمة.. الكلّ.. إلّا مـا بداخلي الذي ربا جموداً.

حاولتُ ألّا أكون قاسياً على قلب امرأةٍ يلتعج أمامي، امرأة لا تريد تصديق الموت كما يحدث لجلّ نساء الأرض. رُحتُ أخفّف علـى امـرأةٍ تحبّهـا أجزاءٌ في جوفي، بكلماتٍ لم أجد غيرها: «قدّر الله وما شاء فعل».

وضعتُ الأكياس على الأرض. ربّتُّ على كتفيها ولم أتوقّف عن قول كلمات لا تليق بشفتيّ لا تخلو منها كلمات العزاء. أبعدتها بخطوات عنّي، ثم أمسكتُ معصميها بكلتا يداي.

قلت:

- ياسمين انظري إلي!
- ....!
- فقط انظري إلي!

رفعـتْ رأسـها، فغيّرتُ حينهـا كلّ ملامحي الجامدة بصعوبة، إلى أخرى مبتسـمة تشـعرها بالرّاحة، فإذا ما رأت ما ارتسـم على وجهي قبلاً، ستُشفق على رُضاب ألمي، ورغوة وجعي. تركتُ أحد معصميها وأمسكتُ الآخر، ومسحتُ دموعها الكحلية.

قلتُ لها:

- لا ينبغي البكاء على الأموات.

زاد بكاؤها أكثر، وأنا زادت العلقة في صدري تواطؤاً.

لاحظـتُ أن يديهـا مرتعشـتان وباردتان، ولا تقلّان عن برودة جسدي شيئاً أنا أيضاً. أمسكتُ يديها ونفختُ فيهما، محاولاً تدفئة يديّ ويديها بنَفَسِي الذي خرج حارّاً من لهب ما يُعتملُ في جوفي. نزعـتُ معطفي وألبسـتها إيّاه، ولّيتهـا أمامي نحو المصعد، وطلبتُ منهـا أن تضغـط الـزّر، فقـد كنتُ حاملاً الأكيـاس الثّلاثة والمظلّة. وصلنا إلى طابقي، أمسـكتْ ياسـمين من يدي كيسـين، وتوجّهتْ نحـو شـقّتي، وكنـتُ شـاكراً لفعلهـا، فقـد تراخت أوتـار عضلات ساعديّ عياءً.

فتحـتُ شـقّتي المظلمـة، ووضعـتُ ما بيدي فـي ركن خلف البـاب، ثم أشـعلتُ الأنوار. هـي ذهبت لتجلس على الأريكة. بعد أن أنـرتُ كلّ الأضـواء إلّا غرفتـي، توجّهـتُ نحو ياسـمين، كانت حانيةً رأسها من ثقل الأفكار التي راودتها. قرفصتُ أمامها ووجهي بالقرب من رأسها الحاني.

قلت لها:

– كفى! إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أشاحت نظراتها عنّي وحنت رأسها أكثر. أخرجتُ من جيب معطفي الذي تلبسه منديلاً ورقياً، ورفعتُ ذقنها نحوي، ثمّ مددتُ إلى يدها المنديل وقلت:

– امسحي دموعك، البكاء على الأموات مجرّد خسارة.

– ولكن..

ظللت صامتاً. رحتُ إلى غرفتي تاركاً ياسمين في بحر دموعها حتّى تهدأ.

فـي الوقـت الـذي كنتُ أغيّر فيه ملابسـي المبلّـلة، تبادر إلى

ذهني أنّ هذه هي المرّة الأولى التي تدخل فيها ياسمين مسكني، صحيحٌ أنّها تعرف العنوان، لكنّها لم تطأ ولو مرّةً واحدة عتبتي. أخاف أن يلتحفها جوّي الكئيب ويزيدها حزناً.

سمعتُ صوتها يُناديني. خرجتُ من غرفتي.

أجبتها:

- هل تحتاجين شيئاً؟

توجّهتُ حيث كانت مروراً بالرّدهة.

لمع لون شعرها الأسود في عينيّ، فقد نزعت غطاء رأسها الأسود، شعوراً بالاختناق على ما أعتقد. نظرت نحوي ووقفت، بدت عليها ملامح تشي بالاطمئنان المستعاد تدريجياً.

قالت:

- .. آسفة! بلّلتْ ملابسي لِحاف الأريكة.
- لا تأخذي همّاً، قولي لي، أحسن الآن؟
- قليلاً.

بدا أنّ شفتيها وأسنانها تُطقطقان من البرد. قلتُ حينها بعد أن غلب الصمت بين مسافتينا:

- انتظري للحظة..
- ....

بحثتُ في خزانتي عن شيءٍ أعطيه إيّاها ترتديه، ولم أجد سوى بذلتي الرّياضية، والتي لم ألبسها يوماً، والتي لا تزال جديدة كما اشتريتها يوماً حينما أُخبرت من قِبل طبيبي أنّي يجب أن أمارس الرياضة، ولم أفعل. ثمّ أضفتُ إلى جانب البذلة قميصاً قطنياً وجوربين.

ذهبتُ إليها.

– أتناسبكِ هذه؟

كانـت تنظـر إلى الكتُب المصطفّة تحـت مائدة التّلفاز، والتي لم أجد مكاناً يأويها فوضعتها هناك. أدارت رأسها نحوي وقالت:

– ماذا؟

– أتفي هذه بالغرض؟

وقفت بعد أن كانت مقرفصة تتصفّح عناوين الكتب.

قلت:

– سأجهّز لكِ الحمام، ستمرضين على هذه الحال.

بـدا عليهـا الخجـل قليلاً، ثمَّ أومـأت موافقة وهي تنظر ناحية اليسار.

كانـت فكـرةً جيّـدة رغم أنّها سـتدخل حمّامـي، مكاني الذي أسـترجع فيـه مزاجـي، والـذي لم يدخله أحد غيـري. لم أهتمّ بأن ترى الشّـامبو الذي أسـتعمل أو علبة الصّابون الصفراء التي تحوي صابونـاً ذا عطـرٍ خزامـي. ونوعاً ما غرفة حمّامي تبدو فاخرة لرجلٍ يعيش وحده. لم أتفقّد الحمّام إذا ما كان ينقصه شيءٌ، أدري جيّداً أن حاسّة الترتيب عندي قد سبقتني في آخر حمّامٍ لي.

حملتُ علبتي الزّرقاء التي أضع فيها حاجيات الحمام، وذهبتُ إليها في غرفة المعيشة.

– خُذي، كلّ ما تحتاجينه هنا.

أخرجتُ من العلبة فرشـاة أسـنان بغطائها، لم أكن اسـتعملتها بعد، وأردفت:

– وهذه أيضاً.

أخذتْها من يدي، وتقدّمتني بخطوات.

قلت:

- سيّدتي! المعطف من فضلك.

خرجت من فمها ضحكة قصيرة. أخذتُ من يدها الملابس والعلبة، ونزعت معطفي وهي تقشعر. أرجعتُ لها ما بيدي وأخذتُ المعطف. نظرتُ في عينيها لوهلة وابتسمت، ثم نقرتُ على جبهتها بسبّابتي قائلاً:

- تصرّفي على راحتك، واخدمي نفسك.

ابتسمتْ هي دون أن تفه بكلمة. أشرتُ إليها لتدخل الحمّام، وقلتُ لها أن تنتظر قليلاً عندما تريد فتح صنبور المياه البارد لتدفئة الماء السّاخن. أومأتْ برأسها استجابة، وأنا رددتُ الإيماءة بأخرى، ثمّ دخلتُ إلى غرفتي أعتصر خمر الأحداث التي دخلت عنوة دون أن تطرق.

* * *

خرجتْ من الحمام، لتجدني أصلّي في غرفتي التي تركت بابها موارباً عن غير قصد. كنتُ داخل الصّلاة، الشيء الذي منعني من الإجابة على ندائها أو حتّى لصدّها عند الباب، أو لأخذِها بحديث أجلس به أنا وهي في مكان آخر لا يقربُ غرفتي. لكن ما بيدي حيلة، فقد كانت تفصلني ركعة واحدة أنهي بها صلاتي وقد حاولت الإسراع ما أمكن.

فتحتْ تطلّ برأسها عليّ وأنا في التّشهّد، ما إن دخلتْ ورأى جزءٌ من عيني خيالها الذي يعكسه مصباح المكتب، حتّى تباطأت سبّابتي، وفقدت تركيزي في الصّلاة، فأكملتُ تشهّدي داعياً في

آخره مغفرة كما أفعل كلّ مرّة لأسباب قد تحدث، كما الذي حدث.

أتممتُ سلامي، وأنا أستعدّ لمعركتي التي خسرتها في منع دخول أحد لغرفتي. فور سلامي، كانت متوجّهةً نحو كرسيّي الذي أجلس عليه في فترة الكتابة. كانت عازمةً وتريد الجلوس، ولولا أساها لكنتُ أمسكتها من ذراعيها ولتحدّثت معها بكلّ الطّرق التي لم أفتعلها من قبل، فقط كي أُداهمها بحديثٍ يُنسيها فضولها نحو غرفتي. لم أستطع قول شيء ولا فعل شيء كي أصرفها عن ساحة الكلمات كي لا تتأذّى. أنرتُ مُرغماً الأضواء كي تبدو الغرفة عاديّة، فذلك الضّوء الخافت المسلّط على ما في غرفتي يُغري بالفضول، وفضول ياسمين يزداد ولا ينطفئ عندما ترى أمراً جديداً. عندما أنرتُ الأضواء طلبت منّي إطفاءها، وقالت بأنّ الجوّ أريح هكذا.

يا إلهي كيف أتخلّص منها من هنا!

عندما جلستْ على الكرسي، هرعتُ إليها أتحدّث معها في شؤون العائلة وصحّتهم وعن والديها، وكلّ ذلك كي أُبقي عينيها معلّقتين على وجهي فأحاولَ أن أحمل ملفّي الأخضر عن عينيها. ونجحتُ في حمله فعلاً، إلّا أنّ الورقة البيضاء التي فيها العنوان سقطت عند حملي له فوشت بي.

قاطعتْ حديثنا حينها فقالت:

– سقطت ورقة من الملف!

كنت سيئ الحظ عندما مرّت الورقة من تحت المكتب لتصل بالقرب من قدميها. حملتْها وقرأَتها، ولم تعلّق على شيء، لكنها لم تُعِد القطعة إلى مكانها، بل راحت تنظر إلى الورقة تارةً وإليَّ

تارةً أخرى، كأنها تحاول تفسير العلاقة بيني وبين حاجياتي.

قالت:

- أفقدت شيئاً؟

قلتُ وأنا أنظر إلى الورقة بنبرة غائبة:

- أنا دائم الفقد..
- لم أفهم!
- إذن ستفهمين يوماً.
- ....
- هل يمكنني استرجاع الورقة؟
- ....

لم تُعطها لي مباشرةً، طوتها ثمّ وضعتها على المكتب.

بعض لحظاتٍ من الصّمت، قالت لي:

- أتعلم! قرأت شيئاً لك، أعلم أنّك كنتَ تكتب شعراً، وصدّقني لست سيئاً، قد لا تذكر، ولكنّك تركت أوراقاً في البيت دون أن تدري.
- ممكن.
- هناك قصيدةٌ لك لا أتذكّر اسمها ولكنّ جملها علقت في ذهني، أتريد أن تسمع؟

لم يكن وقتاً مناسباً لذلك، سأُستنزف من كلمات المراهقة التي ستُحيي وتر الوجع داخلي، أدري أنّي سأتضرّر، لكن إن كان سبيلٌ سيجعلها تُراكم وفاة جدّي ببوحي الموجع، فلا ضِرار رغم الضّرر والبأس الكامل الذي ستُكبّدني إيّاه.

قالت:

– لا أتذكّر عنوان القصيدة جيّداً، لكنّي سآخذ كلمتين من القصيدة عنواناً لها إذا شئت.

– كما تحبّين.

رغبةٌ ما تولّدت داخلي على شكل غضب وانزعاج، فأن تُلقي هي كلماتٍ لي سيُؤلمني، لو لم يكن اسمها كالنّاجي الوحيد من حادث والدي، لقَبلتُ أن تقرأ كلّ ما عندي. انتابني خوفٌ خائر قبل أن تعمد إلى نثر حروفٍ لا أذكرها كتبتها فيما مضى.

قالت:

– سمّيتها «دروب الغياب»، على أيِّ حال اسمع!

«أمّاه! أمّاه!

احملي الشّوكة واغرسي نصلها هناك حيث يتدفّق الدّم ويمرّ الهواء
فأنا لم أعد في رخاء ولا راحة أيّام وأعوام
شُقّي صدري وأزيلي الحياة منّي
فدُنيا الخراب قد نالت منّي
أزيلي عنّي جرثومة يأسي وبؤسي
وأوقفي رجفان صُعلوك أحلامي
أميتي نبضي وأمدّيني بزيت رحى موتك
فإنّي أريد حياة العدم الذي يحيط بجفني ترابك
اقتليني أنتِ ليجوز لي الرّحيل
فلا اطمئنان في حملي الثّقيل
أنا لا أنام سيّدة موتي
ورؤاي حالكةٌ لا تَطيب إلّا بحُزني
انزعي عنّي أصفاد وسلاسل الصفاقة

فابنك حنين غباره ونُثار زفيره لا يصلح مع أوجه الشّفقة
أمّاه! سارعي في جلب ثمن مغادرتي بدعاء
لأني أريد المغادرة بلا تذكرة رحيل تُبخس ثمني
امنحيني الوداع لشوقي الذي مات
وأزيلي منّي وعنّي رملَ الذّكريات الذي عاث
ويا أمّي! أسندي رأسي إلى فراشي
وامسحي بيدِكِ الشّريفة على شعري
فالأمل يا أمّي قد مات طولاً فيَّ من انتظار الجواب
وأنا سكنتُ روح الخائن أسعى في دروب الغياب...».

قاطعتها عند الكلمات الأخيرة بكفّي على أن تعتكف عن قول المزيد، فلم يتبقّ سوى كلماتٍ جاحدةٍ كسابقاتها، لكنّها كانت مصرّةً على أن تُكمل، فخسرتُ الرّهان بجعل نفسي أكمل ما تبقّى، فما هو إلّا سطرٌ واحد تبقّى.

مُنزلاً كفّي، قلتُ بصوت غائب مرّة أخرى:

«وداعاً ثمَّ أسِفاً على الشّكرِ مُودّعاً الأنام والأيتام».

صمتتْ لنبرة صوتي التي لم تكن تشي إلّا بعمق الجراح التي لا يكفُّ فوارها. يمكن أن أكون تعوّدت على ما يجرحني، أمّا أن أُحزن غيري فهو شيءٌ لن أعتاد عليه، لربّما كان هذا هو سبب رغبتي في التّواري عن الأنظار، أعلم أنّ وجودي وحده أمام شخص يعرفني، لاسيما ياسمين، هو ألمٌ بحدّ ذاته.

أرادت أن تُبهجني فقالت:

- إذن ما اسمها؟

كنتُ مرتبكاً، وياسمين لاحظت ارتباكي البائن. لم أتذكّر

عنوان القصيدة، فحاولتُ خلق اسمٍ ما.

ألقيتُ بنظري حول المكان، جلتُ في ذهني وأنا أتنقّل ببصري من ياسمين إلى ما يُحيط بي؛ إلى ياسمين نظرت، ثمّ إلى رفوفي، سريري، جدراني الأربعة، الإضاءة الخافتة مع وحشة الليل، وفي الأخير شملتُ نظرةً واحدةً بكلّ أماكن الغرفة، ثمّ عُدتُ إلى وجه ياسمين حيث بدأت. حدّقتُ إلى وجهها للحظات، ثمّ ترجّلتُ إلى باب الغرفة، وياسمين لم تفتِئ عيناها تتبعان تحرّكاتي. حينها قلتُ وأنا ألقي إليها نصف نظرة: «منفىً بدون عنوان».

خرجتْ تأوّهاتٌ من معدتي معلنةً عن جوعي، وسمعتها هي أيضاً. نهضَتْ من مكانها، وشكرتُ صوت معدتي بعد أن كانت حلّاً في إبعادها عن ما يجلب شُبُهاتِ الفضول.

قالت وهي تمرّ بقربي خارجةً من الغرفة:

- سأعدّ شيئاً، أنا جائعة أيضاً.

أومأتُ برأسي وقلت:

- اطبخي ما يُشبعني.
- ماذا تريد إذن؟
- أيّ شيء.
- ....
- ماذا؟
- طلبُك هذا مثل طلب جدّي.

أهملتُ الرّد، ثمَّ أشرتُ بيدي إلى المطبخ، وقلت:

- تصرّفي على راحتك.

ثمّ توجّهتُ إلى حيثُ وضعتُ الأكياس، حملتها وذهبتُ

بها إلى المطبخ حيث هي، ثمّ وضعتُ ما بيدي فوق الطّاولة البلاستيكية.

قلت لها:

– اطبُخي ما تحبّين.

– وماذا تحبّ أنت؟

– كلّ شيء.

قالت كأنّها ملّت من أجوبتي الوجيزة:

– على وجه التحديد يا سيّد! لن أطبخ شيئاً إن لم تقل.

عمدتُ أن أُعاكسها:

– إذن ستبقين جائعة.

نفخت خدّيها وزفرت ثمّ قالت:

– آخ! صعب المراس.

أطلقتُ ضحكةً مختبئةً بين حلقي وأنفي دون أن تظهر أسناني. استدرتُ وولّيتُ لها ظهري، ثمّ قلتُ وأنا أغادر:

– سَلطة.. ولتكن بدون طماطم.

سمعتُ صوتها يقول حيثُ وصلني عبر جدران الرّدهة:

– كيف نَسيت، !You are the Salade man

ضحكتُ حينها وأنا أرمي جسدي على الأريكة أُشعل التّلفاز. كنتُ مُبتهجاً عندما عادت إلى مزاجها معي. أعود طفلاً أمام ياسمين وحدها، ربّما لأنّها تحمل جزءاً من أمّي، أكره الأسى على وجهها، وأحاول ما أمكن أن أبدو غير كئيبٍ أمامها، حتّى أنّي أغسل وجهي أكثر من مرّة كي لا تظهر جفوني سوداً من عبء اللاسعادة وقحط الفرح.

مرّت نصف ساعة. جاءت ياسمين واضعةً على الطّاولة القريبة من الأريكة صحنين متوسّطي الحجم، ثمّ عادت إلى المطبخ وأتت بشوكتين، مدّت لي بواحدة، ورحنا نأكل.

أنهيتُ نصف السّلطة، فقالت لي وهي تنظر إليّ مترقّبةً:

- إذاً؟

- Délicieuse… Mais!

- Mais quoi?…

- لا تفهمي الأمر غلط.. فقط...

- فقط ماذا؟

- تتخلّلها نكهة الـ..

ظلّت عيناها ترتقبان جوابي حين انقطعتُ عن الكلام، كنتُ أريد قول «الحزن»، لكنّي فكّرت حينها في أنّ ذلك سيُعيدها إلى حالتها السّابقة، بدلَ ذلك قلت:

- .. نكهةٌ لم أتعرّف إليها.

قالت وهي ترفع حاجبها الأيمن:

- إذن فقد تذوّقته؟

- هه! هل وضعت سحراً هنا؟!

- ربما!

- هل يجب أن أقلق إذاً؟

- إذا شئت، لن تُصاب به إن لم تؤمن بوجوده أوّلاً.

- ساحرة!

- عنيد!

التهمتُ السّلطة بحُزنها أخفيه داخلي حيث تكدّست أحزاني،

وقمتُ لأغسل البقايا التي علقت بأسناني، ولأشرب ماءً أيضاً.

رنّ هاتفها فوق الطّاولة، حملتْه وأجابت:

- ألـو أمّـي! نعـم أنا مع وحيد الآن، سـأبيتُ هنا الليلة، غداً سنأتي.

أشـارت إلـيَّ بيدهـا كـي أقترب، فقـد طلبت خالتـي حديثي. أخذتُ الهاتف أخلقُ مرّةً أخرى كلاماً لا يُناسبني ويُتعب فمي.

- مرحباً خالتي هدى!
- أهلاً ابني! هل أنت بخير كيف هي صحّتك وأحوالك؟
- الحمد لله، أشعر بتحسّن، أتماشى بشكلٍ جيّد مع الدّواء.

ثمّ قلتُ بعد أن تردّدت:

- آلمني الخبر، المهم أن تتحلّي بالصّبر..

سمعتُ صوت غصّاتها من الهاتف.

ثمّ أردفتُ:

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.
- ....

أردتُ إنهاء المكالمة سريعاً، فقلت:

- خالتي كفى! إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى وكلّ شيءٍ عنده إلى أجل مسمّى، فلتصبري ولتحتسبي، كفاك بكاءً وادعِي له بالرّحمة.
- ....

نظـرتُ إلـى ياسـمين، وجدتهـا هي الأخرى تحـاول تجفيف بعـض دموعهـا. وجـدتُ لحظتهـا أنّـي أنا وحدي المتضـرّر الأكبر والباكي الأكبر والحزين الأكبر هنا، لا يعلمون أنّ نار شريط إعادة

وفـاة والدتـي أعيـده، ولا يعلمـون أنّ اعتيادي هذا على الجمود ما هو إلّا نتيجة لتراكم كتلات هائلة من الفراغ الدّاخلي، فلم تعد عيني تلفـظ دمعـاً يُـرى، فقد انتقلتُ إلى مرحلة البكاء داخلاً دون البيان، فهكذا صُنعت، بارداً كقمّة جبل، مجبولاً على إعادة زرّ الصّبر.

كلّفني بكاؤهما آلاماً في المعدة، وشعرتُ بأنّ أحشائي تتوجّع من غصّات المرارة التي ازداد حقنها في حنجرتي، فابتلعتُ الكثير حتّى احترقت أمعائي.

تصرّفـتُ سـريعاً وتحدّثـتُ بكلماتٍ أخيرة تُنهي آهات شـعلة الموت:

– حسناً، خالتي عليك بالصّبر.. سأنقل الهاتف لياسمين.

وضعتُ الهاتف بين يديها لتفعل ما تشاء، ثمّ ذهبتُ بخطواتٍ مسرعة إلى المطبخ. جرعتُ كؤوس ماءٍ باردة، تُطفئ ألم معدتي، وغسـلتُ وجهي مرّات عدة. تحسّسـتُ جفنيّ عندما كنتُ أغسـل وجهـي.. ولا دمعـة ذرفتهـا، ونظـرتُ فـي المـرآة راغبـاً فـي قراءة ملامحي.

هل بدا عليّ الحزن؟!

لا.. اليتم وشبيهه لا غير!

كان بكاء ياسمين المتقطّع يصلني كمقطوعةٍ شريطها متقطّع، ترتفع حدّته تارةً وتنخفض أخرى، وبين التّارتين أنفاسها المُجهدة، ولم يكن في وسـعي هذه المرة أن أُسـكته، ففضّلتُ أن أتركها في حالها حتّى تهدأ.

لا أدري كيـف تواصـل النّسـاء البـكاء لمـدّة طويلـة، لربّمـا ذلك راجعٌ لتلك المشـاعر الهيّاجة التي تخرج دُفعةً واحدة، تلك

العواطف التي تأتي بشتّى الذّكريات المنسية مشكّلةً قوّة جذب لسيل الدّموع، وقوّةً ضاربةً تكسر سدود الجفون.

في خِضمِّ وجهي، شعرتُ به يزداد حرارة، كما جسمي كذلك، أحسستُ بضغط عالٍ يعتريني ورأسي بدأت متاريس القلق تطرق فيه، والعرق المُختلط مع الماء بوجهي أصابني بصداعٍ نصفي، وكانت مسام بدني كلّها تزفر بُخاراً شعوراً بالاختناق. رُحتُ أتنفّس وأسحب كمّيّاتٍ كبيرة من الهواء، لكن لم تكفي في مكاني ذاك، حينها عزمتُ أن أصعد إلى السطح كي يحتويني هواء الليل، ومطره إذا ما كان يهطل. مررتُ بالقرب من ياسمين، وكانت قد توقّفت عن البكاء، نظرتُ إلى وجهها من بعيد، جفناها أصبحا أحمرين. افتعلتُ إشارةً لها دون كلام بأنّي سأذهب ثمّ سأعود. خرجتُ وصعدتُ نحو مُريدي. كان الجو قارساً، وكانت تمطر قليلاً، لم أبتعد عن الباب الحديدي كثيراً، تحسّباً إذا ما تزايدت غزارة الأمطار. ملأتُ صدري حتّى آخره بالهواء البارد، وزفرتُ حرارتي التي تكاثفت مع الجوّ البارد مشكّلةً سحابة بخار تصعّدت في السّماء ثم اختفت. عاودتُ الكرّة مرّاتٍ عدّة. شعرتُ بالحرارة تهزّ رحالها منّي، وجسدي هيّأ المكان للبرودة لتسكن فيه. كما خطّطت، زادت نسبة غزارة المطر، وتبلل جزء من ملابسي إثرها، فعُدتُ قبل أن أُصاب بنزلة برد. عُدتُ بسهولة خلف الباب الحديدي، أغلقته ثمّ اتّكأتُ عليه أستشعر قوانين الدفء في جسدي مُغمض العينين. صُداع رأسي زال واحتلّ مكانه سكون وإحساس بعودة الأمور إلى نصابها.

قد أصبر على ضيق الصّدر والنّفس، لكن أن تختلط الأمور

على عقلي شيء يُربكني، ولستُ من الذين إذا التعج قلبهم خرّت جميع الأعضاء مثله تواسيه، أؤمنُ بقوّة العقل أكثر من قوّة القلب، وقدر المستطاع أحاول ألّا أترك الإحساس لحواسي ولقلبي، عِوَضاً أحاول ما أمكن أن أجعل تذوّق ما يحدث بملكة عقلي فقط، وأدري أنّ كلّ أحاسيسي مُرّة، لذا فأنا أحلّيها بأفكار وأُراكم فوقها اعتقادات، أو أنفثها على الورق، وليغفر لي الرّب على هذا الانتقاص الذي أمدّه لنفسي، وليُسامحني ضميري على ما آلت إليه نفسي الجريحة.. ففي كلّ الأحوال أبقى الظّالم والمظلوم، وتبقى هويّة أفعالي معقّدة ومجهولة النّسب إذا ما حُذف سببا اليُتم والموتُ.

نزلتُ، أغلقتُ باب الشقة، فركتُ يديّ لأُشعل دفئاً. نظرتُ حول المكان، كان مصباح غرفة المعيشة مُطفأً، ظننتُ أنّ ياسمين نامت. أنرتُ المصباح، ولم تكن هي هناك. نظرتُ إلى غرفتي، كان ضوء المصباح المكتبي يسلّط جزءاً من إضاءته قرب عتبة الباب، تذكّرتُ أنّي قد أغلقت باب غرفتي، وقد بدا ظلٌّ قد تحرّك في الغرفة وشى به ضوء المصباح. صككتُ أسناني حينها من فضول ياسمين.

دخلتُ غرفتي فوجدتها فاتحةً ملفّي الأخضر وتقرأ ما بداخله، ما أن رأتني، تردّدت في مواصلة القراءة. أغلقتِ الملف، وبدا على وجهها شفقة ترميها إلي.

قلت:

- هل سارت الأمور بخير مع والدتك؟
- بخير.

أردفَتْ:

- ستذهب معي غداً إلى البيت أليس كذلك؟ سنحضر جنازة جدّي.

كان الرّفض مستحيلاً، بل كانت رغبة داخلي تريد أن تشيّع جنازته، ما دمتُ لم أشيّع أحداً من قبل، فقد كان أمراً أريد اكتشافه.

قلت:

- إن شاء الله.

حنت ياسمين رأسها تنظر إلى الملف، كأنّها تحاول استخراج جملة ما من لونه تقولها لي. وقفتْ فجأةً واتجهت صوب عينيّ. قرأتُ في عينيها أنّها عازمةٌ على قول كلام ما. تقدَّمتْ نحوي، وقفت أمامي ورفعت رأسها نحو وجهي لِتُساوي مسافة عينيها بعينيّ التي يفصلها قصرها عنّي، فهي تصل تقريباً إلى نحري. لم أجد كلمات أتحدّث بها، حتّى عيون عقلي فشلت في فهم رسالة عينيها إلى عينيّ. راحت تتفرّس في وجهي وما نهشت به سنون البؤس، ثم رفعت يدها نحو وجهي، نزعت نظّارتي، ثمّ وضعَتْها في جيب سُترتي الرّياضية التي ارتدتها. لم أقوَ على الحراك فتسمّرتُ مكاني دون نُطق، شعرت بالتّوتر، ووجدتُ نفسي مُحاصراً بين ما يجب أن أفعل وبين ما يجب ألّا أفعل.

خرجت كلماتٌ بصعوبة من فمي:

- ماذا تفعلين؟

- ....

أمسكت ذراعيَّ بيديها الرطبتين، شعرتُ بمسكتها تلك تزداد عصرة، كأنّها تحاول أن تتحسّس ما بي. أنزلت عينيها عن وجهي،

ووضعت جبهتها على صدري، وشعرتُ مرّةً أخرى بدموعها تنهال على قميصي وعلى السجين داخل القفص. وقفتُ صامتاً، تاركاً لها مهمّة وضعِ ما يُلعجُ قلبها داخلي..

انخفض تَرَدُّدُ شهقاتها، ثم جاء صوتها:

- وحيد..
- ....

رفعت رأسها تحدّق في عينيّ، وكان كُحل دموعها المتبقّي يسيل عبر وجنتيها.

- قلبك وحيد.. أين هو قلبك وحيد..؟
- ....
- وحيد أشعر بأنّك تُعاني.. هل هناك من خطب.. هل صحّتك على ما يرام كما تدّعي؟

تسألني هذه المرأة أين قلبي، تريدني هذه الفتاة أن أجيبها أين هي عضلة الإحساس التي تحبّ وتكره، تسألني عن كوني بلا نبض، وتقول إنها تشعر بأنّي أُعاني وأنّي أكذب في شأن صحتي.

كيف عساني سيّدتي أن أجيبكِ وأنا حُذفت منّي كلّ الإجابات التي أمكنها أن تشحّ غزارة أسئلتي؟ كيف أجيبكِ وقد احترقتُ بكلّ سنةٍ أحملها عجزاً؟

سيّدتي أتريدينني أن أحرقك بكلماتي؟

لا أريدك أن تري ضعفي فتضعفي من حماقة ما أفتعله بنفسي.

ماذا أحكي لك؟! أأقول لكِ الحقيقة أنّي اعتزلتُ أحاديث نبضي! هل أقول لأمّي التي في داخلك أنّ جوفي يبكي كلّ يوم!

إنّي تائه ياسمين، أشعر أنّه لا أرض يمكنها القبول بي بعد

الآن غير أرض الأموات، وقلبي هذا لم يعد يملك خرائط تُرشده إليّ، فؤادي هذا لم يعد يسكنني، غادر منذ زمن.

لن أقول اغفري، ولكن.. حاولي فقط، حاولي أن تفهمي أنّي أحاول التجرّد من الألم بالألم، وأنّي أحاول أن أملأ نفسي فراغاً لعلّ فراغي يبتلع مآسيّ، ويُذيبُ الكرب الذي لا ينتهي.

ابتلعتُ كبرياء الإجابة بغصّةٍ إلى معدتي، وأحرقتني كسابقاتها. أشحتُ بصري عن عينيها، ونظرتُ نحو الباب حيثُ مخرجي، نزعتُ يديها عن ذراعيّ الفاشلتين وقلت: «ياسمين.. حان وقت النّوم». ثمّ خرجتُ ونظراتها كانت تتبعني وقلبها كان يسأل عن وجود واحدٍ بداخلي.

أغلقتُ باب الغرفة، وضربتُ الحائط القريب منّي بقبضة بيدي، كي تفهم أنّي أغضب في الحديث عن أمورٍ كتلك، لتتركني وشأني أنا وسرّ ما تكنّه أعضاء جسدي من ألم.

ضحّيتُ بغرفتي، ولتبحث إذا ما شاءت في ما تحويه الأمكنة السّرية في غرفتي، ولتفعل ما طاب لها بما أسقطته على الورق.

أطفأتُ الأنوار، ولم أعد إلى غرفتي كي آخذ هاتفي ولا نظّارتي، ورحتُ أحاول اتخاذ وضعية لجسدي على الأريكة لأنام بدون لحاف، عسى أن تأتيني غمضة ببركة عيني الآسنة.

III

بدنـي يتعـرّق بأكملـه، وصهيل عروقي ينبض في أذني، عيناي مغمضتـان رغمـاً عنهمـا، وصـوت قطـرات صنبـور المـاء أفقدتني صوابـي بعـد أنِ اسـتفاقت أذناي عليه، وأيقظـت عقلي النّائم معه. لم أقدر على أن أتقلّب في نومي، فقد كنتُ مسـتعدّاً لآلام الظّهر بما خلّفته نتوءات الأريكة.

عظامي مسحوقة كي أقوم بحركة، مرٌّ جدّاً كي أتحدّث لنفسي بكلام عذب هذا الصّباح، ذهني يسكنه خمول النّوم، وهالات التعب تزحف فوق جسدي. حرّكتُ يدي إلى وجهي أحكُّ أنفي. أعدتها إلى مكانها. استشعرت لحافاً فوقي. تذكّرتُ أنّي نمتُ دون غطاء. بدأت ذاكرتي تسـترجع الأمس لتحيله إلى اليوم، فكّرتُ قليلاً، ثم خلصت إلى أول فكرة نائمة كجواب، وهي أنّ ياسمين من وضعت لحافاً فوقي.

فتحـتُ عينـيّ، كان الظّـلام يسـطو على المـكان، فقط ثقوب نافـذة الصالـون ترسـل أشـعّة واردةً تنعكـس علـى زجـاج التّلفاز. مـدّدتُ رجلـيّ وذراعـيّ لأوقـظ مفاصلي وعظامي. أزلـتُ عنّي ما يُلحفني. جلستُ مغمض العينين وسط العتمة. شعرتُ بصداعٍ في رأسـي. وضعت مرفقيّ على فخذيّ وأمسـكتُ رأسـي بكلتا يديَّ،

وحاولـت أن أخفّـف الصّـداع بالمسـح على شـعري ذهابـاً وإياباً. بقيـتُ مُغمـض العينيـن وحاولتُ مدّ يدي إلى الطّاولة، وكان غريباً أن يـديّ وقعتـا فـي فراغ، والغريب في الأمـر أن الطّاولة كما أذكر كانت غير بعيدة عن الأريكة. وقفتُ لأتوجّه يسـاراً لأُنير المكان. فتحـتُ عينـيّ لأرى انعكاس زجاج التّلفاز وتتبعه، فبقربه يوجد زرّ الإنارة. خطوتُ ثلاث خطوات، وما كدت أن أخطو الرّابعة، حتّى اعترضني شيءٌ اصطدمت به قدمي، كدتُ أن أقع لولا أن حافظت علـى توازنـي. أكملـتُ مسترشـداً بالتلفاز، أنرتُ المـكان، وآلمتني الأشـعّة فـي عينـي لدرجة أنّ بياضاً احتـلَّ عينيّ يُعميهما ويزيد من مستوى صداع رأسي. عندما انقشع الضّباب عن عيني، عرفتُ لماذا تغيّر موضع الطّاولة، ولماذا تعثّرت قدمي من قبل. كانت ياسـمين تنـام علـى الأرض، ويبـدو أن «تصرّفـي علـى راحتـك» خوّلتها أن تغيّر موضع الطّاولة وتفرش بطّانيات وجدت من يسـتعملها غيري أنـا الـذي نبذتهـا في خزانةٍ بغرفتي. راقتني طفولتها، تكوّرها داخل اللّحاف، وخصل شعرها المبعثرة والمنسدلة على وجهها. أشعرتني بأنّي قسوتُ عليها ليلة أمس.

اضطجعتْ قليلاً عندما أنرت الغرفة. حملتُ هاتفها الموضوع على الطّاولة، وأطفأتُ الإنارة. أشـعلتُ إنارة الهاتف، ثم توجّهتُ إلـى غرفتـي. وجدتهـا مفتوحة، أنرتُ غرفتي وأطفأت نور الهاتف. فتحـتُ النّافـذة لدخـول الهـواء وأشـعّة الصّبـاح. وضعـتُ هاتفهـا فوق مكتبي، وحملتُ هاتفي، ثمّ اسـتلقيتُ على السّـرير. لم أتفقّد هاتفي منذ أمس، بل منذ رأيتُ ياسمين. كان يومض بلونه الأزرق، أدخلتُ الرّقم السّري، وجدتُ عشرين اتّصالاً من ياسمين ورسائل

عـدّة تسـأل عنّـي فيهـا وعـدم ردّي. رميـتُ الهاتف على السّـرير، واستلقيتُ على ظهري أفكّر في خطوتي القادمة. وضعتُ في ذهني جدولة ما سـأفعله ثمّ نهضت. غسـلتُ وجهي، وأخرجت من درجٍ بالخزانة علبة أعواد البخور، أشعلت اثنين منها، ثمَّ ملأتُ قنّينة ماء صغيـرة، شـربتها بأكملهـا،. عندمـا بحثتُ عن نظّارتـي، لم أجدها، حينهـا تذكّـرتُ أنّ ياسـمين كانـت قـد أخذتها أمـس وأنها ربّما لا تزال بجيب السّـترة. أخذتُ علبة دوائي، جرعتُ نصف كأس ماء مع حبّة دواء للمعدة، ونصفاً ثانياً لحبّة دواء دائي، ثمّ تركتُ فوق مائـدة المطبـخ قرصاً فوّاراً لمنشّـط في نصـف كأسٍ أخرى يَحتاج إلى دقيقة كي يعطي مفعوله.

أخذتُ دُشّاً طويلاً، وقد استغرق الدّشُّ خمساً وأربعين دقيقة، أطلتـه لأزيـل بقايـا الأمـس وحثالة أرق النّوم عن أعضاء جسـدي، كمـا لأُحمّـي عظامـي التي برُدت، وأزيل عنها صدأ خمول النّعاس فتصبح مرنِة.

شربتُ المنشّط، ثم رحتُ أعدُّ فطوري، وجلستُ في المطبخ أزدرد حصّتي منه وأترك للنّائمة حصّتها إلى أن تستيقظ.

تناهى إليَّ تثاؤبها وصوتُ خطواتها وهي تفتح نوافذ الصّالون. مرّت بجانب المطبخ، ألقت يدها سلاماً، وأكملت مراسم استيقاظها بـدش، ثـمّ اتّجهـت بعد مدّة إلى حيث أجلـس لتحتلّ مكانها على كرسي قبالتي.

رفعت خصلة شعر هاربة وقالت:

- صباح الخير!

جاء صوتي متقطّعاً:

- صباح الخير.. هل نمتِ جيّداً؟

أشارت بإيماءة رأس بأنها كذلك.

قلتُ لها:

- شاي أم قهوة بالحليب؟
- أيّ شيء.

ضحكتُ وضحكتْ هي الأخرى. نهضتُ وتوقّفتُ بجانبها، ثمّ نقرتُ على فروة شعرها بسبّابتي.

قلت:

- اخدُمي نفسك.

تثاءبت قائلةً:

- و..ا..خا!

ثمّ اختفيتُ من حولها.

كنتُ أطلّ من نافذة الصّالون عندما جاءني صوتها يُنادي. نزعتُ نفسي من النّافذة ثم استدرتُ لأجدها تتّجه نحوي.

سألتني:

- هل رأيت هاتفي؟ وضعته أمس فوق الطّاولة، بحثتُ عنه لكنّي لم أجده.
- وضعته في غرفتي عندما وجدتك نائمة، استعنتُ به لأضيء الطريق نحو الغرفة.

جلبته لها، وقلت:

- على فكرة، لماذا لم تنامي في غرفتي، السّرير أريح من الأرض.
- لم أستطع النّوم وحدي.

- مــ...ــمم، على أيّ حال، نظّارتي من فضلك.
- ستجدها قرب التّلفاز.
- على كل حال ساعديني في طوي الملاءات عن الأرض.

رحـتُ أجمـع أنـا وهي الأغطيـة، أرجعتها إلـى حيث كانت. وراحـت هـي ترتّـب المـكان، وعـدتُ لأحمـل مـا تبقّـى، وكانت وسـادتي التي نامت عليها هي ما بقي، وسـادتي تلك التي تحمل همّـي. كـم يـا ترى نقُصت هموم ياسـمين بعد أن وضعت رأسـها عليهـا؟ هـل زادت وسـادتي هموماً أخـرى؟ أم أن عدواي انتقلت إليها؟

لمحتُ ياسمين تريد الخروج من باب الشّقة.

- إلى أين؟
- سأصعد لجلب ثيابي من السّطح.
- متى وضعتها لتجف؟
- أمس عندما كنتَ نائماً.
- ألم تكن تُمطر؟!
- لا.
- انتظرينـي أصعـد معـكِ لأفتـح لـك البـاب الحديدي، من الصّعب فتحه أليس كذلك؟
- لا أعلم، وجدته مفتوحاً بالأمس.
- دعينـا نصعـد، أنـا متأكّد أنّه سـيكون مُغلقاً، فهناك جار لنا يأتي متأخّراً دائماً، ويصعد فوق ليدخّن.

صعدنا الدّرجات العشـر، وشـحذتُ طاقتي لأفتح لها الباب. تركتهـا وعـدت، تـاركاً بـاب الشّـقة مواربـاً لكي لا تطـرق فأخطو

المسافة ما بين غرفتي وباب الشّقة لأفتح، فأنا أحاول ما أمكن أن أدّخر طاقاتي بخطط تقيني الحركة كثيراً، فليس لي منها إلّا القليل القليل.

غيّـرتُ ملابسـي. سـمعتُ صوت باب الشّـقة يُغلـق، وتناهت طَرقـات ياسـمين ببـاب الغرفـة. أغلقـتُ أنا الزرّ الأخيـر للمعطف وفتحـتُ البـاب. غيّـرت ياسـمين ثيابها، مدّت لي بذلتـي الرّياضية وضحكت من شعري غير المرتّب بعد. طلبتُ منها أن تنتظر حتّى أجهز، أومأت برأسـها، ثمّ طلبت منّي أن أعيرها إيشـارباً إذا وُجد لتضعه بعنقها نظراً لبرودة الجو.

رتّبتُ شعري سريعاً، انتعلت حذائي، ووضعتُ إيشارباً رمادياً على عنقي. أخذتُ آخر ذا لونٍ أسود، وحملتُ بيدي قفّازان لعلها تحتاج إليهما.

لاحظتُ أنّي أصبحتُ أشـترك بأشـيائي التي تخصّني وحدي، ووجدتُ نفسي أفعل أشياءً لم أعتد فعلها من قبل. شعرتُ باختلافٍ ما، كأنّ تقاسم ما لي مع ياسمين والتّفكير في أمورٍ لم أفعلها من قبل أمرٌ أقوم به تلقائياً دون انزعاج، كأنّ ذلك مألوف وليس فعلاً غير عادي!

وجدتها تتّكئ على باب الشّقة، مددتُ لها الإيشارب. سألتها إن كانت بحاجة إلى القفازين، رفضت طلبي فوضعتهما في جيبي فقد أحتاجهما أنا.

نظرتُ إلى ساعة يدي وقلت:

- إنّها التاسعة، سنتأخّر قليلاً، لأنّي سأذهب إلى الشّركة أقدّم عذراً لعدم قدومي للعمل.

– على راحتك!

فتحتُ باب الشّـقة لنخرج. واجهتُ نجوى تخرج من شـقّتها أيضاً:

– صباح الخير وحيد!

قلت:

– صباح الخير..!

وياسمين تلتني سلاماً.

تفاجأت نجوى عندما رأت ياسـمين بجانبي. تركتُ ياسـمين قرب باب الشّقة، وخطوتُ نحو نجوى أخبرها بأنّي لن آتي للعمل اليوم وأن تُعلم سـعد بذلك. وجدتُ ذلك أفضل، فلا أريد إرهاق نفسي بالذّهاب إلى هناك وبذل جهدٍ في كلمات تشكّل عذراً لعدم مجيئي.

التفتُّ إلى ياسمين ورائي، فبدت لي ملامحها منزعجة بعض الشّيء، ولاحظت نجوى ذلك أيضاً.

قالت نجوى:

– ألن تعرّفني إليها؟

قلتُ مشيراً إلى ياسمين:

– هذه هي!

ابتسـمت ياسـمين لها، وتوجّهت نجوى لتعطيها تحيّة نسـائية بقبلتين على وجنتيها، قالت لها:

– البقية في حياتك.

قلت لياسمين:

– هـذه نجـوى زميلتي بالعمل، وخطيبة صديقي سـعد، أنت

تعرفين سعد.

- آه! نعم!

ثمّ وجّهت نظرها إلى نجوى:

- مبروك الخطوبة..

- الله يبارك فيك.

تنهّدتُ وقلت:

- ياسمين هل نذهب؟

أومأت لي قبولاً.

نزلنا نحن الثّلاثة، هما أمامي وأنا وراءهما. بدا كأنهما يتحدّثان في شيء أسمعه لكنّي لا أحاول فهمه، فأنا أيضاً كنتُ أخاطب نفسي في ما سيحدث بعد أن أصل إلى المنزل الذي لم أحبّه إلا بوجود الذي قد مات وياسمين. أدرك الآن أنّ علاقتي مع خالتي وأهلها سترُمّم أو ربّما أنّها رمّمت منذ زمن، فطالما يبقى المرء بعيداً تُصبح صورته لدى ناظره واضحةً دون شوائب، والسبب.. الجهل بما تكنّه الصّدور، فكلّما اقترب أحدٌ من أحد تبدأ العيوب بالظّهور، ويكون منطلق التّقارب صفةً مذمومة تجلب معها سوء حظ، وهذا ما تعلّمته في سيرة الوحدة، فدائماً ما أضع حدّاً فاصلاً بيني وبين النّاس، ليس انزعاجاً أو ضجراً منهم، بل عفافاً ووقاراً، كما أن ذلك مع إضافة بعض القياسات، يُعتبر هيبةً منك تتولّد لدى الآخر.

لم أشعر بقدميّ تنزلان حتّى برق في عيني ضوء الصّباح من بين زجاج العمارة. قبل أن أخرج، سمعتُ كلمة «عمليّة» قالتها نجوى لياسمين، وتلقائياً فهمتُ أن مِحور الحديث كنتُ أنا، وأظنُّ

أنّها كانت تروي لها سيناريو حفل ضعفي. ولا شك أنَّ هذين الاثنين أصبحتا قريبتين في غضون الدقائق الخمس التي مضت ونسيتا وجودي. مررنا بالقرب من سيارتي وأكملتا سيرهما. نبّهتُ ياسمين أنّه علينا الذّهاب، فلو لم أفعل لبقيَت تُحادثها إلى أن تصل سيّارتها التي تبعد عن سيارتي بأمتار.

دخلت السيارة. شاهدت عبر مرآتي الجانبية أنّهما تتبادلان الأرقام. فتحتْ ياسمين الباب الأيمن للسيارة وصعدت. سيّارتي تحتاج عشر دقائق كي يسخن المحرّك لأنطلق. خرجتُ من السيارة بعد أن طلبتُ من ياسمين أن تنتظرني.

– أين أنت ذاهب؟
– سأتمشى قليلاً حتّى تجهز السيّارة.
– لا تتأخّر!

أخذتُ أمشي تاركاً سيّارتي وياسمين بعينيها اللتين تتبعان وجهتي. رحتُ أمشّط بنظري عدد السيّارات التي شغّلها مالكوها استعداداً للعمل أو لغير العمل كما سأفعل أنا بعد قليل. خلعتُ نظّارتي التي كساها ضباب أنفاسي. بحثتُ جيوبي عن منديل ورقي ولم أجده، وعندها وجدتُ سبباً أنتهي به من الدقائق الخمس المتبقيّة. توجّهتُ إلى مخدع الهاتف، ألقت عليّ بعض الجرائد تحيّتها ببعض عناوينها العريضة، وأخبارها الدّقيقة، ووُجوهِها المُتعبة بعدسة الكاميرا، ورددتُ تحيّتها بعدم الاكتراث وبإشاحة. اشتريت علبة مناديل ورق، وعلكَتين من نوع «Trident» كي أعدّ جهازي اللّغوي جيّداً، وكي تُسمع كلماتي جيّداً لمن سأُقدّم لهم كلمات العزاء ولمن سأستقبل منهم أخرى. عُدتُ ونفسي مُنتعش

بنكهـة النّعنـاع التي امتُزجت بجوفي ولعابي. أشـارت لي ياسـمين من بعيد بأنّنا قد تأخّرنا إشـارةً بمعصمها وهي تنقُرُ فوقه بسـبّابتها علامةً على السّاعة وتأخر الوقت. لوّحتُ لها فقط بإشارة للتّمهُّل. صعدتُ السيّارة. مددتُ لها العلكة الأخرى بنكهة التّوت.

لكـي أصـل إلـى بيـت خالتي الموجـود بالمحمّدية سـيتطّلب وقتاً، قد يصل إلى ما يقارب السّـاعة، نظراً للطّريق السّـريع الذي سـآخذه والـذي سـيكون مزدحمـاً خاصّة في هـذا الوقت، لكن لا مفرّ من ذلك الاكتظاظ الذي سأواجهه، ليس اكتظاظاً واحداً فقط، بل اثنين، واحداً في الطّريق التي سـتوصلني وآخر بعد الطّريق في زحمة الحدث والوجهة.

قالت لي:

- إذن فقد فعلها سعد!
- ما رأيك إذاً؟
- اختياره موفّق. هل قال لها إنه كان خاطباً من قبل؟
- لا أعلم، لكنّي أعتقد أنّه فعل.

وأنهيتُ كلامي بنبرة عدم الاهتمام:

- الله يكمل ليهم بالخير...

انعطفتُ يميناً، ثمّ أعقبتُ بعدها بسؤالٍ عن جدّي:

- هل توفيّ جدّي البارحة؟

كانـت تنظـر مـن زجـاج النّافـذة، ثمَّ ولّت وجههـا لي بعد أن سمعت جُملتي:

- نعم البارحة ليلاً.. على ما أعتقد، فلم أكن في المنزل ليلة وفاته، سمعتُ ذلك باتّصالٍ هاتفي من أمّي.

قلتُ بصوتٍ خافت محدّثاً نفسي:

- بقي عجوزٌ واحد إذن.
- هل قلت شيئاً؟ لم أسمعك جيّداً لضوضاء الرّيح والطّريق.
- لم أقل شيئاً.
- ....

تبقّت مسافة طويلة بعض الشّيء وأنعطف يساراً لأصل. رأيتُ لافتةً مكتوبٌ عليها الرقم 60، خفّفت سرعتي قليلاً. رأيتُ اللافتة التي تشير أنّه يمكنني زيادة سرعتي إلى المئة، ضغطتُ الدّواسة.

قالت ياسمين:

- خفّض من سرعتك قليلاً..!!

ثمّ أردفَتْ:

- هل جلبتَ معك القفازين، يداي تجمّدتا.

كنتُ ماسكاً المقود بيدايّ، وكانت هناك زحمة تتطلّب منّي التّركيز، ولم أكن مُستعدّاً لأيّ شتيمة أو حادث.

قلت:

- أدخِلي يدك في جيب معطفي الأيمن وستجدينهما.

وضعتهما في يديها وقالت:

- ألا تشعر بالبرد؟
- ذلك يعتمد!
- هه! على ماذا؟
- لو وُلدتِ رجلاً ستعرفين على ماذا يعتمد!

ضحكت من قولي، ونزعت أحد القفّازين. لمست وجهي بيدها وقالت:

- أنت بردان!
- هذه طبيعة دمي وجسدي، وأعتقد أنّها برودة الصّباح ليس إلّا، وأنا معتادٌ على هذا النّوع من البرودة.
- أرى ذلك.

انعطفتُ يساراً وقلتُ لها:

- شارفنا على الوصول.

نزعتُ حزام الأمان بعدما اقتربتُ من منزل خالتي، دخلتُ من زقاق وسرعان ما تجاوزته، رأيتُ فوجاً من النّساء يدخلن باب المنزل. ابتعدتُ عن المنزل بمسافة بعيدة، حتّى إذا ما أردتُ الخروج أو الهروب لن تُزعجني السّيارات المصطفّة في الشّارع. سألتني ياسمين لماذا ابتعدتُ كثيراً، ولم أُجبها سوى بإجابةٍ يتيمة لم تفهم معناها ربّما، قلتُ لها: «أسباب شخصية».

ركنتُ سيارتي قرب مقهى، وعندما خرجت، لمحتُ مالك المقهى الذي يعرفني، ولمحني هو أيضاً. طلبتُ من ياسمين أن تسبقني، وذهبتُ إلى صديقٍ قديم لجدّي.

- أهلاً ولدي، كيف راك داير؟
- الحمد لله، الله يبارك فيك عمّي الحاج.

عزّاني في جدّي، وأعرب لي بأنّه يجب أن أستعد، فبعد دقائق ستأتي سيّارة الموتى لحمل جثمان جدّي إلى المقبرة.

أنهيتُ الحديث سريعاً، وقد طلب منّي الدّخول لشرب القهوة، لكنّي رفضت بأدب بذريعة أنّي سأذهب لأرى العائلة وأن خالتي تنتظر مجيئي.

لمحتُ ياسمين في منتصف الطّريق، ورحتُ أجرُّ خطاي

المهزومة التي لا تريد الذّهاب إلى هناك. ناديتُ على ياسمين لكنّها لـم تسـمعني. حملـتُ لحظتها هاتفي واتّصلـتُ بها، وقلتُ لها بأن تنتظر فإنّي وراءها.

لـم أرغـب الدّخـول وحـدي. أن أدخل أنا وياسـمين، شـيءٌ سـيقيني الوجـوه الغريبـة ونوايا النّاس عندمـا ينظرون إلى آخر ذكرٍ من سلالة جدّي، فجدّي هو الذّكر الوحيد بين أخواته الثّلاث.

هـا أنـذا كنـتُ مشـهوراً بمـوت والـديّ، وها أنذا مـرّةً أخرى سأُشهر بموت جدّي الذي كان برتبة الأب والصّديق.

ما أنِ اقتربنا حتى شعرتُ برعشة في جسدي، كصعقةٍ حتّمت على ذاكرتي اسـترجاع كلّ ذكرياتي المنسـيّة مع جدّي، مرّت كلّها علـى عينـي وأنـا أخطـو الأمتار التـي تفصلني عن مقدّمـة المنزل. وكانـت رائحـة أزهار الياسـمين الموجودة في باحة المنزل تُناهض فـي إرجـاع الذّكـرى التي انغرسـت فـي ذهني؛ يومنـا الأوّل عندما جئنـا للسـكن عنـد خالتـي، فقد أصرّ هو على أن يغرس الياسـمين في مقدّمة المنزل، هو ليتذكّر بها ابنته، وأنا كي أتذكّر والديّ. لعنة الياسـمين ما زالت موجودة، فسـيّدته راقبتنا جميعاً، سيؤلمني ذلك حتّى بعد الرّحيل.

مررنـا بجانـب الأزهـار، وكانت ياسـمين على يسـاري حيث توجد الباحة، تخطّينا الباحة. قلتُ في نفسي كلاماً يجمع الياسمين ومن مرّت بجانبه:

«ها أنت مرّةً أخرى تحضرُ رحيل أبٍ آخر».

خوتِ الدّنيا من أمام الباب بعد أن صعد حشد النّساء، لمحتُ مريـم تطـلُّ مـن نافـذة الطّابق الثانـي. صعدتُ الدّرجـات الأولى،

وشـممتُ رائحة أميّزها جيّداً، رائحة مرّت في مسـالكي وعاشـت داخلـي أعوامـاً، والتـي لم تكن سـوى رائحة البـكاء الخفي.. عطر الفقد.

حالتـي لـم تكـن على ما يُرام، فتوقّفتُ عن الصّعود. جلسـتُ على الدّرج. فزِعتْ ياسمين، قالت وهي أمامي منحنية:

- وحيد ما الأمر؟!

- لا أشعر أنّي بخير.

التقطتُ أنفاسـي. فكّرت أن ذلك لم يعد يعني شـيئاً. تنفّسـتُ الصّعداء، وابتسمتُ في وجه ياسمين المشرق ثمّ نهضت:

- لا بأس، أنا بخير.. أنا بخير!

تظاهـرتُ بأنّـي بخيـر، لأنّـي لم أكن، فقد دخل مُسـبقاً طيف الآلام المرير يُعيدني إلى ذاكرتي.

كان بـاب الطّابـق الأوّل مفتوحـاً، دخلنا، وعلى اليسـار حيثُ يوجد الصّالون، كانت هناك نسوة يجلسن، عرفتُ وجوه بعضهن، فقد كنّ صديقاتٍ لوالدتي، ولم أرهنّ منذ زمن وفاتها. نظرت إليّ إحداهن. قالت لي من بعيد:

- وحيد! كيف حالك لم أرك منذ سنين!

رفعتُ صوتي قليلاً، ليُسمع ويخترق حديث بعض النّساء:

- الحمد لله!

ابتسمت لها، وابتسمَت هي أيضاً، ثمّ عادت لحديثها مع امرأةٍ بجانبهـا. دخلـت ياسـمين بابـاً أمامياً، باب المطبخ. استنشـق أنفي رائحة الشّاي، ورائحة أوراق النّعناع، زكّت تلك الرّائحة الطيّبة عطر فقدان الأحياء التي سـرت مع حاسـة شـمّي من قبل. وقفتُ أمام

الباب، رأيتُ وجه خالتي هدى وهي تطلّ عليّ، بدت عليها ملامح البكاء، وعندما رأتني سالت دموعها كأنّها كانت تنتظر رؤية وجهي كي تسيل. تحرّكتُ نحوها أفتعل كلمات لامرأةٍ استبدلت كُرهها لي مع الزّمن بأمومة، ففي كلّ الأحوال هي تحمل جزءاً من والدتي لا يُمكنني إنكاره، فهي شقيقتها بعد كلّ شيء. كانت من قبل تُناديني باسمي، لكن مع الزّمن أصبحت تُناديني «ابني»، لم أعترض في أوّل مرّةٍ قالتها، فكلمة «ابني» تلك، تُعزى لحرمانها من الأبناء وكأمانةٍ من والدتي كي تعتني بي. قُمتُ بمواساتها بما أمكنني من كلمات لم تُشفني من العلقمة التي في صدري. دموعهم تلك كلّها لم تجعل عيني تسيل دمعاً، لكنّها كلّفتني حُرقةً عجزت عن إخمادها، بل شعرتُ بأنّ قلبي يحترق بصبره، وأنّه ينفض رماده المشتعل في منبع البكاء، مجفّفاً كلّ خليّة بكاء تحملها عيني، وحلقي انجرح من كثرة الرّيق الذي ابتلعته عيّاً. حالة حزنهم تلك لن تُضاهي أحزاني، أدلائي النّزيفية من القهر لن تصل إليها غمرة دموعهم، هنّ نساء يحترفن الصّبر مبادلةً بالنّحيب وسفك الدّموع، أمّا أنا فصبري لا يكفي، ودمعي لا يكفي كي أضطهد كل هذا الوجع، وكبدي التي تفطّرت لا تملك قوّةً كافيةً لتواجه كلّ هذا الزّخم من الحزن. قلوبهم تشعر بالألم، وقلبي أنا اعتاد الألم حتّى صار مجرّد نكهة تلذعه، فأدمن قلبي اللّذعات إلى أن صار يتأفّفُ من الجراح.. انتياباً لسلوك الفجائع وما تُخلّفه. أصبحتُ كعود يتداعى، أميل بين السّقوط والانتصاب، مهزوماً بين المقاومة والانكسار، وكان شيءٌ كالشّعرة هو من يُحِلُّ التوازن بين كفّة الْتِعاجي الثّقيلة وكفّة مشاعري الخفيفة التي نسيت مقدّسات هيجانها.

أرهقنـي جـدّاً انهمـار الدّمـوع هنـاك بيـن ياسـمين ووالدتها، فاسـتأذنتُ بالمغـادرة بذريعـة الذّهـاب إلـى دورة الميـاه. وجدتـهُ مشـغولاً، فكانـت فرصـةً لأصعـد إلـى الطّابـق العلوي، كي أشـتمّ غباره وأقتصّ منه رائحة روح جدّي التي غادرت أمس، فيجب أن أتنفّس أريجها المتبقّي قبل أن تندثر بين المسافة التي تفصل المنزل وإلى حيث سيُدفن، وأيضاً كي أُداعب شجني قليلاً بذكريات جميلةً قضيناها هناك معاً.

كلّ درجة صعدتها كان يفيض معها استدرار الذّاكرة. المواقف والأحـداث التـي عشـناها أنـا وجدي بدأت تسـتعيد عافيتهـا انبثاقاً بذهنـي، وتعـود برّاقة لحـكّ معدنها بوفاته؛ أذكر يوم ذهب بي إلى الحلّاق عندما كنتُ في السّابعة، يوم قلتُ له إني أريد لحيةً كالّتي لديه، فضحك من براءتي السّـاذجة وقال إني عندما أكبر سـأحصل على واحدة دون إرادة، وستُصاحبني تغيّرات ستؤدّي إلى ظهورها على وجهي. كان محقّاً، فقد كبرت، وأعلم أنّه كان يوحي لي بشيءٍ آنذاك، أنّ التّغيّرات التي قال لي عنها هي ما يحدث لي اليوم، ولم تكن تلك التغيّرات سـوى رشـدي واهتدائي إلى هذا الواقع، وأنّ الحزن سـيتّكئ شـيباً غير بائن بألوان بيض وكسـتنائية على لحيتي، وبملء كلّ شعرة نبتت في غير زمانها تختبئ ألحان أحزان مخفية بحياء، مختبئة بثقلها على واجهتي.

كان باب الطّابق الثّاني مفتوحاً، مررتُ بمُحاذاته، وكانت مريم تكلّم أحداً على الهاتف الأرضي، وقد أثار انتباهها جسـدي الذي مرَّ بمحاذاة الباب المفتوح، فنادتني، واستوقفني اسمي الذي لُفظ، فعُـدتُ الدّرجـات الثّـلاث التـي صعدتهـا، لأدخل بعدهـا لتحيّتها.

أنهـت المكالمـة، وحملـت طفلتها الصّغيرة التـي كانت تحبو على الأرض. جلسـتْ وجلسـتُ أنا أيضاً، وكنتُ عازماً ألّا أخلق حديثاً طويـلاً. قبـل أن أبـدأ معهـا حديثـاً، اعتذرتُ لها بأنـي أريد دخول الحمام كي أغسل وجهي. أثلجتُ مسام وجهي التي تنفثُ حرارةً، شـربتُ كثيراً من الماء، لكن ظمئي لم ينطفئ، وجفاف لسـاني لم يرتـوِ بجزيئـات المـاء الي خزّنها. بصقتُ كثيـراً، ولعابي المبصوق زاد إرهاقي وقلقي باختلاطه بالدّم، لقد كنتُ في حالة نزيفٍ نفسي استخلصه كبدي دِماءً نفثتُها. لم يكن الأمر خطيراً، كان فقط غليان عروقـي حرقـةً، وطبيعي أن يخرج خضاب الصّبر علّةً من جسـدي تفسيراً عن تهدّم خلايا داخلي لشدّة صلابتي.

عندمـا خرجـت، وجدتُها تحمل صغيرتها عند الباب، وتراءى لي كأنّها تهمّ بالهبوط. التفتت لي وقالت:

- أعود ونتحدّث، يُنادونني تحت.

خطوتُ نحوها لأقبّل الصغيرة على وجنتها، ثمّ أكملتُ صعوداً بانتصار عدم الحديث دون التفاتة.

وجدتُ الباب مغلقاً، وكان جزءٌ منّي يريد ذلك، ربّما مخافةً مـن تخزيـن عـدوى المـكان، فيجعلنـي ذلـك أنزف أكثـر. دخلتُ السّطح لأشتمَّ علياء المكان الذي جلستُ فيه اعتكافاً كلّ ليلة من لياليّ. لم يتغيّر شـيء، فقط بعض الأزهار المنزلية في أوان خزفية كبيرة، والياسمين كعادته لا يترك مكاناً من الأمكنة التي أذهب إليها إلّا وُجـد فيـه. غمـرتُ إنـاءً بلاسـتيكيا صغيراً من صنبور السّـطح، ورويـتُ النّباتـات، وغلـب عطـر زهرتـي البيضاء عطر مـا فاح من الأخريات. جلسـتُ قرب أزهاري أحاول خلق لحظة سـكون بيني

وبينه، لعلَّ هوَسَ عطره يُخمِدُ بعضاً من النّار السّوداء التي انتشرت في أنحاء جسدي.

بعد مدّة سمعت مواءً. كنتُ أظنّ أنّهم تخلّصوا من هرّتنا أو أنّها ماتت، لكنه يبدو أنّها ما زالت متعلّقةً بنا ولا تريد الرّحيل.

اتجهتُ نحو نافذة الصالون الصغير المطلّة على السطح. كانت إحدى دفّتيها الخشبية مفتوحة، فتحتُ الأخرى المُغلقة. فوجدتُ الهرّة جالسة على إحدى الحقائب، راحت تنظر إليّ وأنا أنظر إلى عينيها الرّماديتين. تعرّفت عليّ فقفزت من النّافذة نحوي، ضممتها إلى صدري ومسحت على أذنيها وذقنها ونقرتُ على أنفها الصّغير الرّطب كما تحب. كبُرت هي أيضاً، أصبحت شواربها طويلة، وبدا عليها الوهن وبعض الحزن أيضاً.

لم أُرد الدّخول إلى الشّقة منذ البداية، ولا القفز من النّافذة. بقيتُ حاملاً الهرّة بين ذراعي، ورحتُ أتملّى مسكني السّابق ومواضعه من النّافذة، أرنو إلى تحفُّظه بالكتمان الذي يضربه على الأرجاء. كلّ الأبواب كانت موصدة؛ باب المطبخ، الحمّام، غرفتي التي ربّما تُوفّى فيها جدّي. لا أثاث بالصالون الصغير ولا يوجد فيه سوى حقائب مُغلقة وصندوق جدّي الخشبي. أنبأني حدسي بأن من فعل كلّ ذلك كان جدّي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، والظّاهر أنّه كان على استعداد، فوضع كلّ ما يتعلّق به في حقائب تصلح للوداع وترقّب الحداد.

أخرجني من فلسفة جدّي والمكان نداء ياسمين الذي وصل عبر جدران السّلالم. أغلقتُ النّافذة، لأترك المكان في وقاره وحيائه، دون خدش سكونه بنظراتي التي زادت في استرجاع

الذّكريات لي واشتياق المكان إلى من رحل عنه. نزلت أنا والهرّة بين توديع الياسمين واستقبال صاحبته.

عندمـا نزلـتُ إلى الطّابـق الأوّل، وجدتُ الجميع قد غادروا، ولم يتبقَّ غير ياسـمين التي تفرّدت بي وحدي لمسـاعدتها في نقل إحدى الموائد من الرّدهة إلى المطبخ.

جلسـتُ على كرسـيٍّ أمام المائدة التي وضعناها في المطبخ. ذهبتْ هي لتغيير ملابسها، وذهبتُ لأطلَّ على الخارج من النافذة، لأتأكّد أن الحضور قد غادروا، كي لا أظهر مرّتين. غادرت السيّارة التـي حملـت جثمـان جدّي وتبعتها السـيارات الأخرى، تمنيت أن تغـادر ياسـمين معهـم دون أن تنتظرنـي، لكنّهـا فضّلـت أن تقـوم بمهمّتهـا كمـا كانـت مهمّة الياسـمين من قبل، أن تشـهد عليَّ وأنا أمشي في درب الأموات.

عادت. قالت لي:

– أنذهب؟

بـدا وكأنّ سـؤالها كان يخيّرنـي ويختبرنـي، فلـو كان بيـدي لرفضـت، لكنهـا حتميـة الحياة، شـئتُ أم أبيت، فسـيكون لزاماً أن أستحي من كلماتها فأقبل.

أومأتُ برأسي قبولاً، وخرجنا والقطّة بين ذراعي وكانت تلحّ مواءً وبملامحِ استجداء كي ترافقني.

ركبنا سيّارتي، قلتُ لها:

– مقبرة «الغفران» أليس كذلك؟

– نعم.

وسكتَتْ، تدّخر صوتها إلى أن نصل إلى المقبرة.

كم كان الطريق طويلاً!. أهكذا هو الذّهاب إلى الوداع؟ أهكذا هو الرّحيل؟

صعبةٌ هي حالة الوداع، حالة من الألم، ليس هناك لهفة فيه، لأنّنا نعلم أن ما سيأتي بعد، سيُغيّر منّا الكثير.

ركنتُ سيّارتي بعيداً عن السّيارات الأخرى، كي يسهل عليّ الرّحيل إذا ما أردت، وأدري أنّي سأخرج اليوم مهزوماً من المقبرة ككلِّ زيارةٍ أقوم بها لوالديّ، فهي المقبرة نفسها التي دُفنا فيها. هو ذا آخر سيضاف إليها، لأُترك أنا الورقة المرشّحة التي ستقضي نحبها حاملةً عزّتهم، إلى حينِ يأتي دوري في القرعة فأختار الورقة الرّابحة.

لم أكن مستعدّاً لأن أحضر عن قرب كيف يُوارى التّراب على جثمان الموتى، لذا تركتُ ياسمين تدخل مع الحشد، واعتزلناهم أنا والهرّة لأرى من بعيد. اخترتُ لي مكاناً بعيداً، حيثُ رحمي التي ألجأ إليها دائماً، قبر أمّي البعيد عنهم بمسافة ليست ببعيدة، واخترت المكان مرئياً لياسمين كي لا تفقد أثري. وقفتُ أمام شاهد أمّي، وضعتُ يدي عليه وأنا أبتسم قائلاً أحدّثها: «والدك ارتاح أيضاً، يجب أن تكوني سعيدةً اليوم، لقد بكَاكِ يوماً، واليوم لم يعد حزيناً».

لم يصل إلى مسامعي سوى كلمة «آمين» التي قالتها الجموع بعد دعاء من الفقيه، وتلاها صمتٌ بعد بدء الفقيه بقراءة آياتٍ محكمات. ومن حين لآخر كنت ألمح ياسمين. لم أعرف نساءً كثيراتٍ في حياتي، لكنّي أعي أن امرأةً كياسمين لديها صبرٌ جبّار، ولا أفهم نيتها تلك التي تستوي على الالتعاج والمواساة، تكون

مفجوعـةً وتتخطّـى وجعهـا لتُطيب على غيرها. وها هي الآن أراها تفيض حنانها على والدتها، تُمسـك والدتها التي تبكي وتُعطي لها كتفاً تتّكئ عليه.

مُقابل التّصحّر العاطفي الذي يُمثّلني، هي تنزُّ غابات وطبيعة من روح العاطفة.

مـرّت مـدّةٌ ناهـزت الأربعين دقيقة، وكانت مراسـم الدّفن قد انتهت. اختلطتِ الوجوه علي، ففقدتُ أثر ياسـمين، وكان بعضهم قـد رحلـوا والبعـض الآخر لا يزالون أمام القبر يتحاورون. لازمتُ مكانـي، أُنقّـب عنهـا لعلّـي ألمحها، فلا أريـد أن أتّصل بها، كي لا أسـمع صوتها المبحوح ونبرتها الميتة. لم أجدها، وكانت شـمس الظّهيرة حارّةً، فآلمتني أشعّتها.

كِـدتُ أرحـل دون أن أخبـر أحـداً أنّـي سـأغادر، بمـن فيهـم ياسـمين. لكنّي لمحتها قادمةً نحوي. كانت تحمل كيسـاً بلاستيكياً أبيض فيه شيءٌ لم أتعرّف عليه.

قالت لي:

- امسكْ، ألن تزور والديك؟

رأيـتُ قنّينتيـن صغيرتيـن باللـون الأخضر، فهمـتُ حينها أنّها ذهبت لشراء ماء الزّهر.

من أين تأتين بكلّ هذه الطّيبة الطّاغية يا ياسمين! من أين؟! من أين انبثقتُ أنا في ذاكرتك حين بأسكِ كي تتذكّريني بهذا الشّكل؟

قلت:

- ياسمين..

- نعم!

- اغفري لي.
- ماذا؟
- .. أعني.. شكراً، حقّاً شكراً.

تألّقت في عينيّ ابتسامتها، التي سأحاول أن أدّخرها إلى حين تراودني أفكار عصيّة.

رششتُ ماء الزّهر على الشتلات التي نبتت على قبر والدتي، ودعيتُ في نفسي بدعاء الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، عندما كان يزور قبراً: «السّلام عليكم أهل ديار المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»، وتليتُ بذلك دعوات رحمةٍ على والدتي.

خطونا المسافة القصيرة إلى قبر والدي، سكبتُ القنينة الأخرى وقلت الشّيء نفسه. وأطلتُ الوقوف على قبر والدي، أنتظر مغادرة ما تبقّى من النّاس من أمام قبر جدّي، وكان الأمر كذلك. زُرتُ جدّي الذي أتى بي هنا، وعاودَت ياسمين فصل البكاء من جديد، وأقلُّ ما أمكنني قوله، هو كلمات مواساة.

كنتُ حينما أزور قبر والديّ، أخرجُ ثقيلاً وصدري مُلتهب، لكن اليوم مع الجمع الذي أتى إضافةً إلى ياسمين، لم يكن الأمر سيّئاً على الإطلاق، وأعتقد أن السرّ كمن في اقتسام الحزن، فوحدي سابقاً كنت آتي، أي أنّي كنتُ أخرج بالوزر كلّه.

سُقتُ عائداً إلى منزل خالتي، صعدتُ بهدف أن أودّعهم ليس إلّا. سلّمت على الخالة التي أطالت عناقها لي، كأنّها حاولت شمَّ والدها فيّ. سلّمتُ على زوجها وديع وابنتيها فاطمة الزّهراء ومريم، وتركتُ الهرّة التي كانت جائعة، فلا أريد الاحتفاظ بها فقد أَلِفت

منـزل خالتـي. وكان مـن الصّعـب أن أودّع ياسـمين، فحاولـتُ أن أسـتغلّ اللّحظة التي سـتغيب فيها كي أغادر، فقد كنتُ أدرك أنّها ستطلب منّي المبيت. ولم يكن الأمر كما خطّطت، فقد رأتني وأنا على وشك الخروج، فتبعتني إلى السلالم وهي تُناديني:

- أين تذهب؟

للحظة، لم أجد جواباً مناسباً.

- سأغادر.

قالت دون إرادة في التّبرير:

- على راحتك.

ثم أضافت:

- طمئني أنّك لن تفعل بنفسك شيئاً.
- وماذا عساي أن أفعل، وقد افتُعل بي من قبل.

أردفتُ بعد صمت:

- يجب أن أغادر.. آسف ياسمين.

فهمـتْ مـا في عينيّ اللتين بدا شُـتاتهما واضحـاً، وتنبئان بأن العلقم ينتظرني بعد مغادرتي.

ضمتني إليها وقالت:

- لا بأس، لا تفعل بنفسك شيئاً أيّها الأحمق!

التصقت بفمي بعض خصل شعرها، وقلتُ لها في أُذنها:

- اطمئنّي.

حملتنـي سـيارتي عائـدةً بـي إلـى حيـث يقبع وطـنُ الوجعِ؛ شـقّتي. كنتُ عائداً ونزوح المرارة يُعيد شـحن نفسـه، لدرجة أنّي خرقتُ ضوءاً أحمر.

لم أخرج من سيارتي بعد أن ركنتها. بقيتُ جالساً أعيد كلّ ما حدث، فلم أكن مستعدّاً كفايةً كي أستقبل عالمي المرصّع بالوحدة. للحظة أردتُ تغيير شحناتي السّمعية بكلام أو موسيقي. أدرتُ مذياع السيّارة. بدأ لحن هادئ يطلع، فاسترخيت قليلاً للحن الكلاسيكي واستسلمت له. أثناء ذلك، جاء صوت عبد الحليم حافظ:

«في يوم
في شهر
في سنة
تهدى الجراح وتنام
وعمري جرحي أنا
أطول من الأيام...».

استسلمت إلى وقع الكلمات:

«وداعاً يا دنيا الهنا
وداعاً يا دنيا الهنا
وداعاً يا حب يا أحلام
دا عمري جرحي أنا أطول من الأيام...».

لم أتحمّل. أطفأتُ الرّاديو، وخرجتُ من سيّارتي مُغلقاً إيّاها بضغطة زرٍّ دون أن أستدير.

أصبح الموت يُؤلمني في معدتي. فور دخول شقّتي، ذهبت مباشرة إلى دورة المياه، تقيّأتُ ما فعلته الغصص حرقةً في المعدة. شعرتُ بأضلعي تتقلّص، ونتوء قد خرج ليصبح ظاهراً على أحد أضلعي، فقد كنتُ في حالة عتاب من الموت لا غير.

أخذتُ مسكّناً لمعدتي، وحمّاماً طويلاً. عندما جاء المساء، وانتهى حزن الآخرين صباحاً، اشتعل حزني في الليل بعدما اغتُصب حقّه في البكاء. عُدتُ إلى شرب القهوة، ولم أستطع التّعبير بالدّموع كالآخرين، فقد تركتُ لجرح القلم المهمّة. أجهل ما كتبته، ولكنّي كنتُ شديد الحزن في الكتابة، فحالة سيّد الحزن الطويل تُحتّم عليّ ذكر كلمتي «الموت» و«الحياة» كثيراً في معان متعددة، فلستُ مُحترفاً الكتابة، بقدر ما أنا ممارس لها في التّعبير عن الألم بألفاظٍ مُتلاعبٍ بها لإفهام نطفة ألم.

بكاء الكتابة لم يكفِ، فسالت دموعي على وسادتي عندما حاولتُ النوم.

ها أنذا يا جدّي بكيتك بكلا الطّريقتين، فالشّمعة عندما تقترب من الانطفاء، تُطلق كلّ ما في جعبتها من نار تغدو عاليةً حتّى آخر جزيئة أوكسجين تُساعدها..

فمن يوقف دمعي.

الفَصْلُ الخَامِسُ

I

مضى أسبوعٌ على وفاة جدّي.

هل اعتدتُ على ذلك؟

شكّل ذلك فرقاً ضئيلاً لا غير، فلم أعتد على رؤية جدّي كلّ يوم. ويبدو أن عقوقي للعائلة قد سخّر نفسه للحظات كتلك، وأرخى رابطتهم بي على نحو أفضل. أعلم أنّي قد أكون أنانيّاً في أفعالي تلك، أو أنّني كذلك، ففي آخر الأمر، اخترتُ أن أكون عابراً لا غير، فحياتي ذاهبة إلى ما لستُ أعلم، ولا أريد أن أجرّ معي البعض، وهم يدركون ذلك أيضاً، ويتركون لي عذب الألم أستسيغه وحدي، كما أنّي لم آلف مواجهة ما تفعله الدّنيا بي مع القطيع؛ أواجهها وحدي أعزل بدون دروع قلق من أحد أو على أحد، وبدون عونٍ أو دعم.

وإنّي لأعجب لهذا التّرادف بين الحياة والموت، بين السّعادة والحزن، بين النهار والليل، بين النور والظّلام، بين الأعراس والجنائز...

يوم أمس أُقيم العُرس الذي حدّثني عنه زوج خالتي، وأعتقد أنّ ترادف وفاة جدّي والزّواج كان أمراً حتمياً، فالحياة تنتهي لتبدأ أخرى. وتلك الحياة الأخرى التي بدأت، لم أشترك بها مع

الآخرين.

ولِمَ أكون حاضراً في ذلك الزفاف! فأنا سيّد الحزن الطّويل، لا شيء يتغيّر عندي، كلّ ما يحدث ما هو إلّا تكملةٌ لشريط العدم الذي أنتمي إليه.

أُقيمت جنازةٌ الأسبوع الفارط خلّفت صوراً وأصواتاً، وهذ الأسبوع خُلّفت الأشياء نفسها، فقط بطريقة مُغايرة.

II

رنّ هاتفي عندما كنتُ جالساً في مكتبي أعمل، لم أردَّ على الاتّصال، وتركته يرن دون أن أنظر إلى هوية المتصل.

مرّت دقائق، وعاد رنين الهاتف. أخرجته من جيبي لأضعه في وضعية صمت، فلمحت اسم المتّصل. وضعتُ الهاتف في وضعية الصمت وأعدته لجيبي، فقد كان المتّصل هو من أشعل حرقة الكتابة لدي.

نقرتُ آخر نقرة على لوحة المفاتيح. أطفأتُ الحاسوب، وشعرتُ بلذّة ما بعد القيام بعمل، تلك اللّذة المجهولة بتعبٍ محمود لا أُعارض إرهاقه لي. أكملتُ قهوتي، وحملتُ مفاتيحي، ثمّ خرجت. ألقيتُ سلاماً على زملاء العمل، وابتسمتُ في وجه موظّفة الاستقبال. تحدّثتُ قليلاً مع الحارس، وبعدها انصرفت بسيّارتي إلى منزلي، لا ألوي على شيء غير أن أُعدّ شقّتي للضّيوف الذين سيأتون قبل الثّانية.

فتحتُ باب شقّتي، خلعتُ سُترتي وحذائي. دخلت الصالون الذي أثّثته الخميس السّابق. ملمسُ وبر السّجادة ناعم، ورائحة الأثاث الجديد الذي ألِف مكانه في مضجعي يُعطي رائحة التّآلف، والحقُّ أنّ شكل الصّالون أعجبني أكثر، فقد أصبح يُضفي شيئاً

مميّزاً على المكان. فتحتُ النّافذة كي تدخل أشـعّة الشّـمس، التي أعطت الصّالون إشراقة، وأعجبني مظهر الثّريّا التي برقت بلّوراتها الكريستالية بفعل أشعة الشمس. دفعتُ الطّاولة الكبيرة إلى اليسار قليلاً لتُماثل الطّاولة التي تشـبهها تناسـقاً في المسـافة والأبعاد، ثمّ أزحـتُ السّـتائر الذّهبيـة، كـي تغيب من ضوء الشّـمس الذي يملأ المكان حرارة.

سـمعتُ بـاب شـقّتي يُفتـح، وكانـت ياسـمين، فقـد أعطيتهـا المفتاح الثّاني لشقّتي.

أخذتُ الأكياس من يدها قائلاً:

– جئتِ باكراً!

– بطبيعة الحال، يجب أن أُسرع في التّحضير كي يكون ذلك في الوقت.

أخذتُ الأكياس إلى المطبخ، وهي ذهبت لتغيّر ثيابها.

تركتُ ياسـمين في المطبخ، فهي لن تحتاج منّي يد عون أو إرشـاد، لأنها حفِظَت كلّ موضع، فقد تداولت على شـقّتي مرّات عدّة بعد وفاة جدّي. غيّرتُ ملابسـي، ثمّ دخلتُ إلى الحمّام لكي أستعدّ بذهني وذاكرتي لاستقبال ما سيأتي.

المـاء يهطل فوق رأسـي، وكرة الأفـكار والحيرة تضغط على دماغـي. لمـاذا أرادت تلـك الخالة وزوجهـا زيارتي، ليس وحدهم بل جميعهم، خالتي وزوجها وبناتها، وأولاد بناتها، وأختٌ لجدّي لم أرها يوماً في حياتي، هي ومع من لا أعلم سيأتون إلى شقّتي. لم أستطع الرّفض عندما أخبرتني خالتي أنّها سوف تأتي لزيارتي. أصبحـتُ لا أطيـق هـذه العلاقة الطيّبـة التي أصبحت تجمعني بهم

فجأة، بقدر ما هي جيّدة، فهي تجلب لي الكثير من المتاعب والوجوه، قد أقبل بحضور خالتي وعائلتها، ولكن لماذا أختُ جدّي تلك؟ أهذا كلّه حبٌّ لحفيده العجوز؟ لا أُشفقُ على نفسي من ما سيحدث عندما سيأتون، بل أُشفق على شقّتي التي لم تستقبل عدداً هائلاً من الزوار من قبل، تُرى هل ستَسْعَدُ شقّتي بامتلائها بالكلام والجوّ العائلي؟ تُراها ستتجرّد من تأثيري وتبتهج بالتّأثير الجديد الذي سيخلفونه؟ كلُّ ما أخشاه هو أن تُصبح دُنيا معيشتي مُغايرةً ولا تصلحُ بعد ذلك لوُجودي فيها.

ربّاه ما هذا الحصار! ما هذا الغدر الذي فعلته بي نيّات صلة الأرحام! ما هذا الاقتحام المباشر وغير المباشر! وما بال هذا التّذمّر الممل الذي أستشعره لزيارة ستنتهي ليلاً! أريد أن أعرف هدفهم لزيارة هذا البيت الكئيب وصاحبه، ماذا يريدون من شخص يعيش وحده، ولا يُبالي بأمر العالم إذا ما انهار يوماً قبله؟

جفّفتُ شعري ومشّطته ثمّ خرجت، وتركتُ باب الحمّام مفتوحاً ليخرج بُخار الماء الذي يحملُ عبئي.

كنتُ أصلّي عندما طرقت ياسمين باب غرفتي، فرفعتُ صوتي في السّجود، لأنذرها أنّي أصلي.

انتهيتُ من صلاتي فناديتها:

– هل تحتاجين شيئاً؟

– أريد قطعة قماش، فالقدور عندما تسخن يُصبح حملها وإزاحتها مستحيلين، وأنت لا تمتلك قفّازات الطّبخ، لذا..

أخرجتُ من خزانتي قميصاً لم يعد يُناسبني، أخرجتُ مقصّاً من الدُّرج، وطلبتُ منها أن تُمسك معي وتختار القطعة المُناسبة

منه.

قالت:

- هل أنت مجنون! طلبتُ قطعة قُماش قديمة.
- وهذا قميصٌ قديم لم أعد أحبّه، لا تقلقي سيفي بالغرض.
- أنت غريب حقّاً!

قصصتُ منه قطعة مربّعة، وأعطيتها لها. ثمّ استلقيت على السرير وأغمضت عينيّ دون نوم، بعد أن غادرت هي تُكمل ما كانت تفعله.

تذكّرتُ اتصال الصّباح من الطّبيب، نهضتُ عن السّرير. حملتُ هاتفي، وذهبتُ إلى غرفة المعيشة. جلستُ على الأريكة، ثمَّ حاولتُ الاتصال به.

عندما لم يردّ على اتّصالاتي الأربعة والتي أعتقد أنه يعمل الآن فيها، أدرتُ التّلفاز. أتعبني التّلفاز ببرامجه فأطفأته، لحظتها اهتزّ هاتفي في جيبي عن ورود رسالة. ظننتُ أنّها من الطّبيب، لكنّها لم تكن منه، بل كانت من نجوى: «Thumbs up!! Good Choice!!!»، لم أفهم من الرّسالة شيئاً، فأرسلتُ بدوري: «ماذا تعنين؟».

أجابت:

«Nooothing… Nothing, just take care of her for me»

قرأتُ تلك العبارة الأخيرة، فعرفتُ أنّها كانت تقصد ياسمين، فأرسلتُ رسالةً أخرى: ((أتقصدين ياسمين أليس كذلك؟!)).

جاءتني رسالة حينها من سعد: «Bingo!».

فأرسلتُ لهما: «ماذا تريدان منّي أنتما؟».

أجاب سعد: «لا تضيّع الفرص يا صديقي..».

وجاءت رسالة أخرى من نجوى:

«Don’t break her heart, she loves you!»

أرسلتُ لهما: «طاب يومكما».

وضعتُ الهاتف فوق الطّاولة، ونهضتُ عن الأريكة. سمعتُ اهتزازاته، لكنّي لم أقربه كي لا أدخل في مرحلة الحرج، فكلّ ما يقولانه أكنّه داخلي، ورغباتي في الحاجة إلى امرأة، تؤول كلّها إلى ياسمين، لكن لا يُمكنني، فأنا أمتنع بسبب المرض الذي سيُمحيني، ولستُ خائفاً على حالتي، بل أنا مذعورٌ ممّا ستفعله حالتي بها.

أوليس هذا حرماناً بحدّ ذاته! أن أحبّ مرضي وأكرهه في الآن نفسه، أن أحبّ امرأةً ولا أعمل على كسبها بسبب علة في جوفي!

أنا يتيمٌ من كلّ الجهات الآن.

لا أعي هذا الاقتراب الذي يحشُّ أوصالي منها، لا أفهم لماذا تُحاول الوصول إلى قلبي الذي امتلأ بالصّدأ؟! لماذا تُريد فتح أبوابه لتضغط إعادة زرّ الحياة فيّ؟ أتراها تُشفق علي، أم أنّها تجد شبهاً منها فيّ؟!. تعذّبني معاناتي، ومعاناتها في رغبتها للوصول إليّ.. تُعذّبني أكثر، هي تدرك أنّي رجلٌ شتّت أشلاء مشاعره، وتفرّقت أعضاؤه في أماكن مُختلفة وبعيدة عن بعضها، لكنّي فقط أريد أن أعلم لماذا تُحاول جمع أشلائي وأعضائي لتكوّنني كاملاً؟ لماذا تُحاول جاهدةً جمع رفات قلبي، وتريد توجيهي نحو الحقيقة التي عُميت عنها؟. أدركُ أنّ الحبّ دواءٌ لبعض أمراض القلب، لكن لا أعتقد أنّه دواءٌ يصلحُ لي، وحتّى إن صلح، فإنّه سيُصبح داءً هو الآخر للآخر الذي أعطاه لي. أعلم أنّ المستقبل الملثّم لا يحمل لي سوى القليل من البهجة.. والكثير من الألم، ألمٌ خام سيُتعبني

ويتبعني ليُعاتبني في القبر.

سمِعتُ صوت محرّك سيارة من النّافذة. ذهبتُ لأطلّ من نافذة الصّالون لأتأكّد إن كانوا هم، وبالفعل كانوا هم.

ذهبتُ إلى ياسمين:

- إنّهم هنا، أتحتاجين مساعدة؟
- لا، كلّ شيء تمام.

زكّتني رائحة الدّجاج وهو يُحمّر في الفرن، ورائحة البصل وهو يُقلّى، والظّاهر أنّ ما تعدّه هو «البسطيلة».

قلتُ لها:

- أحقّاً لا تحتاجين شيئاً، يبدو الأمر مُتعباً.
- قلتُ لك لا أريد، وحتّى إن أردت فلن أطلب منك، أُختي ستأتي لتمدّ لي العون، ارتحْ أنت!

استجبتُ لنبرة أمرها، وانتابني شعورٌ سخيف حينها، بأنّني أنا الضّيفُ هنا وليسوا هم..

عندما فتحت الباب لهم، ارتاح خاطري عندما لم أرَ أخت جدّي تلك ومن معها، فقد جاءت خالتي وابنتاها وأبناء ابنتيها، أما زوجها فربّما سيتأخّر بعض الوقت، فقد أوصلهم وغادر، ربّما لديه شيءٌ ليقضيه ثمّ يعود.

قالت خالتي هدى:

- مرحباً ابني! كيف حالك؟
- كلّ شيء على ما يُرام.

أدخلتهم الصّالون، الذي كفى باتّساعهِ مركز ألعابٍ للصّغار الذين بدؤوا بالقفز فوق الأثاث.

بعد أن جلسن وجلستُ معهن، قالت فاطمة الزّهراء:

- كبرتَ يا ابن الخالة، كبرت!!

بعدها نهضت هي وأختها مريم ليُعينا ياسمين، أمّا أنا فبقيتُ جالساً مع خالتي.

رنّ الجرس مرّةً أخرى، ذهب ابنُ فاطمة الزّهراء البِكر لفتح الباب. دخل وديع، والتفتَ إلينا. نزع حذاءه وتوجّه نحونا. قمتُ من مكاني لأصافحه. قال لي بعد أن جلس:

- كيف راك داير أولدي؟ كيف دايرا أمور الخدمة وداكشي؟
- الحمد لله، الأمور بخير وعلى خير، راه حنا غادين حتى يدّي مول الأمانة أمانتو..

وانضمّ إلى زوجته ليأخذ مقعداً.

قال:

- مرّ وقتٌ طويل ولم نجلس جماعةً هكذا.

ابتسمتُ في وجهه قائلاً:

- كلٌّ وما فعلتْ به دُنياه.

استدرجني للحديث عن الدّراسة الجامعية ومشاكلها، باعتباره أستاذاً جامعيّاً، فقد سمعتُ أنّه يُدرّس بجامعة تقع بمدينة المحمّدية، يُدّرس فرعاً ما من سلك القانون على ما أعتقد.

جاءت مريم لتقطع حديثنا. وضعت صينية عليها إبريق الشّاي والأكواب التي لمعت حين فتحت خالتي السّتائر. وضعتِ الصّينية ثمّ عادت لتجلب الصّحون الصّغيرة التي تحتوي على «زيت الزيتون»، «زبدة بلدية»، «مربّى»، «زيتون أسود»، ثمّ عادت مرّةً أخرى لتأتي بالخُبز الذي خبزته ياسمين، كما أتت أيضاً بصحنين

من الفطائر، وصحن فيه الجبنة المعروفة بالبقرة الضّاحكة. وما أن رأى الصّغار الطّاولة امتلأت حتّى تجمّعوا. شكرتُ مريم فردّت شُكري بابتسامة بادلتها بأخرى.

شربتُ كوب شاي واحد فقط، فلم أستطع أن أضيف آخر رغم حبّي للشّاي، فقد كان يحوي تلك النبتة «الشّيبة»، وأنا لا أطيقها، بل أكرهها اسماً ومذاقاً، نكهتها تلك حارّة. اكتفيتُ بنزع حرّها بأكل كِسرة ياسمين الطّرية التي داعبت لثّتي.

تركتهم وذهبت إلى غرفتي، أخرجتُ عبوّة الدّواء من الدّرج، أخذتُ حبّتين ثمّ ذهبتُ إلى المطبخ. كان المطبخ مشتعلاً بالحديث وحرارة الفرن. طلبتُ من ياسمين أن تمدّ لي كأسي ماء، ثمّ عدتُ إلى غرفتي. وضعتُ الكأسين فوق مكتبي بجوار الحبّتين. أخذت نفساً طويلاً، ثمّ تناولت الحبّة الأولى مع كأسها، وتلوتها بالأخرى مع كأسها أيضاً.

حاولتُ الاتّصال بالطّبيب ريثما تجهز الوليمة، اتّصلتُ به المرّة الأولى فلم يُجب، وانتظرتُ قليلاً، ثمّ عاودتُ الكرّة فردّ على اتّصالي:

- أهلاً دكتور! كيف الحال؟
- ولله الحمد، يبدو أنّك كنتَ مشغولاً عندما اتّصلتُ بك.
- نعم. لندخل في الموضوع، ما سبب الاتصال؟

ثم أضاف:

- صدّقني لا أريد الحديث في الموضوع على الهاتف، أفضّل عيادتي، فالأمر في غاية الأهمية، وأحتاج حضورك كي نتناقش فيه.

رُحتُ أحاول أن أحزر عمّ يريد محادثتي، عمّ يُريد إخباري بعد أن وضع قنبلة سابقاً في خزّان الأخبار عندي، أتراه يعدّ لي شيئاً آخر؟

قلتُ له:

- هل الأمر يتعلّق بما قلت لي سابقاً؟
- ممكن!
- لماذا لا يُمكنك أن تخبرني الآن؟
- قلتُ لك! الأمر مهم، وليس شيئاً نتحدّث فيه بالهاتف.
- حسناً! متى يُمكنني القدوم؟
- انتظر قليلاً، سأسأل السّكرتيرة عن وقتٍ فارغ يصلح لنا لنتحدّث، فلا أريد أن يُزعجنا أحد.
- خذ راحتك.

ثمّ قطع الخط.

كنتُ قد تركتُ باب غرفتي مواربا. سمعتُ خطواتٍ خفيفة تقترب، استدرتُ نحو باب الغرفة على يساري، دخلت طفلةٌ صغيرة، لا أدري إن كانت ابنة فاطمة الزّهراء أم ابنة مريم، لكنّي أظنّ أنّها ابنة مريم، فلها أنفها الصّغير نفسه وعيناها الكبيرتان. بقيت الطّفلة تحدّق إلى المكان، أشرتُ لها بيدي كي تأتي. قَدُمت نحوي تجري، تلقّفتها وحملتها بين ذراعي أدغدغها، وتعالى صوت ضحكاتها الصّغيرة. أوقفتُها على الأرض، وانحنيتُ مقرفصاً أسألها: «ما اسمُكِ؟»، لم تُبالِ لسؤالي، كانت تضحك فقط، دغدغتها على أضلعها فزادت ضحكاً. أعدتُ سؤالي لها: «ما اسمُكِ يا صغيرة؟». قالت بأحرف متلعثمة ومتأتأة: «مـ.. مـ.. ملاك»، قلتُ لها: «بوسي

عمّو!». قبّلتني على خدي، ورددتُ قُبلتها اللّطيفة على جبينها، ثمّ حملتها من الأرض بين ذراعي وخرجتُ بها من الغرفة. ألصقَتْ أظفار يدها بقميصي، ولم تكفّ عن الضّحك. مررتُ بجانب المطبخ، لوّحت ياسمين بيدها، ولوّحت لها الصّغيرة وهي تُقهقه..

قالت مريم:

- وحيد وابنته!!

لم أعلّق على شيء. دخلتُ الصّالون، ومددتُ الصّغيرة إلى والدتها، وحدّقتُ إلى وجهها الطّفولي الذي لا يولي أهميّةً لقساوة الدنيا بطفولته، ثمّ غادرتُ وأنا أردّد في نفسي: «لا شكّ أنّي كنتُ ضاحكاً في سنّها! لا شكّ!». عُدتُ إلى غرفتي ورائحة الطّفولة مُلتصقة بي.

رنّ هاتفي عندما كنتُ أبحث عن إيصال لخدمة الإنترنيت، فأجبت:

- ألو! إذن متى؟
- هل أنت متفرّغٌ اليوم السّاعة الثّالثة والنّصف؟
- لا أظن ذلك، فعندي ضيوف.
- إذن غداً السّاعة العاشرة.

فكّرتُ أنّه ما دام الأمر مُهمّاً كما يدّعي هو، فإنّي سأطلب مُغادرة العمل في العاشرة، كي أسمع قضيّة الأمر الجديد الذي سيُحادثني فيه.

قلتُ له بعد لحظة تفكير:

- حسناً، ذلك يُناسبني.
- جيّد جدّاً، أراك غداً.

- إن شاء الله.
- رافقتك السّلامة.
- وأنت أيضاً.

وضعتُ هاتفي فوق المكتب، واستجبتُ لنداء خالتي التي كانت تُناديني للجلوس بجوار المائدة، فقد حان وقت الغداء.

جاءت ياسمين بعدها. بدا لي وجهها مُشرقاً كالعادة، غسلت وجهها على ما أظن، فبعض خصل شعرها كانت مبلّلة بالماء، وشعرها الأسود كان يلمع من تأثير أشعّة الشّمس. نظرتُ إليها نظرة خاطفة، ولاقت عيناي عينيها، فأشحتُ نظري. جلستْ مُقابِلةً لي، في حين كنتُ أجلس أنا قرب خالتي فوق الأثاث المفرّش. أتت بعدها مريم بصحن مزخرف موضوعة به تلك الأكلة الرّمز لأطباق بلدي. وضعت صحن البسطيلة الكبير فوق المائدة، وعادت لتأتي بقنّينتين من المشروبات الغازية والتي لن أشربها بالطّبع، تحفّظاً على ما قد يطرأ على معدتي الهشّة، وجلستْ مريم هي الأخرى بجوار ياسمين. همَّ الكلُّ بالأكل. قطعتُ لي بسكين قطعةً ثلاثية الشكل ووضعتها في صحن صغير قُبالتي. راح بعضهم يُحادث، ومريم ترفس لابنتها وتُطعمها لُقماً صغيرة. مرّت لحظات وأنا أستسيغ طعم الدّجاج واللّوز الذي ألعب شهيّتي في الأكل، فانتهى بي الأمر إلى قطع جزءٍ ثلاثي آخر، وعندما وضعتُ الجزء في الصّحن، قالت فاطمة الزّهراء:

- يظهر لي أنّها أعجبتك.
- أعتقد ذلك أيضاً!

نظرتُ إلى ياسمين وأنا أقضم اللقمة الأولى منها، وافتعلتُ

حركـة إعجـاب، حيـثُ شـكّلتُ صفـراً بإبهامـي وسـبّابتي ورفعتُ الأصابع الأخرى فوق، علامة على حسن طهيها، ثمّ أومأتُ برأسي وابتسامة رضا تعلو وجهي وأنا أمضغ. أنهيتُ حصّتي ثم نهضت. عُدتُ إلى غرفتي لآخذ حبّة دواءٍ أخرى أتناولها بعد الأكل. دخلتُ المطبـخ، مـلأت كأسـاً بالمـاء، وتناولـتُ دوائي. لاحظتُ أنّ سـلّة القمامة كانت مُمتلئة، فحملتها من مقبضها البلاسـتيكي وأخبرتهم أنّي سأخرجها وأعود.

طـوال نزولـي والمسـافة التـي قطعتها لأرمـي النّفايات، كنتُ أفكّر في أنّ ما حدث اتّسم بشحنةٍ عائلية، وشعرتُ أنّ شقّتي هي أيضاً كانت سعيدة، وكنت أيضاً مبتهجاً بدرجات، فقرابتي بهم قد تحسّنت إلى حدٍّ ما بعد وفاة جدّي، فالموت يغيّر طبعاً من طبائع النّاس وعاداتهم.

عـدتُ أطلـع السّـلالم، فوجـدتُ زوج خالتي ومريـم وابنتيها تنزلان.

قلت لهم:

- إلى أين؟

قال وديع:

- يجب أن أذهب، صديقٌ لي ينتظرني.

ثمّ قالت الأخرى:

- زوجي قدِ اتّصل.

قال وديع:

- على كلّ حال، كانت زيارةً طيّبة، مع السـلامة، إلى المرّة القادمة يا ابني، دُمت بخير.

- وأنت أيضاً.
- وأعتقدُ أنّ خالتك ستذهب لاحقاً، ستُوصلها فاطمة الزّهراء بسيّارتها.
- على راحتهم.

قالت مريم:

- مع السّلامة، اعتن بنفسك، نراك المرّة القادمة.
- إن شاء الله.

نزلوا هم وصعدتُ أنا. عندما دخلتُ كانت الخالة تصلّي في الصّالون، وكانت ياسمين وأختها تنظفان الأواني، أمّا الصّغار فكانوا يُشاهدون الرّسوم المتحرّكة بالتّلفاز. أرجعتُ ما كان بيدي إلى المطبخ، ثم عدتُ بعدها إلى غرفتي، وكنتُ أفكّر متى سيرحلون..

أغمضتُ عينيّ، فسمعتْ أذناي صوت الكرتون المعروض في التّلفاز، ومن خلال صوت الشّخصية عرفته، كان «سبونج بوب»، كان الأطفال يتسلّون باللقطات الكوميدية، فصوت ضحكاتهم يصلُ إلى غرفتي.

دائماً ما أُخفق في تفسير ذلك التّفاوت المُترابط في تركيز الحواس الأخرى عندما تغيب حاسّة الرؤية. على سبيل المثال، عندما أُغلق عينيّ، أسمع أكثر وبشكل أوضح، حتّى عندما أريد تذوّق شيء أغمض عينيّ لأستسيغ طعمه جيّداً، كما هو الحال أيضاً مع لمس شيء لأستشعر نعومته أو خشونته. وهذا التّرابط يُبرهن أنّ الرؤية تضعف بحضورها قوى الحواس الأخرى، والسّبب راجعٌ إلى ذلك الشّتات الذي تفتعله الجمادات المُحيطة بالعين، والتي تختزل كلّ الحكي بالنّظر فيها. أصبحتُ أؤمن بأنّ ما يمنع العقل

من الارتقاء، ومن فصل الزّيف عن الحقيقة هو القلب، تلك العين الكُبرى التي ترى وتُبهرج، التي تَعمَى وتُخرّب، وأظنّ أنّ منطقي الدّائم لقلبي، هو فقط لكي لا أَضِلَّ به عن نفسي، ولا أجعل عقلي يُصاب بعدوى العاطفة منه، فقد تعلّمتُ منذ زمن، أنّه كلّما نبذتُ فؤادي أصبحتُ في حالة أفضل، والله تعالى خلق في كلّ كائن قلباً يُدير أواصر ذاته، والقلب تملكه جميع المخلوقات، وكرّم الله الإنسان بالعقل ميزة عن باقي الحيوات، وأعتقد أنّ السّبب هو في أن يكون العقل قوّةً ضاربة تُحيل التّوازن بين تقلّب الفؤاد وتأثيره على الأعضاء الأخرى.

فتحتُ عينيّ اللتين بقيتا مغمضتين قرابة الخمس دقائق، نهضتُ سريري، ثمّ ذهبت إلى المطبخ. وجدتُ الاثنتين تتحدّثان. ملأتُ إبريق الماء وتركته يغلي على الموقد لأحضّر شاياً أهضم به سريعاً ما أكلت. عندما كنتُ عائداً، نادتني الخالة وهي تلوّح بيدها أن آتي إليها. ذهبتُ نحوها طائعاً:

- تريدينني في شيء؟
- اخفض صوت التّلفاز وتعال أريد التحدث معك.

فعلتُ ما طلبت، وعدتُ لأجلس بقربها. بدا كأنّها كانت تفكّر في أمرٍ ما.

قالت بصوت منخفض:

- أريد الحديث معك، لكن ليس هنا.

فهمتُ ما قصدت، أنّها تريد الحديث معي في موضوع لا تريد من الأخريات سماعه.

قلت:

- ما رأيُك بالسّطح فوق؟
- هذا يُناسب!!

صعدنا، وكانت في ذهني أسئلة عمّ تريد منّي هذه الخالة فجأةً، وفي الحقيقة كان عندي لها أسئلة أنا أيضاً.

عندما دلفنا قالت:

- الجو جميل هنا!
- ....

بعد أن جلسنا على كرسيّين، دخلتُ في صلب موضوع أسئلتي التي أردت طرحها:

- خالتي أريد أن أسألك شيئاً.
- أنتَ أيضاً، هيّا قُل!
- خالتي، أعرفك جيّداً، أعلم أنّك تخطّطين لكلّ أمر، لا أعتقد أن زيارتكِ هذه لي ليس لها هدف..

ثمّ أردفتُ بعد لحظة صمت:

- أم أنّي أخطأت؟!

تبسّمت قائلةً:

- متحاذقٌ كوالدتك تماماً.
- إذن، ما هدفك؟

تردّدت قبل أن تتحدّث:

- .. قل لي، هل تفكّر في الزّواج؟

صُعقتُ من سؤالها الذي أتى فجأةً، فلم أكن أتوقّع سؤالاً كذاك.

- من أين جاء هذا خالتي هدى؟!!

قالت ونبرتها فيها مُداعبةٌ لي:

- لديَّ عروسٌ لك إذا شئت.

وضعتُ مرفقي على يد الكرسـي، ووضعتُ يدي على خدّي وقلت:

- خالتي، هناك أسباب تمنعني من الزوّاج.
- أذكر لي أحدها إذن!

اعتدلتُ في جلستي. حنيتُ رأسي ثمّ رفعته دون النّظر إليها:

- انظري إلى حالتي المرضية، أليسـت سـبباً رئيسـياً، كم مرّةً أكون على أبواب الموت.
- ....
- هل تريدينني أن أتركها أرملة وأعيد نفس ما وقع لوالدتي، لن أسمح بذلك.
- ....

مرّت لحظات وهي في صمت، بعدها قالت:

- أنـتَ لا تعلـمُ الغيـب، عـش لحظتك هـذه، فلديـكَ حياةٌ واحدة تعيشها.

لوهلةٍ فكّرتُ أن ما قالته يبدو منطقيّاً. تنهّدتُ وقلت:

- إذن هل أعرفها؟
- ها أنت ذا تسأل.. يُغريك فضولك!
- ....
- لنقل أنّها قريبةٌ منك جدّاً.

فكّرت قليلاً:

- أتعنين ياسمين؟

ثم رفعتُ إطار نظّارتي وقلت:

- أليست على وشك أن تُخطب؟
- كانت، لكنّها رفضَتْ.
- ....
- أتصدّق! كانت تلك هي المرّة الثّانية التي ترفض فيها أبناء أحد أصدقاء والدها.
- إذن سأجعلها ترفضني كذلك.

اعتدلتْ في جلستها.

- وحيد ابني، دعني أخبرك شيئاً.
- ....
- أعرف ابنتي أكثر من أيّ شخص، وبصفتي والدتها أريد أن أضمن لها سعادتها.

قاطعتها بنبرة كانت مُنزعجة:

- وتعتقدين أنّي سأجعلها سعيدة؟.. من أين أتيت بكلّ هذا؟

وضعت يدها على كتفي وقالت:

- إهدأ! أعلم بما تشعر، ثق بي أنا أيضاً لا أريد هذا، وأفهم رغبتك.. لكن كلُّ شيءٍ خارج عن سيطرتي، إنّها رغبتها هي.

أدرتُ وجهي إلى عينيها، فأومأت وهي تبتسم.

- ولكَ الاختيار، إذا شئت تحدّث معها، وحاول أن تقنعها.

ازدردت ريقها وأكملت:

- وإذا كنتُ أريد أن أعمل معروفاً لأختي رحمها الله، فهو أن أزوّج ابنتي لابنها.. وحيد لا تحرمني بركات أختي!

ولا أعتقد أنّك أيضاً تُريد من رجلٍ آخر أن يتزوّجها، أليس كذلك؟

حيّرتني أجوبتها وأسئلتها المترادفة، والتي ضغطت عليّ. لم أجد ملجأً للهرب هذه المرّة، فقد فكّرتُ كثيراً فيما سأقول، ولكنّي لم أجد مهرباً من ذلك.

قلت:

- سأفكّر في الأمر.

ربّتت على كتفي وقالت:

- خذ راحتك، وصدّقني مرّةً أخرى، أعرف طبعك، يُشبه والدتك كثيراً، وأعرفك منذ كنت صغيراً، فقط خذ بيد ابنتي واعتنِ بها.
- لا يُمكن أن أعدك بشيء، قلتُ سأفكّر في الأمر ليس إلّا..

نهضَتْ من الكرسي، وهي على أهبة النزول، سبقتني نحو الباب، وقبل أن تختفي، التفتت لي وقالت:

- أنت ترى ما يناسبك، ولكن تذكّر.. هناك ياسمين واحدة في هذا العالم، وأنت تعرف هذا أكثر منّي.
- سأرى ما سأفعل.

نزلت هي. أطلتُ جلوسي لبضع دقائق، ثمّ تبعتُ خطواتها إلى الشّقة.

* * *

تصرّفتُ بشكلٍ طبيعي إلى أن غادروا بعد صلاة العصر. تعاملتُ مع ما حدث كأنّه لا كلام قيل بيني وبين خالتي، ولم أُبدِ أيَّ شكٍّ لياسمين، فمع مرور الوقت أصبحتُ بارعاً في إخفاء

الأمور، وكلّ ما كان عليّ فعله والذي تعوّدتُ عليه، هو أن لا أضع أيّ اهتمام لما يحدث.

لا زلتُ أذكر كلام خالتي، التي نزلت هي الأخيرة من شقّتي بعد أن نزل الكل، تركتْ لي كلماتٍ انحشرت بذاكرتي ولم تُفارق مُعاودة انبثاق نبرة صوتها في ذهني. قالت لي: «لا تبكِ المرأة أمام أيِّ رجل كان، تذكّر هذا». لا أدري إن كان كلامها تشجيعياً، أم أنّها فقط كانت تريد إثبات حجّة ياسمين نحوي. لكنّي صدّقتُ كلامها وراودتُ نفسي في أنّي يجب أن أقوم بخطوة، وقد تركتُ ذلك إلى أجل غير مسمّى، أو إلى أن تأتي لحظة مناسبة أتحدّث فيها مع ياسمين، فالآن لا أعتقد أنّي قادر على ذلك، فدائماً الأحداث الجديدة تكون كأحجيات تتطلّب منّي وقتاً كي أعي تراكيبها، وكي أستخلص النتّائج التي تُفضي بي إلى حلٍّ يقيني النّدم على الإقدام عليها، كما لأرضي نفسي ولا أمنيّها، فالرجوع في القرارات ليس من شيمي، وأتقبّل كلّ ما يعود من نتائج بعد إقدامي على أمر ما.

اعتدتُ المكان على مضض، إلى أن جاء اللّيل واختفت تلك الأصوات المسافرة عبر الزمن لأولئك الذين ذهبوا. عاد الصّمتُ يحوي مضجعي بخوائه الموحش، ولم تُسمع به غير أنفاسي، ولم يتجوّل بهوائه سوى ثنائي أكسيد الكربون الذي أنفثه. واستقّرت في أعماقي علقة حزن، والتي أظنُّها الاشتياق لذلك الجو العائلي، فلا أذكر أنّ أحداً أعدّ لي الطّعام ببيتي، ولا أذكر أن بيتي قد طوّقت إحدى موائده بأشخاص في فترة الغداء..

الوحدة توجعك أكثر بعد العودة إليها، فما أن تعتادها، حتّى يُصبح كلّ فعلٍ يُشركك بعيداً عنها مؤذياً.

III

اتّصلتُ بسعد وأخبرته أنّي سأغادر بعد قليل، فلي موعدٌ مع الطّبيب في العاشـرة، وقد أغلق الخطّ بعد أن تمنّى لي حظّاً طيبّاً وأن تكون الأخبار جيّدة منه.

العاشرة تماماً أدرتُ مقود سيّارتي من مرأب الشّركة. استغرقت عشر دقائق كي أصل قرب العيادة. ركنتُ سيّارتي ثمّ صعدتُ إلى الدّور الأول الذي فيه عيادته. فتحت لي مُساعدته عندما ضغطتُ زرّ الاستقبال.

– أهلاً السّي نادر.

– أهلاً! هل الطّبيب هنا؟

– نعم، تفضّل بالجلوس، سأُعلمه بحضورك.

أخذت مقعداً، وأخذتُ نفساً عميقاً أستعدُّ به للخبر المهم. خرج مريض من الباب الأبيض، حيث يوجد مكتب طبيبي. مرّ من أمامي، وعندما كان يهمّ بالخروج، نظر نحوي وقال: «بالشّفاء»، أجبته: «لك أيضاً».

نزعت المساعدة وزرتها البيضاء، ووظّبت حقيبتها الجلدية الزّرقاء، ثمَّ وضعتها بساعدها. دخلتْ عند الطّبيب تأخذ منه إذن المُغادرة. عندما أغلقتِ الباب قالت لي: «أدخل الآن فهو يُريدك»،

ثمّ غادَرت، لتتركني أنا وهو في ساحة جدرانٍ بيض تحيط بنا من كلّ جانب. تذكّرتُ وقتها لماذا قال لي العاشرة، لأنّ فترته الصباحية يوم الأربعاء تنتهي مع العاشرة.

طرقتُ الباب ثمَّ دخلت. وجدته على وشك نزع وزرته البيضاء هو أيضاً.

صافحني وقال:

- أهلاً، كنتُ أنتظرك، تفضّل بالجلوس.
- شكراً.

علّق وزرته على مشجب صغير قرب خزانةٍ سوداء تحوي رفوفاً موضوعةً عليها كتب مصطفّة. أخذ كوبين بلاستيكيين عن منضدة بجانب الخزانة.

قال:

- قهوة؟

وكنتُ أحتاج قهوةً بالفعل، فأجبته سريعاً، كأنّي كنتُ أنتظر سؤاله أن يُلقى علي:

- من فضلك!

شغّل آلة القهوة الصغيرة، الموضوعة هي الأخرى قرب الأكياس البلاستيكية، وضع الكوبين في موضعهما بالآلة ثمّ جلس على مقعده في مكتبه.

- آسف لوفاة جدّك، لم أستطع المجيء تلك المرّة، أنت تعرف أحوال العمل.
- أتفهم ذلك.
- على كلّ حال، تعازيَّ لك مرّةً ثانية.

نهض يجلب القهوة.

– قطعة سكّر؟

– من فضلك.

جلس في مكانه وفي يده الكوبين، مدَّ لي واحداً ووضع الآخر أمامه. ارتشفتُ رشفتين متتاليتين، كانتا ساخنتين، لكن المهمّ هو أن تستيقظ باقي شرايين دماغي النّائمة.

رشفتُ ثالثةً وقلت:

– إذن، في ماذا أردتَ حديثي؟

وضع كوبه على سطح المكتب، مطّ شفيه واعتدل في جلسته. قال:

– قد لا أريد إخبارك بهذا، ولكن عندي أخبار سيّئة وأخرى جيّدة.

ارتبتُ بعض الشّيء مما قاله. التزمتُ هدوئي وسكوني، فاتحاً أذنيّ ومعدّاً جوارحي للأخبار الجيدة، لأنّ الأخبار السّيئة أعرفها، فهي ما قاله لي من قبل، وسوف يُضيف إليها شيئاً آخر.

– بأيّهما أبدأ، السيّئة أم الجيّدة؟

– ابدأ بما تراه مناسباً!

فكّرتُ ثم أضفت:

– لا في الحقيقة أفضّل الأسوأ، ما دام ما قلته لي سابقاً مثله.

– حسناً! قبل ذلك، أريد أن أعتذر فلم أوضّح لك جيّداً المرّة الماضية، فلم أكن متأكّداً، لكن بعد العملية السّابقة...

صمت ثم أضاف:

– .. فإنّ الأمر أكيد.

- اشرح لي!

تغيّرت ملامحه، رفع إطار نظّارته الطّبيّة بسبّابته، وبدا لي كأنّه أخذ نفساً، بعدها بادر بالحديث:

- كما تشاء! على كلٍّ، لم يعد في إمكاننا تقليص الأورام، المعالجة الكيميائية لم تعد تنفع... لا أريد إخبارك بهذا حقّاً!
- أكمل من فضلك.
- حسناً! المرّة السّابقة، رغم الجراحة، فقد قلّصنا عدداً ضئيلاً من الأورام، كما أنّها تتزايد، وكما رأيت، فجرعة تركيز الدّواء التي كنتُ أعطيتك مرتفعة مقارنة عن سابقاتها، وأعتقد أنّ الأمر لن يطول كثيراً حتّى تتضاعف الأورام..

لم أنبس بحرف، فقد كان ما يقوله صحيحاً، فحالتي بعد العملية الأخيرة لم تكن كما قبل، فقد خرجتُ منها منكسر الصّحة، ومتضرّر الجسم، لاسيما أنّ قلبي كاد أن يتوقّف.

قال:

- لكن لا تخف، يُمكن إنقاذك.

عندما قال لي أنّه يُمكن إنقاذي، طفرت ياسمين فجأةً في ذهني.

قلت:

- هل خبر إنقاذي هو الخبر الجيّد؟
- صحيح.. لكنْ هناك خطر.
- ماذا تعني؟
- دعني أبدأ لك كيف أتاني الخبر، كانت مفاجأةً حقّاً.

رشف من قهوته ثمّ أكمل:

- لـديَّ صديـق فـي ألمانيا، هو كذلـك أخصّائي في أمراض السّـرطان، وكنـتُ أعلـم أنّـه يومـاً ما سـتؤول حالتك إلى ما عليها الآن، وكنت قبل سـتّة أشـهر قد أعطيته عيّنةً من دمك، وصدّق ماذا!؟، تطابق دمك مع أحد المرضى الذي توفـي فـي المستشـفى الذي يعمل فيه، وقـد وافقت عائلة المتوفَّى على التّبرّع بأعضائه، حيث اسـتفاد شـخصان كانا فـي حالـة حرجـة، زُرع لأحدهما كليـة، والآخر زُرعت له قرنيـة عيـن.. إذن ماذا تـرى؟ فالعرض ما زال قائماً ليُزرع لك جزءاً من كبده.

جرعـتُ كـوب القهـوة بأكمله، واكتنفت مرارتهـا المعتادة في فمي، رغم سوء تحضيرها. وتلقائياً أجوبتي كلّها جُمعت في جوابٍ واحد ممّا سمعتُ منه.

قلت:

- سيّدي...

توقّفتُ عن الكلام للحظة، رفعتُ كفّي أمسح شعري، نظرتُ إلى عينيه مباشرةً.

- .. سيّدي.. أنا أرفض!

بدا مصعوقاً من كلامي، فقال:

- ماذا؟!... لم أفهم!

قلتُ بنبرة غضب مكتوم:

- قلت لك إنّي أرفض!

كانت هناك أسباب عديدة جعلتني أرفض، أوّلها ذلك الخطر

الكبير الذي أوحى إليه، وثانيها لستُ مستعداًّ لتقليص ما تبقّى لي في المراهنة والأمل على نجاح عملية زرع كبد، وثالثها وهو الأهم، أنّه لا يمكنني قبول أيّ عضوٍ لا ينتمي إليّ ولو على سبيل العلاج، والأخير هو أنّي أريد أن أكون صاحياً عندما تأتيني نوبات الموت، فلا أريد الموت وأنا تحت تأثير مخدّر، فهناك عظمةٌ في اللّحظات الأخيـرة. ولـن يوجـد قرارٌ سـيجعلني أعدلُ عن رفضـي وأن أقبل بما يقوله الطّبيب الذي زفَّ أخباراً جيّدةً مغلّفةً بأخبار سـيّئة. خبر تدهور حالتي الذي زاد والذي سـيزيد في المسـتقبل.. كان أرحم بكثيرٍ مما قاله لي بعده.

قال:

- هل من سبب لرفضك؟
- لا أريد أن أنهي حياتي بمستشفى، أترك حياتي تنتهي كما قُدِّر لها.
- ولكـنْ هنـاك فرصـةٌ للشّـفاء، كمـا أنّ الأطبـاء فـي ألمانيا متمرّسون للغاية واحترافيون.
- حاول أن تفهم، لن أراهن على عملية زرع.
- تحلَّ بالأمل يا ابني!

عندما تحدّث عن الأمل، جاءتني رغبة في أن أغادر، وعملتُ علـى أنهـي الحديث سـريعاً لأعود إلى مـا تبقّى لي من وقت ومن ضعـف، فهـذا الطّبيـب الأحمـق بترّهاته اغتصب منّـي وقتاً للعمل وأخذ مني لحظات لا تعوّض.

قلت:

- سـيّدي، أقـدّر مـا تحاول أن تقنعني بـه، لكن أترك الأمور

كما هي.

- اعذرني على تطفّلي، يبدو أنّك تعي جيّداً ما يحدث، المهم سأفعل ما بوسعي، وتذكّر، في حال غيّرت رأيك، فأنا مستعد.

وقفتُ حينها، مددتُ يدي لأصافحه على تفهّمه.

- شكراً على تفهمك، وكما قلتْ، فأنا أعي جيّدا ما يحدث، ولا أظنّ أنّي سأغيّر رأيي، وكما تعلم الأرواح بيد الله.
- المهم أنا في صفّك، وكل شيءٍ على رغبتك.

نزعتُ يدي من يده. قلت له مودّعاً:

- شكراً على كلّ شيء.

خرجتُ من العيادة، وفي داخلي كانت تتشكّل غدد مستقبلية للصّبر، توارثت كي تعدّني لما سألاقيه في الآتي القريب أو البعيد المجهول، فقد أصبح الأمر مؤكّداً.

كنتُ مرتاباً من نفسي للحديث الذي خضته مع الطّبيب، وكنتُ أحتاج فترة نقاهةٍ صغيرة أُدرجُ فيها الكلام الذي قيل لي إلى خانةٍ تليق بها.

لم أعد إلى العمل، وصوتي كان شبه مكبوح، فلم أُهاتف سعداً، ولا أرسلتُ له رسالةً نصيّةً تخبره بأنّي لن أقدُم.

اختلطت عليَّ الأمور بين الأمس واليوم: خالتي وفخرها الذي تريد توريثه، والطبيب الذي زاد تأكيده على أن احتضاري سيأتي عاجلاً أم آجلاً.

لكنْ هل أنا مستعدٌّ كفايةً كما قيل لي ذات حلم؟

خُيّل لي أنّي سرعان ما خرجتُ من العيادة عائداً إلى شقّتي،

أنّي بدأتُ أشعر بقوّة المرض وتكدّسه بكبدي. أدري أنّه كان تخيّلا لا غير، إلّا أنّ التفكير في أمر المعاناة المستقبلية زاد من هلعي. في الحقيقة كلّ الأمور التي حدثت لا بأس بها، أمّا هذا التّرقّب الذي يحيط بي من كلّ جانب، هو الذي لا يمكنني تجاهله، فإنّه يقتلني قتلاً بطيئاً، وددتُ لو تأتي لحظات الاحتضار الآن، فأنا أكره الأشياء التي تأتي فجأة، دون أن أدري ما نوع الخطط التي سيتحتّم عليَّ بها مجابهتها.

أكره أفعال التّمنّي هذه.

إذاً! بماذا سيُقدّر ثمن حياتي؟ وإلى متى سيظل هذا الجسد يواصل النّزوح؟ وكم من الوقت تبقّى لي كي تنفد ذخائري؟

لو كنتُ إنساناً عادياً بطبيعة بشرية عاديّة، سأرقى في كلّ لحظةٍ تبقّت إلى ذروة السّعادة، أفعل ما لم أفعل، آكل ما لم آكله، أشرب ما لم أشربه، أقوم بأفعال حمقاء لم أقم بها من قبل، أحبُّ كما لم أحب، أبتهج كما لم أبتهج.. وبعد، سأفنى كباقي المخلوقات؛ مثل هذا المسلسل السّحيق لا أريد عيش مثله!. أريد لموتي أن يُرسّخ في ذاكرة الهواء والحجارة والجماد، كجندي لفظ نفسه الأخير بعد أن تهشّمت آخر عظمة في جسده دفاعاً عن ما يؤمن به، نُصرةً لإرادةٍ جماعية وهي الوطن.

أن أُنهي حياتي كساذج، شيءٌ سيظلمني وسيُكبّدني النّدم قبل آخر غمضة عين. لا أعرف كيف أفسّر حالتي هذه، ولكنَّ تعليلي لا يُمكن أن يكون إلّا كبرياء السّقم وفخري بضعفي.

لكنّي مبتهجٌ حقّاً، فقد ثُرتُ بالكتابة، فالكتابة تمرّدٌ بحدّ ذاته، أنا راضٍ عن كلّ النتائج، فهي آخر فعل خلاصٍ أمكنني أن أبيّن به

عن الترسـيخ الذي كنتُ أريده، فكلٌّ ذرّة هواء ستشـهد عنّي، وكلّ قطـرة مطـر هـي كذلـك، وكلّ جماد أحاطني بغرفتي سيشـهد على كوني كنتُ كما أريد.. هذا يرضيني بحق.

IV

فكّرت كثيراً قبل أن أقدم على الحديث إلى ياسمين، بشأن ما تحدّثتُ فيه أنا وخالتي، قلتُ إني سأفكّر في الأمر، ولكنّي وجدتُني عاجزاً عمّا سيمكنني الإقدام عليه.

أريـد أن أقنعهـا بأنّـي خليّـة تجلب الأسـى فقـط، وأنّني قنبلة مؤقّتة، أريدها أن تتجنّب الإصابة بإنفلونزاي، لن أسامح نفسي إذا ما سبّبتُ لها ضرراً. وما يفتك بي، هو أنّ كِلا المنحنيين سيُعذّبني، سواء أقنعتها أم لا، سأُشتّت بالتّأكيد.

لا بدّ لي من حل لكلّ هذا.

لـو كانـت امـرأةً غيرها لما حدث لي كلُّ هـذا التّردد، لكن.. إنّها ياسمين، هي كلُّ ما تبقّى لي في طاعة الحياة، بقدر ما أريدها، لا أريد ندب حياتها بقراراتي.

ها أنذا! أريد أن أحب.. فلا أقدر!

قرّرت أخيراً بعد طول تفكير، وبعد طول صراع، أنّي يجب أن أحادثها وأن أتحمّل مسؤولية ما سيأتي بعد ذلك، فهي ياسمين قبل كلّ شـيء، فهي تلك المرأة التي لا يُمكنني أن أعي في ما تفكّر، التـي لا أقـدر علـى عصيـان ثقتها كما يقع لي مع باقي النّاس، هي المرأة التي اختزلت روح والدتي وعاطفتها.

ارتأيـتُ أن أضـع موعداً، عشـاءً في الخـارج، فلعلّ ما يُحدثه الليل من نسيمٍ يكون أرحم من ما يُنشده تأوّه الصّباح وملل الزوال. سأزعم في أربعائي هذا الذي بدأ بأخبار، أن أُنهيه في مناقشتي مع ياسـمين، فما دام هذا اليوم يوماً تلقّيتُ فيه ما صدمني، فلا أمانع أن أرهـق معهـا أيضـاً، لعـلّ كلّ ذلـك يخلصني في يـومٍ واحد من منتظراتي.

اتّصلتُ بياسمين، ووافقت على فكرتي، اتّفقتُ معها على أنّي سـآتي إلـى حيـث الصّيدليـة التـي تعمل فيها كي أقلّها في السّـابعة والنّصف.

لم يعد يفصلني عن الموعد سـوى سـاعتين. لم يُراودني أيُّ شعورٍ لعاشق ينتظر ساعة رؤية حبيبته، ذلك الانتظار المرير والتّوتّر المُجهِد في ما سيقول، وعمّا سيبدأ حديثه. وذلك الإفتقار للثّقة ما قبل أن يُحادثها، لم يحدث لي هو الآخر، صحيحٌ أنّي متوتّرٌ قليلاً، لكن لا أُلقي بالاً كما هي العادة، ما سوف يحدث فإنّه سيحدث. ولعبة تخيُّل اللّقاء لسـتُ بارعاً في أدائها أيضاً، لأنّه ينقصني جزءٌ مـن الإهتمـام، ليس سـيّئاً ما فعلته بـي العزلة، أغدو أقوى في مثل هذه المواقف، لأنّي أكون طبيعياً في تصرّفي. وغير ذلك وما يسبق كلّ شيء، هو أنّي لا أتوقّع النتيجة، ألعب بِلاحظّي كما ألعب دوماً: لا أنوي الرّبح، ولا أنوي الخسارة أيضاً.

* * *

جـاءت سـاعة الموعد، ركنتُ سـيّارتي أمـام الصّيدلية. رأتني زميلتها أدخل في واجهة الاستقبال.

قالت:

- كيف حال صحّتك؟

ما بالهم لا يجدون ما يقولون لي غير السؤال عن صحّتي!

قلت:

- ولله الحمد.

كانت ياسمين وراء رفٍّ كبير عليه الأدوية. عندما سمعت صوتي، خرجت من وراء الرّف الخشبي، وتوجّهت نحو المنضدة الخشبية للاستقبال. قالت:

- جئتَ مبكّراً!

قالت لها صديقتها:

- يُمكنكِ أن تغادري إذا شئت، سأتكفّل بالباقي.
- حسناً شكراً.

استأذَنتْ زميلتها.

قلت:

- سأنتظرك في السيّارة.

رأيتها من نافذة السيّارة، تُزيل وزرتها البيضاء. لبست معطفها، ثمَّ خرجت لملاقاتي.

قبل أن أنطلق قالت لي:

- إذن فيمَ تريد حديثي؟

قلتُ لها بنبرة ساخرة:

- طلبتُ الحديث معك لا استجوابك، ولا أريد الحديث في السيّارة.
- أعتذر، ولكن عليك أن تنتظر قليلاً بعد، يجب أن أغيّر ثيابي أوّلاً.

ثمّ أردفتْ تردُّ لي سخريتي:

- ولا أعتقد أنّك تحبُّ رائحة الأدوية.

انطلقتُ قائلاً:

- كما شاء الياسمين.

انتظرتُ لمدّةٍ وصلت العشرين دقيقة، حتّى تسنّى لها أن تغيّر ثيابها. جاءت تلبس فستاناً بنيّاً فاتحاً، بدت في أبهتها، بل أحببتُ تصفيفة غطاء رأسها الأسود وحزام خصرها الذّهبي، بدا لي وجهها مغايراً قليلاً، لا أعتقد أنّها وضعت مساحيق تجميل على وجهها، أو ربّما وضعت القليل، أو ربّما هو فقط كحل عينيها الذي يتناسب مع بشرة وجهها السّمراء قليلاً، تبدو كغجرية أو امرأة من بلاد الأرمن.

سأكذب إن قلتُ إنّي لم أرغب في ياسمين أكثر!

صعدتْ سيّارتي. ليس الأمر أنّي كنتُ تحت تأثير ما أحدثته بي الفتنة، إلّا أنّ قلبي قد نبض.

حدّقتُ إلى عينيها للحظات، ثمّ أشحتُ نظري بابتسامة، فقالت حينها:

- ماذا؟

- لا شيء...

- أعرف ابتسامتك تلك، تبدو ساخرةً بعض الشّيء.

- تبدين أجمل من العادة!

- باسم الله عليك... باسم الله عليك!!

- إنّها الحقيقة!

- Go Go! Salade man..!

لـم أجـد مكانـاً أفضل من شـاطئ «عين الذيـاب»، كي أُفصح عمّـا يـدور في خلدي، لعلَّ رطوبة المكان وصوت تلاطم الأمواج يكونـان حلفـاء لـي بتأثيرهما علـيّ. وطوال الطّريق، لـم أفكّر فيما سيُمكنني به أن أبدأ غايتي.

ركنـتُ السـيّارة فـي تلـك الطّريـق الطّويلة المليئة بالسّـيارات المركونـة طـولاً. دخلتْ من نافذتي ملوحة البحر فأنعشـتني، وكان البحـر ينبئنـي بـأنّ كلَّ شـيءٍ سـيجري على ما يُـرام، فمزاجي كان جيّـداً، وشـعرت أن بـي قدرةً ما سـتخوّلني مواجهـة أيَّ عائق وأيّ زخم من الكدر. أوصدتُ السـيارة، ومشـيتُ أنا وهي جنباً لجنب على الرّصيف المقابل، حيث توجد بعض الكشكات الصّغيرة، التي تبيع رقائق البطاطس، والمثلّجات، ومشروب قصب السّكر. عندما شعرتُ ببرودة الجوِّ تختلجني، أدخلتُ يديّ في جيبي معطفي. لم أعـرف مـن أيـن أتت يدها تطوّق ذراعـي، أحرجتني، لكنّي رضيتُ ببهجتهـا، وأفهـم ذلـك جيّداً لماذا قامت بذلـك، كانت غيرةً فقط، فالأكثرية هنا يفعلون هكذا، ربّما أحسّت بالحرج من النساء اللواتي مررن بجانبنا واللاتي يُمسـكن بأيدي رجالهن. وفي الحقيقة كنتُ أنا أيضاً مريداً لذلك، فقد رأيتُ بعض الشّباب مررن بجانبي رمقنها بنظرات، لذا أردتُ ملكيتها لي وحدي اليوم، وهذا هو كبرياء رجلٍ خائف أن يفقد ما يُريد امتلاكه إرادةً لا رغبة.

قالت لي:

– إلى أين الآن؟

– أتركي الأمر لي، وِجهتنا مطعمٌ بحري.

– لكن ما يزال هناك وقت!

- لهذا نحن نتمشّى، من قال أنّنا سنذهب الآن، المطعم هو المحطّة الأخيرة.
- إلى أين سنذهب الآن؟
- إلى حيث ذهبت قدماي، ضعي الثّقة فيهما، يُحسنان اختيار السّبل.
- جنونك المعتاد دائماً!!
- المجنونـون عقـلاء، ثقي بي، إنّهم كذلك، غير أنّهم لديهم طريقتهم الخاصّة في ممارسة التّعقل.
- لا ينتهـي جنونـك هـذا! ماذا تسـمي هـذه الحالة في قلب المعاني؟
- تعنين فوبيا التّناقض.
- مصطلحات غبية كصاحبها!
- أتتملّقينني أم ماذا؟
- وإذا كنت، فماذا ستفعل؟
- آخ منّك أيّتها البدوية!
- Keep walking salade man, keep walking!
- لستُ «رجل السّلطة» كما تعلمين!
- بلى! نعطي الأسماء غالباً للعادةِ التي تلتصق بالشّخص.
- استسلمتْ! هل ترضين بهذا؟
- كفاك استسلاماً وقاوم، ردّ لي التّسمية بأخرى!
- حسناً! أحبّ أن أناديكِ بـ«سيّدة الياسمين» أيعجبكِ هذا؟
- أنتَ عربيٌّ أصيلٌ فعلاً، تُلقي عناوين لما يحيطك دون أن تشعر.

- لا أفتخر بذلك.
- ولماذا هذا الانتقاص؟
- لا أدري، تلك القدرة في الشخص العربي تجعله يتلوّى من ألمه بأشكال عديدة.

لم ترد التّعمق كثيراً فيما قلت، قالت:

- ربّما، لكن لا يهمّني ذلك، أحببتُ الاسم..

ظللنا نتحدّث طوال الطّريق، كلّ ما قيل كان معاكسات وممازحات بيننا كما يحدث دائما، وحاولتُ أن أكون ألطف من العادة مُعدّاً نفسي للإجابة عن أيّ سؤال.

نظرتُ إلى ساعة يدي بعد أن كنّا نجلس على الرمل قرب الشّاطئ.

قلتُ لها:

- حان الوقت، أنذهب؟
- كما تريد.

خطونا مسافةً قصيرة، شممتُ من مكاني الرّائحة المنبعثة من المطعم، وكنتُ جائعاً للمسافة التي قطعناها ولحديثي وضحكي أيضاً. دخلنا المطعم المزيّن بالخشب، ألقينا التحيّة على صاحب المطعم، رحّب بنا. جلسنا إلى مائدة لشخصين، وتركتُ لياسمين الاختيار من قائمة الطّلبات، اخترتُ أن أتبع ذوقها الذي لا يُخطئ في إشباع جوعي. تركَتْنِي ياسمين جالساً بعد أن ذهبتْ إلى دورة المياه، ثمّ بعدها حدّثتْ المسؤول عن الطّبخ بأن لا يُضيف أيّ بهارات، لصحّتي كما أخبرتها، تفادياً لما قد يحدث لمعدتي.

بعدها عادت تجلس قبالتي.

شربَتْ نصف كأس ماء موضوع على المائدة الخشبية. قالت:

- لك سبب لدعوتي هكذا فجأة، أليس كذلك؟
- ربّما.

بدت هلعةً قليلاً. قالت:

- هل هي صحّتك، قل لي؟
- صحّتي شيءٌ آخر، المهم هو..

ارتشفتُ جرعة ماء، وغيّرتُ من ملامحي قليلاً.

- ياسمين، أريد جواباً فقط، لماذا لا تريدين شيئاً دائماً؟

عدّلت غطاء رأسها بشيء من العصبية، كأنّها فهمتْ ما أرمي إليه:

- لم أفهم ما تعنيه؟
- قلتُ لماذا تتّبعين هَدْيَ الرّفض الذي أعيش عليه.

قالت وهي تبتسم:

- أنت تعلم! بالطّبع أنت تعلم، فقط لا يمكنني وحيد، لا أقدر.
- لا أريد أن أحرجك بأسئلة، ولكن لماذا رفضتِ تلك العروض، وتمسّكتِ بحبلي الذي يقترب من الانقطاع؟

زادت عصبيتها درجة:

- تسألني لماذا؟ أعتقد أنّك تعلم مسبقاً.

شعرتُ ببعض المرارة تستسيغني، وببعض الألم ينبعث من ياسمين.

اللّعنة عليك يا عاطفة الحب!

أشاحت وجهها عني، وإن لم أخطئ فقد لاحت ذرفات دموعٍ

شبه مرئية على عينيها.

قلتُ مطاطئ الرّأس:

– هذا يقتلني أيضاً، أكره هذا أيضاً! ولكن...

رفعتُ صوتي قليلاً:

– ياسمين انظري إلي!

أرجعت بصرها نحوي.

ضربتُ صدري بقبضتي اليُمنى ضربةً خفيفة. وقلت:

– أتريدين أن تتزوجي رجلاً ميّتاً؟ هه! أتقبلين بهذا؟

– أقبل وحيد أقبل.

أزعجتني إصراراتها الدّائمة، وخارت قواي أنا من عصيانها الذي يتزايد، والذي يتمسّك بأملٍ في التّألّم فقط.

ألقيتُ بوزني على الكرسي. قلتُ بصوتٍ متعبٍ قريبٍ من البكاء:

– طوال هذه السّنين التي عشتها، يمكن أن أقول لكِ أنّ طعم الألم ليس مستحبّاً، لكنّي تكيّفتُ بطريقةٍ ما، لا أريد ألماً آخر أكبّدكِ إيّاه، يُمكنني أن أصبر إن رأيتك سعيدة فقط مع شخص غيري.. سأُنسى مع الوقت.

– ....

– أعلم في ما تفكرين، صدّقيني، إنّها رغبة لحظتك هذه، أمّا بعد ستندمين، وسأُعذّب أنا هناك، لا أريد أن أحترق بدموعك في الحياة الأخرى.

بدأتُ أقلق عندما لم ترد، وبدأتُ أنهار مقدماً أمامها. للحظة لم أجد الكلمات الملائمة كي أفسر ما يجب تفسيره، وجدتُ

نفسي عاجزاً، وكان أمراً طبيعياً، فقد كانت النتيجة بطريقةٍ أو بأخرى ستأتي هكذا، مهما كانت نهايتها ستؤلمني زيادةً.

اهتدى رُشدي لاسمها فقط:

- ياسمين..

ما أن قلتُ اسمها، حملت حقيبتها ومفاتيح سيّارتي، ثم انسحبت خارجةً من المطعم. لحسن الحظّ كان المطعم خالياً، رغم بعض الزّبناء في المقدّمة، إلّا أنّهم كانوا بعيدين. لم أحاول أن أتبعها، كي لا أثير قلق أحد. قمتُ بخطوتي إلى صاحب المطعم أعتذر له، على أن يُلغي طلبنا، لحدوث أمر مهم، وتقبّل عذري عن حسن خاطر. نقدته ثمن ما طلبنا، ثمّ خرجتُ أمشّط الاتّجاه الذي جئنا منه. سارعتُ في خطاي إليها، ولم أُرد أن أصرخ باسمها كي تنتظرني، لأنّها لن تنتظر.

فتحتُ باب السيّارة، جلستُ في مقعدي.

قلتُ لها:

- أين تريدين الذّهاب؟

لم تُجبني وتركتني حائراً. أردتُ المُضي، لكنّ كلماتٍ علقت بصدري كان يجب أن تخرج، وأخرجتها بصعوبة.

- أنتِ لا تعرفين كم تبقّى لي، لم يتبقّ لي الكثير ياسمين، أصبحت لحظاتي معدودة.
- أريد تلك المدّة معك، لا أكترث إن كانت أسبوعاً، شهراً واحداً، سنة سنتان، لا أبالي وحيد لا أبالي، فتركك يعني موتي أيضاً، أنت لا تعرف ماذا يُمكن أن يحدث لامرأةٍ أعدّت نفسها لأشياء كهذه، يؤلمني.. يؤلمني رؤيتك تعاني

وحدك دون أن أفعل شيء.

- أنت لا تعين ما تقولين.

لـم تُعـر لـي اهتماماً وخرجت، تبعتُها، أمسـكتها من معصمها وهي ما فتئت تُقاوم، استخدمتُ قوّتي لأولّيها إلى صدري، وخارت قواها علي واستسلمت.

- أريد أن أرتاح ياسمين، أريد أن أرتاح في سلام، أريد ميتة هنيئة.

كان كلامها متلعثماً وهي تقول:

- أعلم.. أعلم.. ويؤلمني هذا أكثر..

وضعتُ يدي أمسح على رأسها.

- عزيزتـي اتركينـي لأرتاح، فأنـا مجرّد عابر، اجعلي عبوري جميلاً، هذا ما أطلبه منك.

هدأت قليلاً ومضيت معها إلى السيارة. أعدتُ سؤالي:

- أين نذهب؟

جفّفت دمعها وقالت:

- هل نعود إلى المطعم؟
- لكن بشرط.
- ما هو؟
- حدّثيني عن نفسك أكثر.
- طلبٌ غريب، لكنّك بدورك ستفعل.
- لا مشكل، لكن ليس الآن، لأنّك ستقرأينني بعد أن أورّثك إيّاه..
- أتعني..

– أجل، ستجدينني مكتوباً كاملاً هناك حتّى لو غادرت.

بدا على وجهها مسحة حزنٍ أخرى، لكنّي أبهجتها.

– لحـدّ السّـاعة، أنـا ما زلتُ هنا، فحاولـي إعادة عجني من جديد، لكنّي أعدك أنّي سأبقى أنا أنا كما عرفتني يوماً.

– سأحاول.

V

كانت أمسيةً وددتُ لو أنّها لم تنتهِ.

عدتُ عودتي اللامشرّفة، ولم يعد في مقدوري وضع اسمٍ لي بعد حسرة اللاعودة إليها، فطعم الفرح الذي ذقته معها قد تحوّل إلى ألم. لا أدري كيف يمكن أن أنعت نفسي اليوم، غبيّاً، ساذجاً، مشرّداً، عاجزاً، محبطاً، ولن تكفي كلّ مرادفات اللاانتصار والنّقص في وصفي، فعندما حدّثتني عن نفسها، زادتني غرقاً بالاشتياق إليها.

أكانت ربحاً تلك المسرحية السّوداء التي قمتُ بها مع ياسمين؟ بالطّبع كانت كذلك، إلّا أنَّ فوزاً بطعم الخسارة يُشبه المياه الضّحلة. وبدون أن أحزر ما قد تهدّم داخلي، فقد كان فؤادي لفظ آخر نبضة هناك لديها، استنزف كلّ رصيد نبضه وعبّأه هناك. أدرك أني لستُ قابلاً على ما آل إليه الأمر، إلّا أنّ رغبة المقاومة لذلك عندما عدت إلى شقّتي، كانت قد تكسّرت لدي، فضمرت من تلقاء نفسها في آخر نغصةٍ سرت من حلقي إلى أين يسكن الوجع. وبعد كلّ ذلك، لا أعتقد أنّه سيُمكنني الصّمود أمام التّشعُّبِ القادم للمرض، فقد تولّد يأس في داخلي في صفة أمل، والذي ينبّئني بأنّ القادم سيكون عاجلاً، وأن ما سيأتي سيكون سقطتي الأخيرة.

ذلك التّحطّم الأنثوي لياسمين بعد أن ودّعتها أمام باب

منـزل خالتـي، قد أنّبني كثيراً. وواجب غيابي أصبح الآن ضرورياً، وحاجتي الآن لكي أختلي بنفسي وصلت ذروة العزلة، فمنذ ليلتي هذه، يجب أن أضع مسافةً بيني وبين العالم الذي سيتغيّر في نظري أكثر، لأنّي لن أصبر في العجز الأخير، لهذا فأنا أحتاج عزلةً ثابتة، لا تتغيّر إلّا بفعل شروطٍ سأخلقها، كي أعيش مع ما سيأتي بحذر، ولكي أضع أيضاً حظراً لي من التّمنّي في حين لحظة ضعف..

ثمّ سيكون ضرورياً أن أقدّم استقالتي غداً من الشّركة، ففصلي الأخير سيبدأ قريباً، وواجبي أن أعيشه حتّى آخر دقيقة وثانية، وحتّى آخر لطخة حبر..

الفَصْل السَّادس

I

قبل أسبوعين قدّمت استقالتي، وفور تقديمها، وقبل أن أغادر مكتبي، جاء سعد مسرعاً نحوي وهو يلهث، فقال لي: «لماذا؟». قلت له: «صديقي، لم يتبّق شيء أعمل عليه، حان وقت المضي». قال: «وماذا ستفعل، هل ستبحث عن عمل آخر؟ سأوصي بك حيث تريد!». قلت: «لن تفهمني يا صديق! لم يعد في إمكان هذا الجسد العمل بعد اليوم.». قال: «ماذا تقول أنت؟». قلت: «تعبت! لم أعد أستطيع المواصلة». راح لحظتها ينظر لي يتفحّص خلقتي إلى أن أدرك الأمر، فقال: «لا تقل لي أنّ أخبار البارحة كانت..». قلت: «من يدري». قلت كلامي، ثمّ غادرت دون أن أترك نصف نظرة نحوه، فقد انهار سعد ورائي، ولم يستطع مقاومة ما حكته عيناه..

بدأ الكل يبكيني.

غادرتُ بعدها كشبح متسلّلاً من الباب الخلفي، حيث ركنت سيّارتي، فلم أرد أن أخلق نصف حوار بيني وبين الحارس، وكنت أدري أنّ سعد لن يحاول اقتفاء أثري، فبين الرّجال معاهدة على عكس النّساء، لحظات الحزن عندنا لا تحتاج أنيساً، ولا تحتاج كلمات عزاء ووداع، حتّى العتاب على الغياب لا يعني شيئاً، قد نغيب سنين، وبعد اللّقاء تمرّ الأمور كما كانت من قبل..

بعـد تقديم الاسـتقالة، انتابني شـعور الحـداد المغتصب، فقد حُرمـت مـن الفعـل الـذي كنـتُ آخذ به فسـحة من الرّاحـة مقابل عنفوان تأريخ نفسي على ورق.

بقيـتُ علـى حـدادي مـن ذلك ليوميـن، بدون رشـى الكتابة، وبـدون ردٍّ علـى الاتصـالات الهاتفية، وبكثير مـن التّجاهل لما أنا مقبل عليه. إلّا أنّ ذاكرة الياسمين تتبعني حيث مضيت، تقلق لعدم الحديـث، تعاتبنـي لعـدم الرّد، تجترح عزلتي كما لا أريد، تقاومني عندما أُسهب في نفي نفسي.

فـي اليـوم الثّالث، أتت ياسـمين كي تختـرق عالمي، جرحت عزلتي ليلاً برنّات على باب شـقّتي، لم أرد أن أفتح كي تظنّ أنّي لستُ موجوداً، لكنّها كانت بارعةً في قراءتي، تدري أني لست من هواة التّسكّع، وأنّ ليلي هو منزلي، وأنّ المكان الوحيد الذي ألجأ إليه هو شقّتي. نصف ساعة وهي تتّصل بهاتفي، وتضغط على رنّان الباب وتدقّ، وتنادي باسمي لعلّي أفتح. فتحتُ في النّهاية مستقبلاً كلام العتب منها: «فقدت كلّ شـيء، لا تفقد نفسـك أيضاً!» بقيتُ صامتـاً. قالـت: «لـن تتخلّـص منّي هكذا.». قلـت: «أنا لا أحاول.. حتى الآن». قالت: «لن أدعك تعيش هكذا.. أقسم لك.. لن أدعك تفعـل بنفسـك هكـذا! اكرهني إذا شـئت.. لكن لـن أتوقّف، وأنت تعلم هذا جيّداً». قلتُ عائداً أدراجي إلى الأريكة: «دعي العناد إلى وقتٍ آخر.». أقفلَتِ الباب. قالت: «أنا لا أفهمك فقط لا أفهمك! لم يتبقّ شيءٌ تأسى عليه، فلمّ كلّ هذا؟ لماذا أنتم الرّجال هكذا؟ جـدّي كذلـك.. والدي كذلـك.. وأنت مثلهم أيضـاً، أتحبّون الغمّ إلـى هـذه الدّرجة..؟» قلت سـاخراً: «لِـمَ لا تقولين أنّنا نكرهه» ثم

أضفت بعد صمت: «لاسيما رجال ما قبل الموت!». قالت بنبرة باردة: «أنت تريد ذلك حقّاً..» قلت: «سأحاول أن أريد ذلك.». قالت: «قلتَ لي أن أحاول تغييرك، إذن سأفعل، ثق بي..!». قلت: «كيف؟». قالت: «ستعرف كيف، فلن تتخلّص منّي بسهولة». قلت حينها أداعب الجو: «تبدين أجمل عند الغضب، أريد أن أرى ماذا يمكنك أن تفعلي».

وتوالت الأيّام، وبدأت أشعر أنّي أقترب وأقترب من شفرة الموت، ليس اقتراباً مجازياً، بل اقتراباً أقلّ ما يمكن أن يُقال عنه إنه جزئي. وقد حاولت أن أترهّب قدر المستطاع، لكنّي كنت أفشل أمام ياسمين، فقد اجترحت عزلتي، لدرجة أنّها غلبتني حتّى عزفت عن الكتابة إلّا أحياناً، بل أخذَتْ شهر عطلتها لتبذّره في مراقبتي.

يا إلهي كم تغيّر المرأة من أقدار الرّجل وعاداته وأحزانه!

راحت تلتصق بي إلى أقصى حد، لم تتركني آكل وحدي، ولا أن أتنزّه وحدي، ولا أن أتأمّل نفسي وحدي. والعائلة هم أيضاً أصبح اهتمامهم بي أكثر، وفي اليوم الواحد كنتُ أجد ما يفوق الخمس اتّصالات تلج هاتفي منهم.

كما كنتُ أؤمن دائما، أنّ لحظات الهدوء نذير لاقتراب العاصفة. ظننتُ أنّ ذلك الجوّ العائلي ودفء الياسمين سيدومان، بل نبتت داخلي شتلات أمل وسلام أنّي سوف أواصل أكثر.. لكن لم يمضِ سوى أسبوعين حتّى لاحظت تفاقم المرض.

لم أكتشف وجوب إحالتي إلى المستشفى إلّا بعد المرور بتجربة أليمة في مراقبة سلوك تعرّجات جسدي أمام المرآة. راقبته كلّ ليلة قبل أن أنام، أقيس وزني وعرض صدري وخصري،

ويوماً بعد يوم كان القياس ينخفض، ونتوءات العظام تأخذ مكان العضلات. لم أقرّر الذّهاب إلى المستشفى إلّا بعد أن تأكّدت في إحدى الليالي أن دماغي هو الآخر بدأت خلاياه تموت على ما أعتقد..

حدث ذلك عندما كنت أقيس كالعادة، فارداً جزئي العلوي بعريه أمام المرآة، أراقب نهش الزّمن لما كان ينزّ حياةً، وكان يبدو لي أنّ نقش الضّعف وخاتم حضوري اختُزلَ بأكمله في خدش الصّغر على كتفي اليسرى. عندما انتهيت من القياس وحين تلبّدت خيبة أخرى في رصيد الخيبات من وزني الذّي خسّ وأضلعي التي انكمشت، فوجئت بجزءٍ مخفي بين أضلعي مكبّدٍ بدماءٍ سود، وعندما تبعت الأثر، وجدتُه ينبع من كبدي، لحظتها اتّخذ عاملي النّفسي بقهر اللّحظة بالتّخيّلات، وعلى إثرها نزفت من أنفي وفمي، ثمّ ارتميتُ على الأرض، فقد زادتني ذكرى اقتراب الرّحيل وجعاً، وياسمين كانت دائماً تحضر في ذاكرتي عند لحظتَيْ الفناء والشّفاء. لم أستطع الحراك، حتى ظننتُ أنّه سيغمى علي، لكن لم يُغم عليّ، وتوسّدتُ الأرض لعدم حراكي، وحاولت أن أنام محتوياً ببرودتها.

وفي الصّباح الباكر، استفقت على رعشة البرد الذي ألحفني، ثم عن غريزة بدون وعي، بحثت عن هاتفي بكلّ شلل، واتّصلت بسعد كي يأتي إلى شقّتي في كلام قصير وصفاً بأنّ حالتي حرجة. عندما أتى لم أستطع حتّى التفوّه بشيء، بل رحت أحاول إفهامه بإشارات، وعندما لم يدرك رسالتي، أعطاني ورقة وقلم، وكتبت له عندما كان لا يزال في يدي القدرة على الكتابة في تلك الحالة، وفي الحال اتّصل بطبيبي كي أُحال إلى قسمٍ بالمستشفى. قبل أن

تأتي سيّارة إسعافٍ لتقلّني، جاءت ياسمين وخالتي تؤلمان لاوعيي. حين أدخلوني السيّارة، كانت أنفاس ياسمين تتصاعد بقربي، كأنّها هي من كانت تحتاج الأوكسجين ليس أنا، وكان صدى أنفاسها المتهدّجة يطنّ بأذني عندما كانت تحاول أن تهدّئ من روعي، فقد كنت في حالة شتات وهذيان. عندما أدخلوني غرفة الإنعاش كي يعقّموا منبع النّزيف الدّاخلي، كانت المرة الأولى التي تحدث لي تلك التجربة، أو ما يسمّى بـ: «الجلاء السمعي»، فحينما كانوا ينهشون بمباضعهم جسدي، وحينما كنت في لاوعيي، سمعتُ خالتي تقرأ ببكاء آيات سورة الإخلاص والفلق والنّاس، وآياتٍ من سورة الفجر تدعو لي بأن ينتهي شقائي لأطمئن بميتة رحيمة، كانت خالتي تتمنّى لي الموت لأنّها فهمت ما كنتُ أشير إليه ذات حديثٍ معها..

ومن وقتها تغيّرت عاداتي بفعل اجتياح المرض، لأبقى جريحاً خائراً ومكبّلاً بالعجز على سرير، محاولاً إضافة ألوان أخرى إلى ذاكرتي.. ألوان الأمل..

II

اليوم سيكون يومي الأخير، أو بالأحرى لن يكون، فما النّهاية سوى البداية، ففصل بدايتي ونهايتي سيبدأ بعد ساعات عندما ينتهي قلم الحبر الذي لم أعد أكتب إلّا به، فقد امتنعتُ عن الكتابة بالرّصاص أخيراً، وجميل أن يكون القلم الذي أكتب به قد قارب على الانتهاء، فلا أريد استبدال قلم جرحٍ بآخر.

يبدو أنّ الأمور وصلت إلى نهايتها أخيراً، الوهن اجتاحني كما لم يفعل من قبل، وأشعر بالضّرر كي أترنّم بما تُنشده عصافير خلف نافذتي، وخلف عالمي المكسي بالبياض والألوان الشّفافة للأنابيب التي تخترق جلدي بدون حياء.

اختلطت الأيّام، لا أعرف ما تاريخ اليوم، أظنُّ أنّه الثّلاثاء، أو ربّما الإثنين.. لا يهم، هو يومٌ من أيّام أسبوعي الخامس بالمستشفى، ويبدو أنّ الصّباح قد أطلّ على نافذتي ليُنير حجرتي قليلاً.

أصبحت يداي هزيلتين، ونتوءات معصمي غدت ظاهرةً بشكلٍ لافت، فقد فقدتُ من وزني الكثير، وسراويل المرضى أصبحت كبيرة المقاس علي، وكلُّ قطعة قماش ألبسها أصبحت تفوح منها رائحة المرض ورائحة اقتراب الموت. عظامي أمست باردة،

وأصبحتُ أبحثُ عن التّدفئة لا غير، ففي آخر الأمر فقد انقلبت طبيعة جسمي ضدّي على غير نفسي التي لم يتغيّر فيها شيء سوى ضعف أكثر. أقدرُ على الحراك، لكن بحدود طاقةٍ تنتهي سريعاً، بفعل آلام ظهري والأرق الذي انتشر في كلّ عضوٍ من جسدي، وخاصّةً كتفيّ اللتين أحسُّ بأن أطناناً من الحديد تربض عليهما. شكلُ وجهي لم يتغيّر كثيراً، ولم تقبل شعيرات جسدي بأن تنسل، وكنتُ مبتهجاً لذلك، سأزداد مرارةً إن سقط شعري. وهزلاني ذاك، لم يكن ناتجاً سوى عن التّقيّؤ لأي شيء كنتُ آكله في الأسابيع الثّلاثة الأولى، وبعد ذلك فقدتُ شهيّتي تدريجياً، وبتّ أرفض طعام المستشفى. طاقة حراكي مصدرها الضّئيل هو أنبوب المغذي، إضافةً إلى منبع الإرادة الذي أحمله داخلي. بشرتي أصبحت أشدّ شحوباً وصفرة، وعيناي أمستا تكتسيان بلون المرض، صُفرةً تارةً وحُمرةً تارةً.

أخيراً أصبح بإمكاني أن أقول بأنّي سعيد، لن أرحل في فصل ولادتي.

مرحباً يا فصل الرّبيع فلتستعدّ أرضك الخصبة لتستقبلني..

* * *

اعتدلتُ في تسريحتي واضعاً ظهري على الوسادة، أخذتُ ساعة يدي من فوق منضدةٍ على جانبي الأيسر، والتي عليها مصباح صغير أشعله ليلاً مُعيداً بجوّه لياليَّ التي كنتُ فيها على قيد كتابة نفسي.

وضعتُ ساعة يدي. تنفّستُ ما سعته رئتاي من الهواء. لاحظتُ في أيّامي الأخيرة أنّ نفسيتي قد خفّ عطبها، بل كأنّني أصبحت

خفيفاً على الأرض، كما لو أن الأشياء التي كانت تُعاكسني قديماً أصبح وجودها حولي شبه منعدم، والظّاهر أنّ خططي في التّصدّي لما يزيدني كدراً قد باءت بالنّجاح، فكلّ ما أصبح يتناهى إلى سمعي هذه الأيام، هو هدوء محض، وسكينة رطبة داخلي، كأنّني فقدتُ القدرة على مجابهة الانزعاج، وأنّه هو أيضاً قد رثى لحالي فأصبح حليفي بمغادرته دون عودة. حالات غضبي هي الأخرى خمدت، فلم أشعر بغليان عروقي منذ زمن.

زيارات العائلة صارت أقل من قبل، وكان ذلك أفضل، لأنّي كما رأيت في زياراتهم العشرة المتفرّقة، كانوا يزدادون يأساً وشفقةً كلّما عادوني، فقد فهموا ما ترمي إليه عقارب الوقت، بأنّ زمن رحيلي سيكون عن قريب، فهذا الهدوء غير العادي الذي تداولني في الأيام الأخيرة، يؤهّبني لسكتة أبدية. ولستُ متضايقاً من هذا التّحايل إذا كان ذلك يُريحني في فترتي هذه، كما أنّه عادل، وينفض عنّي الرّتابة التي تنتظر التّغيير، فلطالما أحببتُ الأشياء التي تأتي مرّةً واحدة دون أن تُعيد كرّتها. أدري أنّ استقبال هادم اللّذات لن يكون سهلاً، ولستُ معوِّلاً على أن يمرَّ ذلك بسلام، إلّا أنّ ما تبقّى من الصّبر الذي جمعته طوال السّنوات الهرمة التي عشتها سيكفي على ما أظن، فقبل كلّ شيء، أنا رجل بين موت وحياة، وبعد كلّ شيء، فقد استجاب لي القدير أخيراً.

مع هذه السّاعة الإضافيّة التي تُضاف في أواخر مارس، صرتُ أشعر أنّي أسبق الزّمن بلحظات، أن تغلغله فيَّ يغدو تزييفاً أتلذّذ به، أدرك أنّها قضيّة الوطن بأكمله، لكنّها قضيّتي الشّخصية أمام عمري الذي سينقضي بشكل أسرع بفعلها، وهذا النّوع من التّسارع

يُعجبني، لأنّه يغيّر منطق العادة لدي، كما تُصبح الأيّام أسرع، لأنّه ليس لديَّ ما أقضي فيه ساعاتي وأبذّر فيه وقتي، فقد حُرمت من عملي بسبب المرض، إلّا أنه كان في سبيل صبر سينتهي في لحظاتٍ أخيرة.

إنّه رضاي بعد كلّ شيء.

دخلت ريحٌ قلّبت أوراقي التي أراجعها. وضعتُ الأوراق والقلم في درج تحت المنضدة، ثم نهضتُ أغلق النّافذة، فلم يعد يستهويني النّظر عبر النّوافذ. سمعتُ طرقاتٍ على الباب المفتوح لحجرتي. استدرتُ بعد غلق النّافذة، وقد كان سعد. اتّجه نحوي يُصافحني كفّاً لكف إلى الأعلى، كما يفعل لاعبو كرة السّلة أو كرة القدم.

قال لي:

- كيف حالك يا صديقي؟

- بخير.

استلقيتُ بسريري.

- ألن تأتي نجوى؟

- ستأتي بعد قليل.

فور حديثي عنها، دخلت تحمل بيدها كيساً، مدّته لي، وقالت:

- هذه هديّة منّي ومن سعد.

لاحظت بيدها التي أعطتني الكيس خاتماً ذهبياً. وجّهتُ نظري صوب سعد.

قلت له:

- سعد يبدو أنّه قريب!

بـدا لـي وجهـه قد امتلأ بسِـمة الحزن، ففـي الغالب لن أكون حاضراً.

قال:

- عدني أنّك ستحضر.
- سـأحضر يا صديقي، سـتعلم أني سـأكون الحاضر الوحيد هناك، وجميع الحضور سيكونون غائبين.

لو لم تنتشلنا نجوى من صمتنا، لاستغرقنا وقتاً حتى تعود لنا صيغة الحديث ومودّته.

قالت نجوى:

- كفاكم ألغازاً وكلمات لا أفهمها، لا تسـتغرقوا في التّفكير المستقبلي.

فانقشع حينها الصّمت الذي حام بيننا.

بلّغني سـعد سـلاماً من المدير والزّملاء. ثمّ انتهت زيارتهما. قال لي سعد قبل أن يُغادر في آخر كلمةٍ له: «كُنْ بخير!»، ونجوى قبـل أن تخـرج قالـت لي: «اسـقي ورودك اليوم، فصاحبتها سـتأتي اليوم». وكان كذلك، فبعد الظّهيرة اتّصلت بي ياسـمين أنّها سـتأتي بعد انتهاء عملها.

أخرجـتُ أوراقـي وقلمـي مـن الدّرج أكمل مـا كنتُ بصدده. وبعدما شعرت بعياء الجسد أخذت غفوة.

III

استيقظت على عبق رائحة الياسمين، فتحتُ عينيّ على صُفرة مصباحي الصّغير.

أتى المساء إذن!

حدّقتُ في السّقف شبه المظلم، ثمّ أغمضتُ عينيّ كي يستشعر جسدي وعي المكان. كمشتُ يدي اليُمنى، شعرت بحرارة تنوط بها. فتحتُ عينيّ من جديد لألقي نظرةً على يدي، فوجدتُ ياسمين تُسند رأسها على سريري نائمة وتُمسك يدي. استويتُ بظهري على الوسادة، ويد ياسمين الصّغيرة كانت لا تزال تؤنس عظام يدي النّحيفة. لوهلة شعرتُ أنّ قسوة الحياة ملكتها ياسمين أيضاً.

لم تيأس سيّدة الياسمين هذه، ما زالت أبجدية ياسمينها تسكنني وتلعب دورها في تقديمي للون الفرح.

كدتُ أقبّل يدها لو لم تستيقظ كعصفورٍ يتثاءب. وجدتني أبتسم لحضورها.

– يا لكِ من طفلة! يأخذك النّوم حتّى في المستشفيات.

ضحكت وهي تتثاءب.

– اخرس.. اخرس! لو لم تكن نائماً لما نمت.

ضحكتُ قائلاً:

- كما تقولين!

- هل الأمور في تحسّن؟

صمتُّ للحظة، ثمّ قلت:

- تبدو الأمور بخير.

ثمَّ تلوتُ كلامي بابتسامةٍ عريضةٍ تشي بالضّعف.

حملتُ قنّينة الماء التي كنت أحتضنها بجانبي، وسقيتُ بآخر ما فيها الأزهار. نهضتُ من السرير، جررتُ مشجب المغذّي نحو النّافذة لأفتحها.

قلتُ لها بعد فتحها:

- تعالي أريد أن أريك شيئاً.

تقدّمت نحوي. قامت بوضعيتي نفسها، وضعت مرفقيها على حاشية النّافذة.

نظرتُ إلى السّماء وقلت:

- أتعلمين! هناك نجمة في لحظة مناسبة تتعلّق في سماء الله، تكون تلك النّجمة أحبّ شيء لأيّ كائن بشري، دائماً تتفرّد باللّمعان بين النجوم الأخرى ولا تغيب.

ثم أشرتُ بسبابتي إلى نجمتي الوحيدة هناك.

- ياسمين، أترين تلك النّجمة هناك؟

- تلك القريبة من الهلال.

- نعم. إنّها أنتِ، قد تكون هذه آخر مرّةٍ أحادثك فيها، أو ربّما هذا هو الوداع هنا على الأرض، لكن تيقّني أنّي سأبقى هناك أعلى، قد أغيب، لكني سأحضر قرب نجمتي

تلك، لأنّها فقط أنتِ..

- ....

- أتدرين كنتُ أناديك كل ليلة مقمرة، فقد كنتُ أبحث عن موطن أعود إليه، ولا شكّ الآن في ما سأقول، فببساطة أنت موطني، كنتِ تسكنينني منذ القدم، لكنّي فقط لم أُلقِ بالاً، والآن تأخّر الوقت، هذا قاسٍ ياسمين، سأُحرم منك...

لم تتفوّه ياسمين بكلمة، وما كدتُ أعيد نظري من السّماء إليها، حتّى وجدتها تبكي، وكانت عيناي كذلك، فقد آن لي بعد زمن أن أبكي، أن أفرح بكاءً على قلبي الذي استعادت أجزاءٌ منه هويّتها التي ضاعت في أزمنةٍ غابرة.

احتضنتها كأنّي لا أريد فراقها.

كم أبكيتك ياسمين، سامحي ألمي النّزق، لا تنسيني، فقد شِبتُ في محاولات النّسيان، دعي شبابي يعود بتذكّرك لي، ولو بزيارات قبور، لا أدري كيف هي الحياة البرزخيّة، وكيف ستكون حالتي مع اللاوقت هناك، ولا أدري بعد الدّور الذي يقوم به الميت.

أجهدتُ كثيراً، وجُهد حديثي كاد أن يفقدني وعيي بين ذراعيها، فتركتها وجررتُ مشجب المغذي بمساعدة منها كي أستلقي على السّرير.

جلستْ وابتسامةٌ تعلو على وجهها مع الدّموع.

قالت:

- تبدو مختلفاً! يخيّل لي أنّي لم أعرفك يوماً هكذا، بل أشعر بأنّ حضورك أصبح أقوى من ذي قبل.

قلت وأنا أضحك:

- عدتُ طفلاً.. من جديد.

بعد لحظة غمرني الحزن، فسألتني:

- ما بالك مرّة أخرى؟

بلعتُ غصّةً حارقة. قلت:

- ياسمين أنا حزين اليوم.

- ....

- ليس ما تعتقدينه.. أنا حزين على أرض الياسمين، إنّها تنسل.. سوريا تنزف.

- ....

- قلبي يئنّ من جانبها.. أريد أن أفعل شيئاً..

مسحتُ دمعةً نزلت على خدّها وقلت:

- أريد أن أطلب منكِ شيئاً..

- وما هذا الذي تريده؟

- أنتِ تعلمين أنّه لا أحد سيرثني.. أريد من سوريا أن ترثني، تبرّعي بكل ما لدي.. بيعي شقتي.. أيّ شيء، سأعطيكِ جميع ما أملك، وامنحيه في سبيل سوريا.. ياسمين، أتألّم عندما أرى سوريا تنزف حزناً.. ويتماً..

- ....

- أعلم أنني لا أقدر على شيء.. فرجل سيموت لن يفيد في شيء. ياسمين! جِدِي طريقة كي تدعميهم بها.. إنّهم إخواني، يحبّون الياسمين كما أحبّه!

صمتُّ بعد برهة، ثمّ أكملت:

- .. لـو كان ممكنـاً.. أريـد أن أدفن هناك! أريد أن أدفن في أرض الياسـمين. أنـا عربـيّ أليس كذلـك.. أحبّ أن أدفن هنـاك.. أو فقـط ألقي بجسـدي هناك، سـيعرف الياسـمين كيف يُعالجني فدائماً ما هو يفعل.

أُجهدتْ ياسمين بكاءً..

ما زلتُ أُبْكيها وأَبْكيها.. لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ ياسمينُ دمشق يحترق، لكنّه سيعود.. سيُحييه الله..

خيّم الحزن على الغرفة، ومنظر ياسـمين زاد من ألمي أكثر. قلتُ لها:

- موعد الزيارة قارب على الانتهاء، قاربت العاشـرة، يجب أن أرتاح، فموعد دوائي اقترب.

حملـتْ حقيبتهـا بعد أن تداركـت الوقت هي الأخرى. مدّت لي بكوب ماء وناولتني دوائي، شربته وسرى في دمي يُرغمني على الاستعداد للنّوم.

للحظات بقيت واقفةً تنظر إليّ. كانت ملامح وجهها تعزم على شيء. ثمّ قامت بخطواتٍ نحوي وطبعت قبلة على خدّي وأخرى على جبيني، فقالت: «هذه كي تبقيك على الحياة»، ثمّ انصرفتْ دون أن تقول كلمة وداعٍ لأنّها لا تريد وداعي، كما لا يريد الياسمين أن يفارق أناسه.. فالوطن ليس رقعة أرض.. بل عضلة في الصّدر، وإذا توقّفت العضلة.. بقيَ الأثر يتوارث.

كنتُ كهانكوك، كلّما اقتربتُ من ياسمين زاد ضعفي واتّضحت ملامحـي، وكمـا قالـت، فإنّـي أبدو غريبـاً اليـوم، والغرابة هي من علامـات الرّحيـل. سـأحاول أن أتحسّـس شـفتيها بوجنتي وجبيني

ما أمكن، وسـأحاول أن أسـخّر ذاكرتي في تكرارها دون الشّـعور بالملل.. والقادم مهما يكن سأحملها في ذاكرة قلبي.

لا تنتظريني سيّدتي، فرقودي الأخير قادم.

IV

اكتنفتني الأوجاع، وخثر الدم، وتخرّقت عدّة كبسولاتِ مرارة داخلي. أرشدنا الله بأن لا نودي بأنفسنا إلى التهلكة، ويبدو أني أهلكت نفسي وعذّبتها. كنتُ أُرغم على نفسي أن أتلو عليها أنّي اتّخذت طريقاً حيادية للعيش، فآمنت بأنّ طريقي تلك كانت هي الأرقى لظاهرة كالتي كنت أشكلها، لكن أدرك في هذه اللحظات أن أفكاراً سلبية فقط كانت رابضة على ذهني، فلو أنّي فكّرت بشكل آخر لكنتُ أفضل من الآن. بيد أنّ الأمر سيّان، لم أكن لأحظى بياسمين في كلتا الحالتين، فقد كان الموت قدري.. كان الموت حاجزي، فلقد قدّمت طلباً إلى الطبيب كي أجري العملية، لكن ذلك كان متأخّراً، فقد انتشر السرطان في كامل كبدي، ولا شكّ أنّه انتشر أيضاً في الأعضاء الأخرى، وأصبح مستحيلاً فعل شيء.

العمر لحظات.. لكن لا بأس.

رغبتُ أن أموت وأنا راضٍ عن كلّ ما أوجعني، وألّا أعيد ذكرى الحنين الأولى، رغبتُ أن أغادر وأنا أحمل جبال الذاكرة معي، أكره رؤية ما أحنّ إليه يحترق أمامي على مماتي، على أن يمشي بخطىً متعبة في الطّريق مشيّعاً جنازتي، رغبتُ أن أفنى دون صدى ولا صورةً تعاد في الذّاكرة تريد بقاء أثري على هذه

الأرض.. لكن ما هكذا تُحاك الأحزان، فالمآسي تسمى كذلك لأنّها تجمع الفرد والجماعة.. إذن فمرحى للوجع وبؤسه!

لم أعد أحتمل!

روائح الحنين بدأت تجترّني، تجذبني من أزقّة الفرح إلى غيابات الحزن الطّويل. والوقت الذي بدأ ينزح ببطء نحو الغد، يحقن في أوردتي الوجل. قبلاً قضيتُ أوقاتاً أمارس ما كان يمارسه نيوتن، فقط أعدّ وأعدّ وأعدّ، حسبتُ احتمالات كم تبقّى لي من الأيّام.. من السّاعات.. من الدّقائق.. من الثّواني.. من اللّحظات.. ولم أجد في النّهاية غير هذه اللّحظة لحظةً للفناء. وإنّه المساء كما خطّطت، سأكتمل بنهاية قصيدةٍ ابتدأتني.

لديَّ إحساسٌ اليوم بأنّ الوقت قد اقترب، وأنّ وقت السفر قد حان له أن يأتي. وقد أزفت ساعة الرّحيل كقلم الحبر الأزرق الذي أكتب به، والذي شارف على الانتهاء هو الآخر فقد أصبح باهتاً، والذي سيُسخِّر آخر قطراته في كلماتي الأخيرة، وحبر هذه الدّنيا لا ينفع في كتابة فصل ما بعد الموت، فللموت توقيته الخاص، ولا يُمكنني وصف رقودي الأخير، ولو كان مُمكناً.. فلن أفعل.

ما الكلمات الأخيرة التي يُمكنني أن أنكتب بها الآن يا ترى قبل الاضمحلال؟

فلتكن جملاً راقية إذن، مهذّبة تحمل عنفوان رجلٍ راحل، ولا يهمّني أمر أحد آخر سوى ياسمين.

إليك وحدكِ ياسمين، حاولي أن تكتنزيني داخل صدرك، وليذكرني قلبك ياسمين فأنا أحتاجه.

لن ينفع التّمني الآن في كتابتي السّـريعة قبل النّفاد، حبّذا لو كنتِ هنا أيتها الغائبة عنّي والقريبة إلى ذاكرتي، أريدك أن تمسحي على رأسي كما كانت تفعل أمّي عندما أمرض، أريد شفتيك على جبهتي وخدّي.. فقط امنحيني وقتاً كي أطيل التّحديق في عينيك..

ياسمين لا أجيد الكلام في منطق الحب، وكلماتي لا ترضى أن تلين له، ويدي كذلك لا تُجيد خطّ الوصايا، لذا فهذه هي آخر كلماتي لكِ، لربّما هي آخر ما أملك من رصيدٍ لغويٍّ قبل أن ينفد وأنفد:

غادرتكِ فلا تذبلي.

20/ 12/ 2015م

هشام فريد